السيرة الذاتية الكاملة

واحات العمر
واحات الغربة
واحات مصرية

محمد عنانى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢
مكتبة الأسـرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
سلسلة الأعمال الكاملة

السيرة الذاتية الكاملة
واحات العمر - واحات الغربة - واحات مصرية
محمد عنانى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : **محمود الهندى**
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

السيرة الذاتية الكاملة

واحات العمر
واحات الغربة
واحات مصرية

على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً فى المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص. ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى **«مكتبة الأسرة»** .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك**..

د. سمير سرحان



تصـديـر

هذا هو الجزء الثالث من واحات العمر ، وهو يتناول السنوات من ١٩٧٥ وهو عام عودتى من البعثة حتى عام ٢٠٠٠ ، عام التفرغ فى الجامعة والتحرر من 'المنصب' الرسمى ، أى إنه يبدأ من حيث انتهى الجزء الثانى واحات الغربة بل فى اللحظة نفسها - لحظة العودة بعد السنوات العشر خارج مصر ، وهذا الجزء ، مثل الجزءين الأول والثانى ، لا يزيد عن كونه مرحلة من مراحل السيرة الذاتية الأدبية ، أى إنه ليس تسجيلا لجميع الأحداث ولا لمعظمها ، لا بل ولا لأهمها ، بل هو وصف للواحات التى ما زالت خضراء دانية القطوف فى أعماق النفس ، وهى واحات مصرية صميمة ، على كثرة ما انتقلتُ من مصر واغتربتُ فى هذه السنوات ، وتقسيم الفصول ليس تقسيمًا زمنيًا ، فالفصل الأول يتناول أحداث أقل من عامين ، والفصل الثالث يضغط أحداث عشرة ! وكذلك تقسيم كل فصل إلى أجزاء ، فالأحداث وحدها هى التى أملت التقسيم ، وهى أحداث أدبية يتصل فيها العام بالخاص ، وكما كان شأنى فى الجزءين الأول والثانى ، حرصت على الصدق فى كل ما أرويه ، والتزمت برصد كل ما اختزنته الذاكرة ، مستندًا إلى المفكرة التى كنت ولا أزال أسجل فيها الأحداث البارزة ، والخطابات المتبادلة مع الأصدقاء ، وقصاصات الصحف التى كنت ولا أزال أحتفظ بها ، وكان لابد من إخفاء أسماء بعض الشخصيات التى تعيش بيننا ، إذا رأيت أن ما أرويه قد يسبب لها حرجًا ، ولكننى لم أحجم عن ذكر الأسماء الحقيقية فى معظم الحالات .

والواحات المورقة الوارفة الظلال ليست جميعها واحات فرح وسرور ، إذ إن بعضها يحفل بالأحزان والآلام ، ولكنها تظل واحات ابتراد من هجير الحياة لأنها أصبحت تنتمى إلى الماضى ، وقديما قال الشاعر إن الماضى مقدس لأنه لا يعود ولا يتغير أبدًا ، ومن ثم فهو يؤكد وجود الزمن ، ووجود الزمن أو الإحساس به هو وسيلة كل قلب حى للإحساس بالوجود المطلق ، أى

الوجود الذى يتجاوز البدايات والنهايات ، ويربط كل 'حادث' فى النفس بوجود النفس ذاتها ، والنفس بعدُ هى الروح التى لا تتجلى إلاّ فى الزمن فتؤكد للإنسان أن لا بداية ولا نهاية ، بل انتماء إلى روح السرمد .

والسيرة الأدبية إذن ، ومن هذا المفهوم ، تسجيل للحادث الناجم عن السرمدى ، وهو الزمن ، وتسجيل الحوادث هو ربط لها بالزمن ، والطريق الموصّل إلى إدراكه ، أو الوعى به ، ومن ثم فالحوادث ليست 'موضوعى' ، بل إن الزمن هو 'موضوعى' ، والربط بين هذا وذاك هو موضوع كل أدب ، فما حركة الأدب فى النهاية إلاّ حركة الوعى .

محمد عنانى - القاهرة

٢٠٠١

الفصل الأول



انطلقنا فى سيارة الأجرة الصغيرة - الأستاذ أحمد السودة وأخى الأصغر مصطفى وأنا - نطوى شارع المطار طيًا فى ظلام الليل الدامس ، وما يشبه الفضاء الممتد بلا نهاية حولنا . وكانت سيارة صغيرة من طراز فيات ، لم أتبين عام إنتاجها ، ولكنها كانت طاعنة فى السن أو قل إنها تعرضت لأهوال جعلتها تبدو هرمة مهدّمة ، فأوصالها ترتجُّ وتصطكُّ كلما صادفَتْ حفرة أو نتوءًا فى الطريق ، فإذا كان النتوء شديدًا قفزت فارْتَطَمَ رأسى بالسقف ، وعندما تطلّعْتُ إلى عدّاد السرعة وَجَدْتُه مُعَطَّلاً ، فصاح أخى بالسائق أن يبطئ من سرعته بعد أن تجاوزنا سور الكلية الحربية وأشرفنا على مدخل مصر الجديدة ، وكان السائق شابًا بَاسِمَ الوَجْه، لا يكترث للظُّلْمة ولا لأشباح المارّة ممن يعبرون الطريق فى ثقة واطمئنان ، بل ينحرف ويتلوّى ليتفادى 'العوائق' من السيارات والبشر ، ولكننى كنت على انزعاجى مأخوذًا بجمال القاهرة ليلاً ، وبالأضواء المتلألئة فى الأفق ، فلم أعبأ برعونة السائق ، وكان الأستاذ أحمد وأخى يدركان مدى انفعالى فآثرا الصمت معظم الوقت ، فيما عدا كلمات مقتضبة عن الرحلة والوصول .

كان ذلك يوم الأربعاء ١٧ سبتمبر ١٩٧٥ ، وكنت أتوقع أن أرى تغييرًا كبيرًا ينبئ عن سنوات الغربة العشر ، ولكن ما رأيته لم يكن ينبئ بشىء إذ وجدت غرفتى السابقة كما هى ، وكان أخى الأصغر مصطفى يشغلها ، فحططت الرحال فى غرفة أخى حسن ، وهو أوسط ثلاثتنا ، وكان قد تركها بعد أن تزوج قبل عدة أعوام واستأجر شقة أخرى ، وكان آنذاك فى

مونروفيا (عاصمة ليبيريا) حيث يعمل دبلوماسيًا فى سفارة مصر ، ولم ألحظ فى الشارع تغييرًا يذكر سوى أن اسمه قد تغير من شارع الدُّرى إلى شارع الفردوس ، ربما للتمييز بينه وبين شارع الدرى الآخر فى أعماق الجيزة ، وربما لغضب الحكومة على محمد الدرى باشا الذى سُمِّىَ الشارع باسمه (وكان ذلك وما زال يمثل لى لغزًا محيرًا) . وبعد قليل زارنا ابن خالتى محمد الخطيب ، المهندس الذى كان ضابطًا بالجيش والذى أرسل من يستقبلنى فى المطار ، مع زوجته أميرة عجمية (التى حصلت فيما بعد على الدكتوراة والأستاذة فى كلية الآداب حاليًا)، وهى أيضًا ابنة خالة لى ، واطمأنّا على وصولى ثم خرجا . وكانت والدتى فرحة بعودتى - بطبيعة الحال - وهى تؤكد لى أن كل شىء كما هو لم يتغير ، وقال لى والدى "هل تصدق أننى أصبحت فى الستين" ، فكأنما كانت الستين أرذل العمر !

كان أول شىء فعلتُه هو الاتصال بمنزل أصهارى فى شبرا ، ورد على التليفون حماى الأستاذ محمد خليل صليحة رحمه الله ، ثم حادثتنى حماتى وأخوات نهاد برتى وعزة وسناء، وأخوها أحمد ، وقيل لى إن سارة ابنتى نائمة ، وعلمت أن الجميع بخير ، وكانت نهاد زوجتى قد سافرت إلى جدة قبل عدة أسابيع للعمل بالتدريس فى جامعة الملك عبد العزيز، وعلمت أنها ترسل إليهم خطابات بصورة منتظمة ، كما علمت أن سمير سرحان الذى كان معارًا إلى السعودية والذى أقنعها بالسفر قد وجد لها سكنًا مناسبًا مع زميلة مصرية هى وفاء الزير (الدكتورة) . وكان عبد العزيز حمودة أيضًا فى جدة مع أسرته ، فاطمأن قلبى على أن نهاد لن تشعر بالوحشة ، فأصدقاء الصبا من حولها ، خصوصًا نهاد جاد (رحمها الله) زوجة سمير التى كانت تكن لها حبًا جارفًا ، وكان الإرهاق قد بلغ بى مبلغه فنمتُ من فرط التعب.

نهضت مبكرًا وجلست وحدى . لم أكن أتأمل أى شىء محدد أو أفكر فى فعل شىء ما، بل كان يغلب علىّ الشعور بالاستسلام . لقد تجاذبتنى أيدى الأيام فشُغِلْتُ بالدراسة المتخصصة حينًا ، وبالعمل حينًا آخر ، وبالقراءة فى غير التخصص فى أغلب الأحيان ، وها أنذا أعود إلى مصير أجهله ولا أريد أن أعرفه ، وكان أمرّ ما فيه تفرّق شمل أسرتنا ، وأذكر أننى حادثت نهاد زوجتى بالتليفون من لندن بعد وصولها إلى جدة فقالت لى إننا نعيش فى قارات ثلاث : أنت فى أوروبا وأنا فى آسيا وسارة فى إفريقيا ! ولم أكن فى ذلك الصباح أفكر فى شىء من هذا ، بل كان علىّ أن أصدق أننى عدت إلى مصر ، وعندما دقت ساعتنا العتيقة ثمانى دقات أيقظت بعض النائمين وأخبرتهم أننى ذاهب إلى الجامعة .

وفى مكتب شئون العاملين بكلية الآداب أمضيت ورقة تفيد عودتى من الخارج ، وعلمت أن راتبى أصبح أربعين جنيهًا فى الشهر ، ثم دخلت قسم اللغة الانجليزية فلم ألمح أدنى تغيير ، وقابلت نادية جندى (الدكتورة) زميلتى التى كانت تسبقنى بعام دراسى واحد ، فرحبت بى ترحيبًا شديدًا ، وكانت الصداقة قد جمعت بيننا أيام الدراسة فى الخمسينيات ، إذ كنا نشترك فى تمثيل المسرحيات بالإنجليزية ، وكان حديثنا اليوم أيضًا بالإنجليزية ، وبعد دقائق فوجئت بها تقول لى "لقد اكتسبت لهجة بريطانية خالصة !" فوجئتُ ودُهشت ، لأننى كنت أتوقع أن تكون هذه هى اللهجة السائدة ، ولم أكن أتوقع أن تنتقل اللهجة الأمريكية (مع اللغة الأمريكية) إلى أفواه المصريين ! وقابلت بعض الزملاء ممن تخرجوا أثناء غيابى مثل محمود عياد (الدكتور) (الذى هاجر إلى أمريكا) ورشيد العنانى (الدكتور) (الذى هاجر إلى انجلترا) وعبلة مصطفى (الدكتورة) التى كانت تتحدث عن السفر لاستكمال الدراسة ، ثم عدت أدراجى سيرًا على الأقدام ، مما أتاح لى أن أتطلع إلى كل شىء فى شارع الدقى ، كأنما أحاول بعث ذكرياتى ، ولكن مشاهد الماضى البعيد كانت تزاحم المشاهد الآنية ، وتختلط مع مشاهد بلاد الانجليز ، فلا تعود إلا بالبلبلة .

وفى المساء زارنى الأستاذ أحمد السودة الذى أصبح رئيسًا للنيابة الإدارية ، وكان دائب القراءة والاطلاع متبحرًا فى العلم ويتعطش دائمًا إلى المزيد ، مما زاد من حبنا وتقاربنا إلى هذا اليوم ، مع الأستاذ ماهر البطوطى - الذى كان يعمل آنذاك فى وزارة التعليم العالى بعد عودته من العمل ملحقًا ثقافيًا فى إسبانيا ، وكان قد أجاد الإسبانية إلى جانب الفرنسية والإنجليزية ، وكان يحلم مثلى بمستقبل أدبى فى الكتابة والترجمة وخرجنا معًا نتجاذب أطراف الحديث ونتبادل الأخبار عن أفراد أسرة كل منا ، وعن أحوال مصر بصفة عامة، وسرنا معًا إلى وسط البلد كما كنا نفعل قبل عشر سنوات ، وكان التغيير الوحيد هو الزحام الشديد ، ولا غرو فاليوم الخميس ، ومساؤه مساء السهر ، ولاحظت إعلانات عن مسرحيات ذات أسماء عجيبة وأفلام ذات أسماء أعجب وأغرب، وتحادثنا عن الزواج والإنجاب فشرحت لهما كم كان حظى سعيدًا بالزواج من نهاد، وبالحياة معها خارج مصر ، أى خارج نطاق الأسرة - وهو ما لا يتوافر لكثير من الأزواج ، ولم يكن الأستاذ أحمد وماهر قد تزوجا بعد، فقال ماهر البطوطى إنه تعرف على فتاة فرنسية أثناء مقامه فى إسبانيا وينتوى الزواج منها لو قدر له أن يعمل خارج مصر ، وقال الأستاذ أحمد إن تجربة الزواج لا تنجح فى أحوال كثيرة وينبغى

التروّى قبل ولوجها ، وصادفنا فى الطريق بعض معارفنا الذين رحبوا بعودتى ، وعرّجنا على مقهى جروبى بميدان سليمان (طلعت حرب) حيث قابلنا 'مصطفى هاملت' الشهير .

كان مصطفى المذكور قد نال أعلى درجة فى اللغة الانجليزية عام ١٩٦١ على مستوى الجمهورية كلها ، فتسلم جائزة مالية وأدبية ، والتحق بقسم اللغة الانجليزية واثقًا من التفوق ، ولكن الدراسة (والامتحانات) بالجامعة تختلف عن الدراسة والامتحانات فى الثانوية العامة ، فلم يوفق فى السنة الأولى إما بسبب ثقته الزائدة بنفسه ، وإما بسبب الاختلاف الذى ذكرته ، فتحولت هذه الثقة إلى غطرسة وخيلاء ، وأصبح يمشى مشية مسرحية عادة ما ننسبها إلى من يمثلون أدوار العظماء على المسرح ، وانتقل بتقدير 'معقول' إلى السنة الثالثة ، فتملكته حالة غضب واشمئزاز من الدنيا - وهو ما ننسبه عادة إلى شخصية هاملت فى مسرحية شيكسبير التى تحمل ذلك العنوان ، وتكوّن لديه مزيج من الشعور بالعظمة والاضطهاد معًا ، مما يسميه العلماء ''بارانويا'' ، وسرعان ما أصبح يتكلم بلهجة العارف بأسرار الكون وألغازه ، المحيط بدقائق الحياة الدنيا والآخرة ، مصعّرًا خدّه ، ناظرًا بطرف عينه إلى من حوله ، وعمل بعد تخرجه مدرسًا للغة الانجليزية فى مدرسة ما ، فكان ينتهى من عمله ثم يخرج إلى وسط البلد لينظر إلى الناس نظرة تعالٍ وتكبر ، ثم يحط الرحال فى مقهى جروبى سليمان . والغريب أنه كان حادّ الذهن قوى الذاكرة ، فما أن لمحنى حتى رحّب بى بالاسم ، وقال لى أنتم فى الجامعة تهتمون بما لا يفيد ، أما أنا فقد قرأت الكتب المقدسة واطلعت على أسرار الملكوت ، ولم يستطع أحد منا أن يسخر منه أو يجادله ، بل استمعنا إليه في صمت قبل أن نجلس ونطلب الشاى . وهمست وأنا أصبُّ الشاى ''لقد شاهدت 'طارق زكى غانم' هذا الصباح يسير فى شارع الدرى !'' وصاح ماهر ''يووه ! إنه لا يزال كعهدك به ! لم يتوقف عن السير فى شوارع العجوزة حاملاً أوراقه !'' - وطارق المذكور كان تلميذًا عندى فى الستينيات ، وكان هو الآخر مغرمًا بشخصية هاملت ، فكتب عنها ما يسميه بحثًا ، وكان يستمد قوّته من الآلة الكاتبة التى أهداها إليه والده الناظر (فى إحدى مدارس الدقى) فكان يعد 'بحوثه' على الآلة الكاتبة ، فتتخذ صورة الكُتاب المطبوع ، ويزور الدكتور فايز اسكندر أستاذ الدراما فى القسم فيلحُّ عليه أن يقرأ دراساته وأن ينشرها له 'فى الخارج' ، ثم انتهى به الأمر إلى أن صار يحمل المخطوط المنسوخ على الآلة الكاتبة ويدور به على الناشرين طيلة السنوات الماضية كلها ! وتذكرت قول شارلوت زوجة الأستاذ الانجليزى (كريستوفر سالفسن) الذى أشرف على

رسالتى للدكتوراه ، إن دراسة الأدب قد تؤثر تأثيرًا غير حميد فى نفس (عقل ؟) الإنسان . وجعلت أفكر فى ذلك الجنون ونحن عائدون إلى المنزل ، وعندما خلوت إلى نفسى خرجت إلى الشرفة للابتراد .

كانت الشرفة هى المكان الطبيعى لتتسم روح 'المجتمع' فى منطقتنا ، فكان معظم أهل المنطقة يعرفون بعضهم بعضًا ، بل ويتبادلون التحية فى الشرفات ، ولو كانت تقتصر على بسمة ، فإذا كانت البسمة من 'بنت الجيران' كُتب على الشاب أن يبيت الليل سهادًا كما يقولون ! ولكننى وجدت أن جميع النوافذ مغلقة ، وأن كثيرًا من الشرفات قد ضُمَّتْ إلى الغرفة المفضية إلى الشرفة ، فأقيمت فوقها أسوار من الزجاج المعتم المُدَخَّن ، أو من الخشب، وأن جوًّا غريبًا من الصمت أصبح سائدًا ، لا تقطعه إلا أصوات الراديو أو التليفزيون المنبعثة من الشقق . وتذكرت قول الشاعر الانجليزى ماثيو أرنولد فى قصيدة 'ليلة صيف' إن النوافذ المغلقة منفّرة مثل الدنيا ، وكانت أضواء الطريق مطفأة ، ربما لتوفير الطاقة ، فاكتسى مشهد الشارع كآبة زادتنى همًّا على همّ . لقد تغيّر شىء ما فى مصر ، وحاولت إقناع نفسى بأنه وليد سنوات الحرب الطويلة ، فأنا أعتبر أن الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣ كانت معركة متصلة ، وأن جو الحرب قد أحدث تأثيره ولا شك ، ولكن إحساسًا دفينًا كان يقول لى إن المسألة ليست 'جو حرب' وحسب ، وتأكد لدىّ هذا الإحساس فيما بعد ، مع بداية العام الدراسى وتنقلى للتدريس ما بين جامعة القاهرة وأكاديمية الفنون والأزهر والفيوم - لقد اختلفت مصر !

وفى الصباح الباكر هبت نسمة منعشة ، إذ اتصل بى ماهر شفيق فريد (الدكتور) ، تلميذى السابق وزميلى وصديقى الحالى ، فرحب بى وعرض أن يدعونى إلى الغداء معه فرحبت ، وهو مثلى ممن ينهضون مبكرًا ويحبون المشى مسافات طويلة ، فقررنا الخروج قبل أن تشتد حرارة الشمس ، وفعلاً تقابلنا أمام منزله فى شارع نوّال (المشهور باسم نوال دون تضعيف الواو) وانطلقنا نسير فى شارع سليمان جوهر (وكان شارع السوق) مما أبهجنى لوجود الناس من أبناء البلد الذين لم يَبْدُ عليهم أدنى ما يُذكِّرُ بجو الحرب (المفترض) وصرت أقف عند باعة الطيور والدواجن ، وأتأمل أقفاص الحمام والدجاج والأرانب ، وأنظر ما يقوله الزبائن وما يفعلونه ، كأننى أرتوى من منهل عذب حرمت منه سنينًا ، وكان ماهر صامتًا كدأبه، مقدرًا أننى متعطش لأن أرى الناس وأن أسمعهم ، فقضينا وقتا لا حساب له فى ذلك الشارع وما حوله حتى وصلنا إلى ميدان الدقى. وكأنما أفقت من حلم طويل سألته إلى أين

يريد أن يذهب فقال إلى هَدْهُود ! وما هدهودُ هذا ؟ فقال إنه مطعم وكبابجى جديد ، أغلقته الحكومة فيما بعد بسبب مخالفات قانونية ، ولكنه كان قد ذاع صيته حتى أصبح منافسًا لكبابجى الدقى !

وفى المطعم جعل ماهر يقص علىّ طرفًا من أخبار الحياة الأدبية فى مصر ، ويطلعنى على ما يدور فى الجامعة ، وعرفت منه أنه يدرس فى جامعة لندن وأنه يقضى عطلة الصيف فى القاهرة ، إذ أصبحت الحكومة تسمح للمواطنين بالدخول والخروج كما يشاءون ، فسررت سرورًا عظيمًا ، وإن لم أكن آنذاك أعتزم الخروج إلى أى مكان ، فلقد رَسَت السفينةُ وغِيضَ الماءُ وقُضى الأمر ، وظللنا نتكلم ، وكانت كل كلمة تعيد إلى نفسى الاتزان الذى اختل بعض الشىء ، وكان الكباب الذى طلبه ماهر شهيًا فزاد من جمال الكلام وأكَّدَه ، ولم أكن أكلت كبابًا مصريًا منذ عام ١٩٦٥ !

كانت الساعات التى قضيتها مع ماهر بمثابة "حفل استقبال" حقيقى ، فهو يمثل العالم الذى عدت إليه ، والذى كان ما يزال غامضًا يلفُّه ضبابٌ كثيف ، لا أكاد أستبين منه ملمحًا من الملامح ، وكان ماهر يعود كل صيف إلى القاهرة حتى لا يتسبب طول البعد فى مثل هذا الغموض ، وأما أهم ما أزال عنى الوحشة فهو إيمانه بالرسالة التى نذرنا أنفسنا للنهوض بها ، واعتقاده الراسخ بجدوى العلم والأدب مهما تكن الظروف ، وكان حديثه معى يصدر عن قلب يحمل دفئًا صادقًا ، فكل كلمة متوهجة ، وكل صمت ينطق ، وعندما آن أوان الرحيل دفع ماهر النقود ومنح الجرسون بقشيشًا سخيًا ، فوجدتنى أشكره على كرمه فضحك وذكرنى بأننى كنت قبل السفر أخرج مع الأصدقاء وأحيانًا أدعوهم إلى تناول الكشرى ، وكان ماهر على صغر سنّه من أفراد "الشلة" ، وكانت تلك من الأحداث التى نسيتُها ، لكنه كان يذكرها بوضوح ، فأثار حديث الكشرى شجونى واشتقت إلى تلك الوجبة المفضلة لدىّ ، على ما أحسسته من امتلاء ! وخرجنا من المطعم وعدنا أدراجنا مشيًا حتى وصلنا إلى شارع نوال فافترقنا .

وعندما خلوت إلى نفسى فى غرفتى الصغيرة أخرجت حقيبة ضخمة كانت والدتي قد وضعت فيها كل أوراقى وبعض كتبى وأشيائى ، وكانت من بينها أعداد مجلة المسرح القديمة التى كنت أرسل لها "رسائل فنية" ، ومجلة 'الجديد' التى كنت أراسلها أيضًا فى مطلع السبعينيات ، وجعلت أُقلِّبُ الأوراق فعثرت على عددٍ من مجلة الأدب التى كان يرأسها أمين

الخولى ، وكان ماهر شفيق فريد قد أخذ منى نَصّ قصيدة قصيرة بعنوان 'الصمت' ونشرها فيها (ثم أعدت نشرها فى أول ديوان لى بعنوان أصداء الصمت عام ١٩٩٧) ، كما وجدتُ نصوص بعض المسرحيات التى قدمتُها على المسرح قبل سفرى ، فأضفتُ إلى الحقيبة الترجمة الانجليزية التى كنتُ أنجزتُها فى انجلترا لمسرحية مسافر ليل لصلاح عبد الصبور ، وقضيت الساعات التالية فى تأمل ما يمكننى أن أفعله فى المستقبل ، ولم تكن أحلام العودة إلى كتابة المسرح قد تبخّرت ، إذ كنت ما أزال على حبى القديم للدراما ، أتلهف للعودة إلى الكتابة وعالم المسرح ، ولكننى أغلقت الحقيبة مؤقتًا - وعدت إلى الواقع .



كان همى الأول - كما قلت - هو الذهاب إلى المطار لتسلم الحقائب الثلاث التى كنت أرسلتها مع الصندوق الخشبى أو الهيكل الخاص الذى وضعت فيه ست مرايا مربعة من 'البنّور' ، ثمن الواحدة جنيهان ، وكان إرسال هذه الطرود من لندن يسيرًا ، فتصورت أن استلامها سيكون يسيرًا كذلك ، ولكن القدر كان يدّخر لى مذاقًا آخر للعودة ، إذ بدأت رحلة المطار فى التاسعة ولم تكتمل إلا فى الثالثة .

بدأت الإجراءات بالأوراق، التى اقتضت الانتقال بين المكاتب لجمع توقيعات الموظفين على استمارة خاصة أُرْفِقَتْ بها 'بوليصة' الشحن ، وظهر فجأة شخص عذب الحديث يقول إنه متطوع لإنهاء المهمة، و''أنا تحت أمرك'' و''كل عام وأنتم بخير''. وعبثًا حاولت إقناعه بأننى لا أريد مساعدة ، فقد كان يلازمنى كظلى ، ويهمس لى عند كل مكتب إن فلانًا يعرف وسوف يساعدنى مقابل ''إكراميّة'' زهيدة (قروش معدودة) وكنت أدفع صاغرًا حتى بلغ عدد التوقيعات ٢١ توقيعًا، وآن أوان استلام الحقائب. فخرجت مع صاحبنا إلى ساحة شاسعة تكدست فيها أكوام الحقائب تحت شمس الظهيرة الحارقة إلى جانب الصناديق واللفافات التى كانت تعلو فى أكوام غير منتظمة، ولاحظت وأنا أسير وسط هذه الأكوام أن بعض الحقائب غير محكم الإغلاق، وبعضها مفتوح كأنما بُقرت بطنه وتدلت أمعاؤه، فسألت صاحبنا فهمس لى مع غمزة بعينه ''هذه متروكات'' ولم أفهم ، فقال إن أصحابها لم يسألوا

عنها ومضى عليها زمن طويل فامتدت إليها يد العبث . وخشيت أن يكون ذلك مصير حقائبى فاجتهدت فى البحث حتى وصلت إلى البقعة التى حددها الموظف فى آخر مكتب مَرَرْنا به ، فوجدتها وتنفست الصعداء ، ثم بحثتُ عن المرايا فوجدتها وقد استقرت تحت صندوق خشبى ألقاه أحدهم فوقها بركنه المدبب فكسر الهيكل الخشبى الذى وضعت فيه ، وكسر أربع مرايا ، ونجت اثنتان منها فحملت الهيكل بما فيه ، ووضعت كل شىء على 'الترولل' وتصورت أن الأمر قد قضى .

وسرنا نحو خمسمائة متر عائدين إلى المنطقة الجمركية ، فَطَلَبْتُ من صاحبنا أن يطلب لى سيارة أجرة ، فضحك ضحكة مكتومة وقال "إن شاء الله .. بعد الجمرك" . كانت الأوراق فى يدى قد أصبحت ملفًا كاملاً فتقدمت من رجل الجمرك ، وكان فارع الطول ذا شعر قصير أجعد ، فى نحو الأربعين ، قوى الذراعين ، إذ حمل الحقيبة الأولى على ثقلها بيُسْرٍ ووضعها أمامه ، ويبدو أنه أعطى إشارة لم ألحظها لمن معه فاختفى الجميع وأصبحت وحدى فى مواجهته . كنت هادئ الأعصاب مستسلمًا - كما قلت - وعلى أتم استعداد لتقبل ما يحدث . وماذا عساه أن يحدث ؟ فتح "الكشاف" الحقيبة الأولى فوجد خليطًا من الملابس والأحذية والكتب و"الكراكيب" - أى تلك الأشياء الصغيرة التى نحتاجها فى المنزل ولا نعرف أهميتها إلا حين تغيب . وكانت نهاد جاد زوجة سمير سرحان قد نصحتنى بألاّ أترك "قشّة" واحدة فى البيت ، فسوف يوفر ذلك علىّ مُهمة الخروج للبحث والشراء ، ونظر الكشاف إلى باطن الحقيبة فرأى مقياسًا معدنيًا من الذى يستخدمه النّجّارون ، وقبل أن يبدأ التفتيش الرسمى وضعه إلى جانبه خارج الحقيبة وهو يقول لى بلهجة جادة "هل أنت متمسك بهذا المقياس؟" وقلت بتلقائية "اتفضل" فلم يعقّب . ربما كنت أتوقع كلمة "شكرًا" ولكن الصمت امتد ، ويد الكشاف تصنّف محتويات الحقيبة ، حتى أَصْبَحَتْ مثل دكان الخردوات . ورفع الكشاف بصره إلىّ وقال : "أنت معفى من الرسوم على الكتب والملابس الشخصية المستعملة" ثم ابتسم ، وأشار بيده إلى "الكراكيب" قائلا "أمّا هذه الأشياء !" فقلت له افعل ما بدا لك ! قال "العفو يا أستاذ .. أنا أريد مساعدتك .. ولا أريدك أن تدفع رسومًا جمركية باهظة" . فلم أعلق فاعتبر أن ذلك موافقة ، فبدأ ينتقى ما طاب له من "الكراكيب" - مثل شفرات الحلاقة (قال وشفتاه تتلمظان "أمواس انجليزى") وأدوات كتابية ، وبكرات خيط وإبر ، وشرائط لصق ، حتى جاء إلى حزام جلدى عادى فقال : "هذا من الملابس ؟" قلت له "كما ترى !" فابتسم

وقال "فليكن .. من أجل خاطرك !" وانتهى من الحقيبة وقد خف وزنها كثيرًا ، ولم أحزن إلا لضياع زجاجة الحبر الضخمة ، وكنت ولا أزال مولعًا بالكتابة بأقلام الحبر السائل !

وتكرر ذلك مع الحقيبتين ، حتى إذا جاء دور المرايا صاح فى غضب "من الذى كسر المرايا ؟" وانشقت الأرض عن موظف صغير ، وكان شكله يوحى بأنه صغير الوظيفة ضئيل المكانة ، وكان فى صوته خنوع غريب ، فغمغم بكلام لم أتبيّنه ، وقال الكشاف : "هذه مهزلة! هذا بنّور انجليزى ! وهو غالى الثمن .. كيف يحدث هذا ؟" ولم أجد ما يقال فَسَكَتُّ. واختفى الكشاف لحظة ، إذ كان عليه أن يحمل غنائمه إلى مكان آمن ، ثم عاد وهو يقول ضاحك السنّ ، "لن تدفع رسومًا على المرايا ! المأمور وافق !" وسألت بلهجة حاولت أن تكون مهذبة : هل أمضى الآن ؟ فضحك وقال "طبعًا طبعًا .. أنت شرفتنا .. سوف يأخذك المخلّص إلى مكتب المأمور .." .

وبرز المخلّص من مكمنه (وكانت كلمة المخلص ترتبط فى ذهنى بدلالة دينية) وسار معى إلى مكتب مأمور الجمرك حيث وَقَّعْتُ ورقة 'إفراج' أُقِرُّ فيها بأننى تسلمت جميع حقائبى كاملة غير منقوصة وفى حالة جيدة وسليمة .. إلخ ولم أنبس ببنت شفة طوال تلك الإجراءات، ثم دفعت 'الترولى' خارج البوابة وأنا أحمد الله على أن ظفرت بما ظفرت به من متاعى . وكان التاكسى فى الانتظار ، فتعاون السائق مع "المخلّص" على وضع الحقائب وحطام المرايا (ما نجا منها) فوق السقف وفى حقيبة السيارة ، والتفتُّ إلى المخلص مودعًا وأنا فى حيرة كم أدفع له ؟ ووضعت يدى في جيبى وقبضت على ورقتين ماليتين - أعتقد أنهما كانتا جنيهًا ونصف جنيه ، وأخرجتها مقبوضة ووضعت ما فيها فى يده وهو يعارض بفمه ويقبض على المال بيده ، ثم جلست فى المقعد الخلفى وانطلق بى التاكسى إلى المنزل .

وجعلت أستعرض أثناء رحلة العودة ما ضاع من "كراكيب" ، وأحصى ما نجا منها ، وقلت فى نفسى إن هذه التفاهات لم تكلفنى كثيرًا وكان يمكن أن أتركها فى المنزل فى انجلترا، كما إن ذلك الرجل قد ينتفع بها فهى ضريبة لابد أن تطيب نفسى عنها ، ولكن الذى ضايقنى هو كثرة الأوراق والإمضاءات واليوم الطويل الذى ضاع فيها وذكرت أن متاع المنزل لم يصل بعد ، وهو الذى شُحن بحرًا ، ترى ماذا سأفعل فى جمرك الاسكندرية ؟ وقررت تأجيل التفكير فى الموضوع حتى يحين موعده .

وما إن وضعت الحقائب فى الغرفة وتناولت الطعام حتى رن جرس التليفون ، وكانت المفاجأة ! إن سمير سرحان فى القاهرة فى إجازة خاصة ، ولم نُضِعْ الوقت فى الحديث إذ قال إنه سوف يمر علىّ فى المساء وحدّدنا الساعة ، وعندما جاء كان يقود سيارة من طراز "ڤولڤو" لونها نبيتى فخرجت معه وانطلقنا فى ليل القاهرة نشبع نهمنا لحديث لا ينفد ، كأنما لم نكن معًا فى ردنج ولندن من أسابيع معدودة ! كان يشجعنى على اللحاق به في جدة ، واستصدر من عميد كلية الآداب فى جامعة الملك عبد العزيز دعوة موجهة لى للعمل هناك .

انطلقنا فى جولة طويلة بالسيارة ، أسمعنى فيها بعض أغانى فيروز التى لم أكن قد سمعتها من قبل، وكانت ذات قدرة غريبة على النفاذ فى النفس، وأدهشنى أننى لم أفقد المقدرة على تذوق الموسيقى الشرقية بعد السنوات العشر التى كنت أسمع فيها الموسيقى الغربية ليل نهار، وهزتنى أغنية "رجعت ليالى زمان" وعرفت أن فيروز غنتها بمناسبة شفاء زوجها من مرض خطير أَلَمَّ به، وبعد الجولة توقف سمير أمام منزل الدكتور رشاد رشدى فى شارع الجيزة، وسرت وراءه مثل الغريب الذى يتبع مرشدًا ، أو مثل مبعوث من أهل الكهف، وكان يقال لى إننى كنت شارد النظرات، فكنت أنكر ذلك وأحاول جمع شتات نفسى والتركيز فيما حولى ، وقال لى سمير إن رشاد رشدى أصبح إلى الصديق أقرب منه إلى الرئيس أو الأستاذ، وغدا يرتبط مع تلاميذه السابقين بحبل من الُودِّ متين ، مما أشاع فى قلبى السرور.

واستقبلنا رشاد رشدى بالترحاب المتوقع ، وكذلك فعلت زوجته ثريا التى كنت تعرفت عليها فى لندن ، وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث ، وكان دائم الإشارة إلى مشاكل الأكاديمية (أكاديمية الفنون) وسمعت منه أخبار أساتذة الفن وحكاياتهم التى تختلف كل الاختلاف عن حكايات أساتذة الجامعة ممن تنحصر حياتهم بصفة عامة فى العمل الأكاديمى ، وأحسست أننى أطل على "عالم جديد جميل" كل ما فيه غريب ومدهش ! وقال لى رشاد رشدى إنه أعد لى 'جدول' حصص للتدريس فى الأكاديمية - فى المعهد العالى للفنون المسرحية والمعهد العالى للنقد الفنى - ورحبت طبعًا فأنا لم أستعمل اللغة العربية فى التدريس فى يوم من الأيام ، وكنت أحس أننى أحتاج إلى مثل هذا التدريب المنتظم حتى أعود إلى اللغة العربية فأعود إلى الوطن حقًا .

وامتدت الأحاديث وطالت ، إذ توالى وصول من أعرف ومن لا أعرف ، وبعض الأصدقاء القدامى مثل أحمد بهجت ، الكاتب المشهور (ابن أخت رشاد رشدى وزوج الكاتبة سناء فتح

الله) الذى جاء معه بصديق غريب اسمه عصام ، قُدِّر لى أن ألتقى به كثيرًا بعد ذلك ، كان قصيرًا يميل إلى النحول والصلع ، وكان يتكلم بصورة متقطّعة فيدخل السرور على قلب أحمد بهجت ، وعلمت أنه يعيش ويعمل فى ألمانيا بعد أن اضطر إلى الهجرة بسبب ميوله الإسلامية المتطرفة ، وكانت تعليقاته التى تثير ضحك أحمد بهجت تتضمن السخرية من كل ما ننادى به ، حتى ولو لم يكن خلافيًا مثل تنظيم الأسرة ، وتتضمن عداءً دفينًا لعبد الناصر ، ولكن أهم سماتها هو عدم الترابط والإشارات المختلطة إلى وقائع قديمة وأحداث وقعت فى ألمانيا ، فتهامس البعض قائلين إنه عدمى (nihilist) أو فوضوى (anarchist) ولكننى لم أفهم منه شيئًا . ثم وصلت الدكتورة سميحة بهجت ومعها زوجها الطبيب وبعض أفراد الأسرة الآخرين مثل عفاف ، وهى ابنة أخت أخرى لرشاد رشدى ومعها زوجها توفيق عبده إسماعيل الذى كان على صلة وثيقة بالدكتور عبد القادر حاتم (وتولى منصبًا وزاريًا فيما بعد) وكان الزوار يناقشون من شئون الحياة ما لم يجل بخاطرى ، ولا أعرف عنه شيئًا البتة ، فيزداد عمق إحساسى بالهوة الزمنية التى تفصلنى عن مصر .

وعندما انتصف الليل أو كاد بدأت أغالب النعاس ، إذ كنت أستيقظ مبكرًا ولم تكن آثار رحلة المطار قد انمحت ، ولم أكن أنام فى الظهيرة ، حسبما تعودت في انجلترا ، فوجدت صعوبة فى متابعة السهرة ، ولاحظ سمير ذلك فطلب لى قهوة ، ولكن فوات موعد نومي جعلنى أحس بصحوة جديدة فيها لمسة خَدَر لطيفة ، جعلت أحاديث القوم تصل إلى مسامعى فى غلالة كأنها من نسج الأحلام ، وكان معظم الموجودين لا يكادون يشعرون بوجودى ، فنهضت من مجلسى وتطلعت إلى صفحة النيل فكأنما كنت أرى دنيا جديدة - وسرعان ما اقترح سمير أن نمضى معًا ونحن نتحدث مع الدكتور رشدى عن لقاء قريب .

وفى الصباح ذهبت إلى الجامعة فقابلت الدكتورة فاطمة موسى رئيسة القسم آنذاك ، فقالت لى "سوف نعلن لك عن درجة مدرس (تخصص شعر) فترقب الإعلان" وحددت لى ساعات التدريس فى العام الجديد ، وجلست إليها نتجاذب أطراف الحديث ، فصداقتنا عميقة قائمة على الحب والتقدير معًا فسألتُها ما سَألَتْ ، وسمعت منها بعض الأخبار عمَّن سافر وعمَّن عاد ، وسمعت عن الاتجاه الجديد فى الجامعة إلى ما يسمى "بالقيادة الجماعية" التى تعنى إصدار القرارات عن طريق المجالس (مجلس القسم ومجلس الكلية ومجلس الجامعة) وعلمت أن ندوة أكتوبر عقدت فى الجامعة فى الصيف ، وكانت مؤتمرًا دوليًا لمناقشة حرب أكتوبر ، وكان انقضى على وقوعها عامان ، مما ذكرنى بمؤتمر عدم

الانحياز الذى عقد فى الجامعة عام ١٩٦٤ وشاركت فيه مترجمًا. ودخلت غرفة المدرسين فوجدت الدكتور فايز اسكندر الذى رحب بى أيما ترحيب، ومعه ضابط برتبة كبيرة لا أذكرها (مقدّم أو عقيد) وكان يقص على الدكتور فايز قصة ضياع مكافآت المترجمين منه بسبب إغماء مفاجئ، وقدمنى الدكتور فايز إليه، دون أن يبدو على وجهه ما ينم عن تصديق أو تكذيب لقصة الضابط، وكان صامتًا حتى انتهى صاحب القصة من سردها وخرج، وقد ضاع اسمه من ذاكرتى مع ما ضاع من ذكريات !

قال الضابط إنه صرف الشيك وأتى بأجور المترجمين والمحررين والمشاركين فى أعمال المؤتمر نقدًا فى حقيبة "سمسونايت" ودخل الجامعة، وفجأة أصابه إغماء، وعندما أفاق وجد الناس حوله، لكنه عندما فتح الحقيبة لم يجد المال. لا أذكر الرقم الذى ذُكر آنذاك لكنه كان يعد بالآلاف، وجعلنا نتعجب من عساه يكون السارق ؟ ولا بأس من استكمال قصتى مع هذا الضابط التى استمرت عدة شهور فى عام ١٩٧٥ - إذ أوصاه أحدهم بأن يلجأ إلىّ لترجمة كتيب سيصدر عن أعمال الندوة المذكورة، وكان الكتيب صغيرًا لا يزيد عدد صفحاته عن ٣٥، وكانت اللغة سهلة غير معقدة، ولم أصادف فيه كلمة واحدة لم تسبق لى ترجمتها فى انجلترا، فانكببت عليه وانتهيت منه فى أيام معدودة، واتصلت به تليفونيا وقلت له إن الترجمة جاهزة، ففرح وقال ضاحكًا إن المكافأة جاهزة أيضًا، وسألنى هل تريد شيكًا أم نقدًا، وقلت له كما تشاء، المهم أن ننتهى من هذا الموضوع لأن الدراسة بدأت وأنا مشغول. وفعلاً حضر إلى الجامعة، فرحبت به وطلبت الشاى، وأعطيته الترجمة مكتوبة على الآلة الكاتبة، ونظرت إليه مستفسرًا عن المكافأة، ولكنه كان يتحاشى نظراتى إما بالتطلع إلى النص المكتوب صامتًا، أو بالسؤال عن معنى كلمة من الكلمات، ثم تكلم أخيرًا فى الموضوع فسأل: هل سنحسب المكافأة بالكلمة أم بالصفحة ؟ وعجبت لأنه سبق أن قال إنه سوف يدفع مكافأة شاملة هى خمسون جنيهًا، وعندما ذكّرتُه بذلك قال: للأسف ! المحاسب اعترض ! لابد من الحساب ! كم أجر ترجمة الكلمة ؟ فقلت له مليمان من الإنجليزية وثلاثة مليمات من العربية، ومليم للمراجع فى الأولى ومليمان للمراجع فى الأخيرة، فقال: إذن نعيد الحساب على هذا الأساس ! وبدأ يعد الكلمات العربية بتركيز شديد ثم قال الصفحة فيها ٥٠٠ كلمة، ولم أعترض، ولو أن بعض الصفحات كانت مكدسة، وهكذا يكون المجموع ١٧٥٠٠ كلمة فى ثلاثة مليمات - ولم أعترض أيضًا، وإذا به يقول: لا .. المكافأة الشاملة أوفر لنا .. سوف

اقنع المحاسب واتصل بك .. وخرج . وعلى الرغم من محاولاتى الدائبة التى استمرت فى اكتوبر ونوفمبر وديسمبر للاتصال به والحصول على النقود ، لم أتقاض مليمًا واحدًا حتى يومنا هذا (من عام ٢٠٠٠) .

عندما عدت إلى المنزل وجدت خبرًا رائعًا وهو أن نهاد زوجتى سوف تصل فى مساء اليوم نفسه - فى إجازة خاصة - وقال لى عبد العزيز حمودة الذى كان قد عاد لتوه وأنبأنى ذلك النبأ تليفونيًا ، هل تحب أن نذهب إلى السويس لاستقبالها ؟ فهى ستصل بالباخرة لا بالطائرة ! ورحبت بالفكرة لأنها تمثل رحلة إلى مدينة طالما تردد اسمها فى الآونة الأخيرة فى أسماع العالم بعد الكفاح البطولى الذى خاضه شعبها ، والانتصار أخيرًا على الإسرائيليين ، وكنت أشتاق لرؤية الجبل الذى يطل على المرفأ والذى كانت صورته ماثلة أبدًا فى مخيلتى منذ أيام رحلات الكلية فى الخمسينيات ، وعندما ذكرت ذلك لعبد العزيز حمودة ونحن ننطلق فى سيارته الأمريكية (لا أذكر نوعها) قال لى : لم تعد المدينة إلى سابق عهدها بعد .. وأمامها شوط طويل ! وفى الطريق تجاذبنا أطراف الحديث عن العمل وعن الأسرة فلم نشعر بالرحلة ، ولكننا عندما وَصَلْنا وسَألْنا قيل لنا إن الباخرة سوف تصل غدًا - وعلى الرغم من خيبة الأمل فقد كان المشوار ممتعًا ، إذ تجوّلْنا بالسيارة فى الميناء وشاهدت الجبل ، وكانت الشمس قد غربت ، فاكتسى المشهد جلالاً طالما اشتقت إلى رؤيته ، وتوقفنا عند بعض المعالم الرئيسية قبل أن نعود إلى القاهرة .

أنا دهشٌ لأن هذه التفاصيل تشغل مكانًا واضحًا وثابتًا فى ذاكرتى ، ودهشٌ لأننى أُثْبِتُها على الورق وذلك - فيما يبدو - دون مبرر ، ولكنها تنتمى إلى ساعاتى الأولى فى مصر والتى لا تزيد على مائة ، والتى كانت مشحونة بلقاءات وأحاديث ومشاعر يمكن أن تملأ كتابًا كاملاً، ولذلك فليس من الغريب أن يكتب "جيمس جويس" رواية من ألف صفحة تقريبًا (هى أوليس) يرصد فيها وقائع ٢٤ ساعة فى حياة البطل "ليوبولد بلوم" ، والربط بين الأحداث ليس مما يستطيعه الذهن الذى "يتعامل" مع معانى الصور التى تتغير عبر الزمن ، وهذا هو الذى جعل أستاذًا كبيرًا مثل "ديفيد ديتشيز" David Daiches يكتب جانبًا من سيرته الذاتية بعنوان **WAS** - أى كان - ويردفه بعنوان فرعى هو" تسرية من الزمن الماضى" **Pastime from Time Past** - يتابع فيه أفكاره من خلال ألفاظ بعينها ، ألفاظ تستدعى ألفاظًا فى زمن مضغوط مثل الزمن الرومانسى ، فقديمًا قيل إن الزمن

الرومانسى هو الكثافة ، أى إنه يقاس بالعمق لا بالامتداد ، ولطالما أحسست أن الزمن لدينا فى الشرق رومانسى فى جوهره ، فنحن أسرى لحظات محددة تتجلى فيها أشياء تصبح هى الزمن لدينا ، وهذه اللحظات هى الواحات التى أعود إليها للابتراد من هجير الحياة وقيظ الأحداث ! إنها ماثلة أبدًا فى النفس، مشرقة أبدًا فى الوجدان ، نابضة أبدًا فى الوعى ، وهى التى نعرف منها أننا عشنا !



مر علىّ سمير سرحان فى الصباح واصطحبنى بالسيارة إلى دار أخبار اليوم حيث أخذنى لمقابلة أنيس منصور ، وكان سمير ولا يزال يحبه حبًا جمًا ، فرحّب بنا وكان أيامها رئيسًا لتحرير آخر ساعة ، وكان يتكلم فى التليفون طول الوقت ، وفجأة وضع السماعة وقال: "جلال عارف .. موش عارف حاجة !" وضحك ضحكة مقتضبة ، واتفق معه سمير على نشر شىء ما فى المجلة ، وخرجنا فمررنا بعدة مكاتب ، وكان الحر شديدًا ، وعندما عدنا إلى السيارة وجدناها مثل نار الله الموقدة ! وكان سمير أثناء تنقلاته يقص علىّ طرفًا من الحياة فى جدة ، فهى غربة من نوع جديد ، لكنه لم يكن يعترف بأى اغتراب ، إذ سرعان ما أقام علاقات وثيقة مع "الكبار" وحقق بذكائه النادر انتشارًا أدبيًا فى كل مكان ، وكان إغراء الذهاب إلى جدة كبيرًا ، فسأكون مع زوجتى (وابنتى طبعًا) وسنكون جميعًا مع أصدقاء الصبا ، وسيكون لدينا من النقود ما يكفى للحياة الرخيّة بل وادخار شىء ما للمستقبل ! وتحدث سمير عن مباهج جدة التى كانت لا تزال فى مرحلة التحول العمرانى الأولى - أى قبل أن تصبح بالضخامة التى شهدتها فيما بعد عام ١٩٨٢ - وكانت أحاديثه نموذجًا حيًا لما يفعله ذهن الفنان بالمادة "الحياتية" (الحيوية) إذ يعيد تشكيلها باستمرار ، وكان ذلك ولا يزال ما يميز ذكريات سمير عن ذكرياتى !

وعندما وصلت إلى المنزل فى نحو الثالثة وجدت أجمل مفاجأة ، إذ كانت نهاد قد عادت من السعودية ولديها هى الأخرى عشرات القصص عن الحياة فى الغربة الجديدة ، وناقشنا موضوع الشقة التى كانت استأجَرَتْها لنا بمساعدة والدها فى مدينة المهندسين ودفعت فيها

مقدم إيجار كان يعتبر باهظًا آنذاك (٦٠٠ جنيه) وقالت لى إنها تتطلع إلى الاستقلال ، ومن ثم قررنا أن نبدأ فى إعداد الشقة للإقامة ، ولم أكن على دراية بمسائل طلاء الجدران فى مصر ، فذهبت إلى العمارة التى كان بناؤها قد اكتمل ، ووجدت فيها دكانًا استأجره أحدهم وأحاله إلى ورشة لصناعة المرايا وأنواع الزجاج ، فرحب بى وعندما أخبرته بموضوع الطلاء عرفنى بشخص قال لى إنه مقاول ويمكنه أن ينتهى من طلاء الجدران و"قشط" الأرضيات الخشبية - أى جعلها مستوية ناعمة - بل وطلائها أيضًا "بالبوليثيرين" ، وكانوا يسمونه "البلاستيك" فى مصر آنذاك ، وكنت قد أحضرت معى أربعة جالونات من انجلترا (شحنتها بحرًا ولم تصل بعد) وذلك فى غضون شهر على الأكثر ، مقابل مبلغ كلى هو خمسمائة جنيه، دفعت له منها مائة ، فأتى بالعمال وبدأ العمل .

وقضينا الأيام التالية أنا ونهاد زوجتى ما بين منزل والدى ومنزل والدها ، وناقشنا موضوع ذهابى إلى جدة ، إذ إننى بعد أن قابلت مندوب الجامعة السعودية فى القاهرة ، وكان رجلاً فاضلاً مهذبا اسمه الدكتور محمد الرشيد ، بل وبعد أن وقعت العقد (٣٦٠٠ ريال شهريا) اتضح أن ذهابى إلى جدة يتطلب استخراج ما يسمى بالورقة الصفراء - أى موافقة جهة العمل على السفر (التى حلت محل تأشيرة الخروج) وكان ذلك محالاً ، فاعتذرت لسمير سرحان ، وخرجنا مساء ذلك اليوم مع نهاد جاد زوجته ، التى كانت حاملاً فى الشهر التاسع، ومع نهاد زوجتى ، إلى أحد فنادق القاهرة الكبرى ، وصعدنا إلى الطابق العلوى حيث توجد شرفة واسعة يسمونها "روف" ، فجلسنا نطل على القاهرة ، وتهب علينا نسائم الليل المنعشة، وما لبث أن لحق بنا محمد جلال (الروائى) والفنانة عايدة عبد العزيز (زوجة الفنان أحمد عبد الحليم) ولم أكن قابلت أيهما من سنين ، وكانت الأحاديث شائقة ممتعة ، ولكننى كنت صامتًا معظم الوقت ، وقد تملكنى الإحساس بأننى عدت إلى رحم الأم ، وتمنيت لو قضيت الليل كله فى ذلك المكان .

وفى اليوم التالى - يوم ٢٤ سبتمبر - ذهبنا جميعًا فى المساء إلى مكان ما على شاطئ النيل بالقرب من المعادى ، وجلسنا نتأمل صفحة الماء والسفن الشراعية المنسابة دون صوت كأنها طيور بيضاء ، فأحسست أننى عدت إلى رشيد لا إلى القاهرة ، وكنت أستغرق فى أحلام اليقظة وفى ذهنى تتردد أبيات من الشعر العربى التى كانت مشحونة بالذكريات ، فلم ألتفت إلى أحاديث الصحبة ، وكان سمير يقول لى آنذاك إنه يحاول أن يساعدنى عمليًا على العودة

إلى مصر ، وإنه يريد أن يكون وسيلة امتصاص صدمة العودة - مستعملاً التعبير الانجليزى shock absorber أى جهاز امتصاص الصدمات الذى شاع إطلاقه على جهاز خاص فى السيارة يقال له "المساعدين" فى مصر . وكان محمد جلال يتحدث - فيما أذكر - عن الأدب والصحافة ، فهو مدير تحرير مجلة الإذاعة - ونهاد جاد تشاركه الحديث باعتبارها صحفية فى مجلة صباح الخير ، ولكن سمير كان يتعمد أن يتكلم عن مشروعات المستقبل ، كأنما لينتشلنى من عالم الغربة ، ويقيم الصلات اللازمة مع الواقع الذى عدت إليه . وفى اليوم التالى سمعنا أن نهاد وضعت فى المستشفى ، وأن اسم المولود خالد ، فذهبنا إليها أنا ونهاد وهنأناها بالسلامة ، وكان سمير مشغولاً بإجراءات السفر ، وأهمها إضافة اسم المولود إلى جواز السفر ، وأذكر أنه كان يشكو من رفض الموظف السماح بذلك دون تصريح من الأمن ، وكيف شرح سمير له أن الرضيع لا يمثل خطرًا على الأمن القومى ، وكيف اضطر سمير إلى الاستعانة بأحد معارفه من كبار الضباط لإنجاز المهمة !

وانقضت أيام الإجازة وعاد الجميع إلى السعودية ، وبدأنا العمل فى الجامعة ، أو قل بدأنا الاستعداد للعمل ، وذات يوم جاءنى الدكتور محمود شكرى مصطفى الذى كان عيّن أستاذًا فى كلية اللغات والترجمة التى أنشئت فى جامعة الأزهر ، وقال لى إنه يتمنى أن أقوم بتدريس مادة الشعر لطلبة السنة الثالثة فى قسم اللغة الانجليزية ، فرحبت واتفقنا على أن أذهب إلى جامعة الأزهر يومًا واحدًا فى الأسبوع - هو يوم الأحد - لكننى سرعان ما كُلّفت بتدريس مادة الشعر أيضًا للسنة الرابعة ، ثم مادة الترجمة لطلاب شعبة يسمونها شعبة الترجمة الفورية ، أى إن عدد الساعات أصبح ست ساعات أسبوعيًا ، تبدأ فى الواحدة ظهرًا، وتستمر حتى السابعة ، لا تتخللها إلا فسحة لصلاة العصر ، ثم فسحة صلاة المغرب التى كانت بمثابة النهاية الفعلية لليوم الدراسى ، لأن الطلاب كانوا يتفرقون بعد الصلاة، ويرفضون بإصرار أن يشغلهم شىء فى الفترة ما بين المغرب والعشاء . ولكن تجربة التدريس فى الأزهر كانت ممتعة ، إذ كنت أستقل الأتوبيس ظهرًا حتى حى الحسين ، ثم أتجول ساعة أو بعض ساعة فى المنطقة العتيقة ، وأشترى السميط أو الخبز والجبن الرومى أو الأبيض، وكنت أفضل السميط لأنه كان طازجًا فكنت أقضمه قضمًا وأختتم الوجبة بزجاجة مياه غازية يعتبرونها "كوكا كولا" وإن لم تكن كذلك لأن المقاطعة العربية للشركة الأجنبية كانت لا تزال سارية بسبب تعاونها مع إسرائيل ، وكنت كثيرًا ما أضع ما يتبقى من الطعام فى حقيبتى

الصغيرة ، ولم أكن أعرف أن أحدًا يراقبنى ، فلقد اعتدت التجوال واعتدت الحرية ، حتى جاء اليوم الذى قال لى أحدهم فيه إن تناول الطعام فى الطريق العام "حرام" ، وإن وضع الطعام فى حقيبة الدرس "غير محمود" . كان الناصح من أعضاء هيئة التدريس فى الأزهر، وكان مهذبًا ولبقًا، فلم أغضب، ولكننى سألته عن مصدر معلوماته فابتسم ، وقال إن ذلك معروف ، فلم أعقب ، ولم أول الأمر أهمية ، وإن كنت قد عرفت فيما بعد أن بين الطلاب من يبلغ "الإدارة" بكل ما يحدث وكل ما يقال، فدهشت وتعجبت.

كانت مشكلة التدريس فى الأزهر هى ضعف حصيلة الطلاب من اللغة الانجليزية ، وكان أضعف الجميع طلاب شعبة الترجمة الفورية ، ولم أكن أدرك سر هذه التسمية ، فالترجمة الفورية مهارة عليا من مهارات المترجم الموهوب الذى يتمتع بخبرة طويلة ولماحية وبديهة حاضرة بل وقّادة ، أى إنها فن لا يصل إليه كل مترجم مهما تكن قدرته اللغوية ، فكيف نعلمها للمبتدئين ممن يجاهدون حتى يتقنوا اللغة الأجنبية قراءة وكتابة ؟ وبعد 'التفاهم' مع أفراد الفرقة التى كنت أتولى التدريس لها ، اتفقنا على تحديد قطع معينة وترجمتها وحفظها بحيث لا يخرج الامتحان عنها ! كنت حزينًا لإقدامى على هذه الخطوة ، ورأيت من واجبى أن أستشير أستاذًا من أساتذة القسم ، فقصدت الدكتور وجدى الفيشاوى - خريج جامعة القاهرة - وقصصت عليه القصة فلم يبد أى دهشة ، وقال بنبرات هادئة "كلهم يفعلون ذلك! لا تهتم !" ولكننى ألححت فى طلب العون ، فنصحنى بأن أشكو إلى الدكتور محمود شكرى مصطفى ، ولكن رده كان مماثلاً لرد الدكتور وجدى . ما زلت أذكر تلك اللحظات بوضوح ، إذ كانت الشمس قد مالت للغروب ، وكنا نجلس فى غرفة الأساتذة ، وكنت أتطلع من الشباك إلى السحابات الواهنة "التى خرقتها مئذنة" كما يقول أحمد عبد المعطى حجازى، وشاعت فيها ألوان الأصيل الشاحبة ، وكنا قريبين من "الميضة" (أى مكان الوضوء) فكنا نسمع قرقعة القباقيب التى يلبسها الطلاب قبل الوضوء ، وتصل إلينا أصواتهم العالية فأتصور أن عراكًا قد نشب ، وكنت قد انتهيت من شرب الشاى الذى أقنعت الفراش ألا يضيف إليه السكر، فنهضت أعتزم الخروج فإذا بالدكتور عبد العظيم سويلم - تلميذى القديم فى جامعة القاهرة - يظهر لدى الباب ويفاجئنى بعبارات الترحيب ، وكنت قد رأيته آخر مرة فى انجلترا فى مكتب البعثات ، ففرحت وقررت استشارته هو الآخر ، ولكن الحوار الذى دار بيننا آنذاك كان فريدًا ، فسجلته عندما عدت فى مفكرتى . وكنت بعد الترحيب والسلامات قد عرضت

عليه مشكلة الطلاب فانتحى بى جانبًا - بالقرب من النافذة - وقال لى بصوت هامس إنه معار إلى السعودية و"كلام فى سرك .. لا أريد الرجوع !" فابتسمت وقلت له لا بأس إذن من التدريس بهذه الطريقة ، فقال بنبرات عميقة ، وَضَعَ فيها كل ما يستطيعه من تأكيد "مرتب شهر يساوى مرتب سنة" وابتسمت مؤكدًا استيعابى لما قال وحاولت محاولة أخيرة "يعنى أستمر ؟" وكان رده حاسمًا "يعنى أنت أيضًا لابد أن تسافر !" ورفعت يدى بالتحية وافترقنا.

وكان يوم الثلاثاء من كل أسبوع هو يوم أكاديمية الفنون . وكنت أقضيه كاملاً من الصباح إلى المساء مع طلاب المعهد العالى للفنون المسرحية صباحًا ، وطلاب المعهد العالى للنقد الفنى مساءً ، وكان التدريس باللغة العربية ، فكان يستلزم قدرًا كبيرًا من الترجمة ، وهنا أيضًا قابلت بعض زملائى السابقين ، ولقد تحول بعضهم إلى أصدقاء ، بل إلى بعض أقرب الأصدقاء إلى قلبى حتى اليوم ، وكان التناقض بين الأزهر والأكاديمية لا يقل عن التناقض بين العالم الذى خلفته فى انجلترا والعالم الذى عدت إليه فى مصر ، فطلاب الأكاديمية يعرفون منذ البداية أو يراهنون على أن يصبحوا نجومًا لامعة فى سماء الفن فى مصر ، فهم يدخلون باب الشهرة والمجد ، والمال فيما بعد ، ولذلك فهم فخورون بمواهبهم ، ويمارسون ما يشبه التمثيل فى حياتهم العادية ، وأحيانًا ما يتقمص بعضهم شخصيات مسرحية شهيرة ، أو يحاكون بعض تلك الشخصيات فى حياتهم ، خصوصًا فى قسم التمثيل ، أما فى أقسام المعهد الأخرى - مثل قسم النقد (الدراما) والديكور وما إلى ذلك ، فهم أكثر تواضعًا وأكثر حَدَبًا على الدرس .

ولم تمض أيام حتى توثّقت علاقتى بزميل قديم سأطلق عليه اسم (حسن) ، أصبح نافذتى التى أطلق منها على عالم الفن المسرحى فى مصر ، فهو مخرج نابه ، هادئ الطبع ، يميل إلى الهشاشة والبشاشة ، ويقول إن ابتعاده عن مصر فترة ما قد أفاده فى ضمان النجاة مما كان يطلق عليه "صداع ما بين الحربين" ، وكان يقصد بذلك التمزق الذى حدث فى الحياة المسرحية ما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، فإذا كنت أنا أتصور أنها فترة حرب متصلة ، فهو يقول إنها كانت فترة انهيار فى 'المعنى' أى فى الدلالة التى لابد منها حتى يصبح الفن فنًا ، ولم يكن 'حسن' قد ابتعد كثيرًا عن مصر ، وأعتقد أنه لم يمكث فى الخارج إلا سنوات معدودة قضى بعضها فى أمريكا والبعض الآخر فى فرنسا ، وكان يزور مصر أثناءها حتى يبقى على الصلات القائمة بينه وبين العاملين فى المسرح ، وكان يحاول مثلى أن يتجنب

استخدام الكلمات الأجنبية فى حديثه ، وهى كلمات من اللغتين الانجليزية والفرنسية أساسًا ، وإن كان يضيف إليها شذرات من الإيطالية . كما تعرفت فى المعهد العالى للنقد الفنى على بعض الطلاب النابهين الذين حصلوا بعد ذلك على الدكتوراة وأذكر من بينهم زين نصار وأحمد العشرى ومحمود على فهمى وفاطمة يوسف ، والسورى عاصم كلاليب الذى أرسل لى بعد فترة خطابًا من دمشق يقول لى إن الناس غاضبة من نقدى للشاعر عمر أبى ريشة ، فهو عندهم فوق النقد ، وكان الشاعر قد رحل آنذاك إلى المملكة العربية السعودية واستقر به المقام فيها حتى توفى منذ أعوام قليلة .

وذات يوم من أيام أكتوبر جاءنى من يقول إن رئيس الجامعة الدكتور صوفى أبو طالب يريدنى أن أذهب إلى الفيوم للتدريس فى كلية التربية التى ستفتح أبوابها اعتبارًا من أول نوفمبر. لم أكن أستطيع الرفض ، فأنا لم أُعَيَّن محاضرًا بعد ، لأن الإعلان الموعود لم يظهر فى الصحف ، ومصيرى فى العمل معلق برضاء الرؤساء . وكانت الجامعة قد أعدت للأساتذة أتوبيسًا صغيرًا ينقلهم إلى الفيوم كل يوم ويعود بهم فى المساء ، فاخترت يوم الخميس ، لأنه اليوم الذى لا أعمل فيه فى أى مكان ، وبدأت أذهب إلى الفيوم مع مجموعة من الأساتذة فى مختلف التخصصات مثل الكيمياء والفيزياء واللغة العربية ، وما زالت ذكريات عملى الأولى فى الفيوم حية نابضة فى ذهنى .

كان ذلك فى يوم من أيام نوفمبر ، وكان الجو باردًا على غير عادته ، فارتديت قلنسوتى ومعطفى مثلما كنت أفعل فى انجلترا وخرجت إلى الجامعة فى السابعة ، وتحركت الحافلة بعد نصف ساعة فوصلنا إلى الكلية فى الفيوم فى التاسعة ، فدخلت قاعة الدرس - وهى فصل مثل فصول المدارس العادية ، وما إن خلعت القلنسوة والمعطف وبدأت الحديث بالانجليزية ، حتى سمعت ضحكًا مكتومًا فالتفتُّ إلى مصدره فلم أعثر على وجه ضاحك ، فعدت إلى الحديث بالانجليزية فعاد الضحك ، فتظاهرت بأننى لم أسمع حتى علت الضحكات فالتفتُّ فجأة لأرى بيومى - وهو طالب يجلس فى الصف الأمامى - مستغرقًا فى نوبة من الضحك كنت أراها غريبة ولا مبرر لها ، فسألته (بعد أن صمتُّ قليلاً وتوقف هو عن الضحك) بالانجليزية عن سبب ضحكه - وما كدت أنتهى من السؤال حتى عاد إلى الضحك ، وكان هذه المرة هستيريًا ، فسألت بعض الطلبة إن كان يعانى من مرض فأنكر الجميع - فطلبت منه الخروج فخرج ، وبعد برهة عاد متجهمًا كأنما ليؤكد لى أنه لا يضحك ، وجلس

فى مكانه ، لكننى ما إن عدت للحديث بالانجليزية حتى انفجر ضاحكًا من جديد إلى الحد الذى جعل بعض زملائه يحملونه إلى الخارج حيث استمر يضحك وصوت ضحكاته يأتينى من خلال الباب المغلق ، فخرجت أستفسر عما حدث له لكنه كان قد اختفى .

وبعد الدرس جاءنى بيومى ليعتذر ومعه مدرس من أهل البلدة أوضح لى أن بيومى لم يسمع اللغة الانجليزية فى حياته ، وأنه لم يكن يتصور أن هناك من البشر من يستطيعون أن يتكلموا هذا الكلام غير المفهوم ، وكانت الكلمات الإنجليزية تسبب له صدمات هستيرية ، ومن ثم طلب الإذن بالتحويل إلى قسم آخر يكون التدريس فيه بالعربية ، ووافقت طبعًا ، وظلت مرفت إحدى طالباتى التى تخرجت بامتياز وعملت معيدة بالكلية تطلعنى على أخبار بيومى حتى تخرج وعمل مدرسًا ولم تعد تنتابه نوبات الضحك حين يسمع الانجليزية .

وذات يوم اتصل بى صاحب العمارة التى استأجرت الشقة فيها وقال إنه قد باعها للحاج يوسف عفيفى ويريد تصفية حسابه مع المستأجرين ، فذهبت أنا وأخى مصطفى إليه ومعنا العقد ، فقال إنه كان قد تسلم ٦٠٠ جنيه بمثابة مقدم إيجار ، ولكنه لن يتقاضى الإيجار الآن، ولذلك فنحن أحق بما تبقى منه ، فدفع لى ٤٥٠ جنيها وأمضيت ورقة ما وانصرفنا . كانت النقود هدية من السماء ، إذ سرعان ما وصلنى تلغراف من الاسكندرية يقول لى إن الأثاث الذى كنت قد شحنته قد وصل ، وعلىّ أن أذهب لاستلامه . وفعلاً سافرت أنا وأخى مصطفى حيث قابلنا 'المخلّص' وكان يدعى بركة ، وكان من أصدقاء العائلة لأنه كان يعمل لحساب خالى عبد الحليم بدر الدين قبل أن تستولى الحكومة على شركته ، وكان يعرف أقاربى وكثيرًا ما كان يقول إننى أشبه أحد أفراد أسرتى الكبيرة وهو فاروق الجارم ، وكنت قد تعلمت من خبرتى فى المطار ألا أتعجل الأمور ، فتركته يجمع التوقيعات ، حتى كاد كل شىء أن ينتهى حين وصلنا إلى الموظف المسئول عن الإعفاء الجمركى الذى قال لى ''إن من حقك الإعفاء فى حدود ٢٠٠ جنيه باعتبارك عضو بعثة عائد'' ، ولما نظرت إليه آملاً أن يفعل ذلك قال لى ''ولكن عليك أن تثبت أنك لم تتمتع بذلك الإعفاء قبل الآن !'' فقلت له ألا يكفى جواز السفر؟ فقال لا بل عليك إحضار ورقة من إدارة البعثات فى القاهرة . ففعلت ذلك ، وقام الكشاف بفحص جميع الأمتعة وتحديد الرسوم المستحقة على كل قطعة حتى أتى على الكتب التى كانت تمثل معظم المتاع - ٢٨ صندوقًا - فقال إننا نريد الآن موافقة الرقابة . فقلت له إذن أحضر الرقيب ، ولكن الرقيب لا يعرف الانجليزية ! ولم أعرف ماذا أقول سوى أن أوكد له أنها كتب

أدبية محضة من المتداولة فى مصر ، فبدا عليه الاقتناع ثم قال إنها مسئولية كبيرة وأجهزة الأمن يقظة ، وهو قد يوقع على الورقة بشرط موافقة مأمور الجمرك والمراقب العام !

وغامت الدنيا فى عينى ، إذ كنت قضيت أسبوعًا كاملاً فى التردد على الجمرك ما بين القاهرة والاسكندرية ، وكان معنى الرحلات اليومية الانقطاع عن التدريس ، إلى جانب التعب الجسدى والنفسى بطبيعة الحال ، وكرهت أن أعود هذه المرة خاوى الوفاض ، فأسلمت أمرى إلى الله ، وتطلعت إلى السماء وأنا أقول إن هذا قدرى وما يريده الله سبحانه وتعالى لابد أن ينفذ ، وفجأة هطل المطر غزيرًا فأسرعنا نحتمى منه ، ولاحظت أن بالات ورق الصحف كانت ملقاة على الرصيف دون غطاء ، وهى بكرات ضخمة تزن عشرات الأطنان، وبعد دقائق معدودة صفت السماء ، فعدنا إلى موقع المتاع ، وإذا بصوت جهورى ينادى علىّ ، ونظرت فإذا الصوت قادم من الطابق الأول (فوق الأرضى) لمبنى الجمرك . وتلفتُّ مستفسرًا فقيل لى إنه المراقب العام . واتجهت إليه أنا وأخى مصطفى فقام مرّحبًا وقال هل أنت محمد عنانى مؤلف مسرحية البر الغربى ؟ فأجبت بالإيجاب ، فتهلل وجهه ، وقال أنا كامل حسنى - الشاعر الشعبى فى الاسكندرية ومن عشاق مجلة المسرح ورشاد رشدى ! وانطلقنا نتحدث عن الأدب كأنما نسينا موضوع الرقابة ، ثم التفَتَ إلى المخلّص وسأله عن المشكلة ، ولم تمض دقائق حتى كانت جميع الأوراق قد وُقِّعَتْ ، ودفعت الجمرك المقرر ولم يكن مقدارًا كبيرًا لأن الكتب معفاة ، وحصلت على ورقة الإفراج وخرجنا نبحث عن سيارة شحن تنقل الصندوقين الخشبيين إلى القاهرة . ولم يصدق المخلّص ما حدث ، وكان الناس من حوله يتعجبون ، وقال أحدهم إنها معجزة ، وأعطينا العنوان للريس "جيّد" سائق الشاحنة وتواعدنا على اللقاء فى القاهرة ، وكان الاتفاق أن يتصل بى تليفونيا حالما يصل إلى مشارف القاهرة ، وأن أقابله عند كوبرى الزمالك القديم بعد عبوره منطقة إمبابة ، وافترقنا ، وقررت أنا وأخى أن نمرّ على خالتى الحاجة لطيفة بدر الدين - فى عمارات الأوقاف بالشاطبى - لنسلّم عليها قبل الرحيل. وقالت لى خالتى دون انفعال : هل مررت بأزمة قبل أن تمطر السماء ؟ لقد شعرت أنك فى ضيق فصلّيت ركعتين ودعوت الله لك ! وقلت فى نفسى هذا والله هو الدعاء المستجاب ! وفى القاهرة رن التليفون فى السابعة والنصف مساءً ، وجاء صوت الريّس جيد ، فانطلقنا فى تاكسى إلى حيث كان ينتظرنا ، وسارت الشاحنة خلفنا حتى وصلنا ، فاستقبَلَنَا البواب النوبى عوض ، وكان يشبه تمثالاً رائعًا من الأبنوس ، وحمل الرجال قطع المتاع إلى

الطابق الرابع ، وأخذ كل منهم جنيهين ، ثم انصرفوا ، وقال لى عوض إن المالك الجديد للعمارة قرر التخلص منه لمرضه ، وإنه سيأتى ببواب جديد . ولم أدر ما أقول . ووضع عوض الأخشاب التى صنع الصندوق منها فى الجراج . وانصرفنا . وفى الصباح أتيت بنجّار له دُكّان بجوار منزلنا بالعجوزة فوافق على شراء الأخشاب ، واستعمالها فى صناعة معدات مطبخ للشقة ، فحملها ومضى ، وكان العمال ما يزالون يعملون فى طلاء الشقة .

وفى ديسمبر ظهر الإعلان عن درجة مدرس (تخصص شعر) فى القسم ، وكنت المتقدم الوحيد ، وتمت إجراءات التعيين ، لولا أن الجامعة قد استحدثت دورة لتدريب الأساتذة على التدريس ، ولكن مدام وجيدة رئيسة شئون العاملين قررت أن الشرط لا ينطبق علىّ ، فتسلمت العمل ، وارتفع مرتبى إلى ستين جنيهًا فى الشهر ، فشعرت بالاطمئنان وبت قرير العين كما يقولون !



وفى ديسمبر اكتمل طلاء الشقة ، وانتقلت للعيش فيها ، وكان من عادتى أن أذهب لزيارة الدكتور رشاد رشدى فى منزله ، أو فى مجلة الجديد التى كان مقرها فى غرفة من شقة مجلة الإذاعة ، ، وكانت بها غرفة أخرى اتخذت مقرًا لمجلة الكاتب قابلت فيها صلاح عبد الصبور - الشاعر - لأول مرة بعد عودتى - كما قابلت ثروت أباظة الذى كان يعمل رئيسًا لتحرير مجلة الإذاعة ، واتفق معى على ترجمة كتاب ذئب الأحراش (عن الانجليزية) للكاتب الألمانى هيرمان هسه ، وقال لى إنه سيدفع لى مبلغًا محترمًا هو ١٥٠ جنيهًا ، ولكننى كنت كلما بدأت الترجمة - والواقع أننى قطعت فيها شوطًا لا بأس به - توقفت بسبب صعوبة الكتابة بالفصحى ، ولإحساسى بأن ما أكتبه لن يعتبر أدبًا رفيعًا . وكان العمل بالتدريس يشغل وقتى كله ، وأذكر أن الجامعة الأمريكية عرضت علىّ المشاركة فى التدريس وحددت الساعات ظهرًا يومى الاثنين والأربعاء ، وحاولت تغيير المواعيد فرفض المسئولون فاعتذرت ، وكان وقتى كله منصبًا على القراءة وإعداد النقاط التى سأتحدث فيها فى المحاضرات ، وكنت ألتقى فى كل يوم جمعة مع صديقى أحمد السودة - ولا أزال أفعل ذلك حتى الآن - ومع ماهر

البطوطى - حتى سافر إلى نيويورك ، وكان هذا اللقاء الأسبوعى فرصة للتأمل ، وكنا نتجه سيرًا على الأقدام إلى وسط البلد ، ونحتسى الشاى فى جروبى عدلى ، ونتجول فى المكتبات ، أى أماكن بيع الكتب) ، وكانت القاهرة كعهدى بها ، جميلة هادئة موحية .

وقابلت صديقى القديم نبيل راغب (الدكتور) فى منزل رشاد رشدى ذات يوم ، وعرفت أنه يعمل للانتهاء من رسالة الدكتوراه ، وكان يقدم بعض ما يكتبه منها إلى المشرف (رشدى) لقراءته ، وعرفت أنه (أى نبيل) يعمل فى السكرتارية الخاصة للرئيس السادات ، وأن رشدى يتمنى أن يقابل الرئيس لأمر ما ، وقابلت فى منزل رشدى شخصًا قصيرًا أسمر اللون من كفر الشيخ يدعى سيد الباز ، عيناه خضراوان ، وكان أحيانًا يأتى بوالده معه ، وكان يوحى للحاضرين بأنه أخو أسامة الباز مستشار نائب الرئيس (حسنى مبارك) للشئون السياسية (ومدير مكتبه) والغريب أن سيد هذا كان له أخ يدعى أسامة فعلاً ، ولكنه من أسرة مختلفة ، وقد حدث فى الثمانينيات أن قُبض عليه بتهمة النصب والاحتيال إذ باع بعض أراضى المحافظة للأهالى وهى مملوكة للدولة .

وفى يوم الأربعاء ٣١ ديسمبر ١٩٧٥ نشرت الصحف نبأ يقول : استقبل الرئيس السادات الدكتور رشاد رشدى مدير أكاديمية الفنون ، ومع الخبر صورة للقاء . أى إن اللقاء حدث يوم الثلاثاء ٣٠ ديسمبر ، وكان يوم الأربعاء هو اليوم الذى يأتى فيه رشاد رشدى إلى الكلية للتدريس ، فجلست معه فى غرفته ، وكان يبدو عليه القلق رغم الخبر المثير ، وعندما سَأَلَتْهُ الدكتورة فاطمة موسى - رئيسة القسم - عما تحدث فيه مع الرئيس رفض الإفصاح بشىء . وقال لى إن الليلة هى ليلة رأس السنة ، وثريا (زوجته) قد أعدت ديكًا روميًا ، "وأنت معزوم !" وفعلاً ذهبت فى المساء ، فمر علينا فى الشقة أقاربه الذين ذكرت بعضهم من قبل ، وقال له توفيق عبده إسماعيل ، زوج عفاف ابنة أخت رشاد رشدى ، إن الدكتور عبد القادر حاتم سعيد بالخبر ويقول إن رشدى سيصبح وزيرًا . وانصرف الجميع لحضور حفل رأس السنة فى أماكن أخرى ، ولم يمكث سوى أحمد بهجت ، وعندما جئ بالديك الرومى أبدى اعتراضه على طهوه قائلاً إنه ، على تمزق أوصاله ، لا يزال صُلب الأنسجة ! ومكثنا نتحدث فى كل شىء ما عدا موضوع مقابلة الرئيس ، حتى حل العام الجديد ، وبدا على الجميع الإرهاق فانصرفوا وانصرفت .

وجاءنى المخرج (حسن) ذات يوم فى الأكاديمية، وجلس معى على سلم معهد الفنون المسرحية وجعل يقص علىّ ما حدث للشاعر (والمخرج) نجيب سرور، فقال إنه أصيب بلوثة، وأخذ يتصعلك ويلعب دور الشحاذ الفقير فى الحياة ، وكنت قرأت له شعرًا أعجبنى فقلت له إنه شاعر موهوب فقال إن النقلة رهيبة بين الفن والحياة ، والفنان مفتون بنفسه أبدًا، يبهره ما يخرج من ذاته من تصاوير قد تكون لفظية أو بصرية ، وقد تكتمل فى الدراما وقد لا تكتمل، ثم سألنى عما أكتب فقصصت عليه ما أعانيه من إرهاق فى التدريس فى كليات متعددة، وما يتيحه لى ذلك من إلمام بخبايا مصر التى ابتعدت عنها طويلاً، فسألنى عن النساء فضحكت وقلت له إننى متزوج وزوجتى فى السعودية، وإننى الآن راهب، فانخرط يقهقه حتى لفت الأنظار إليه، ثم همس لى. لابد أن نخرج معًا يومًا ما حتى أطلعك على مصر التى لا تعرفها! ورحبت ولكننى قلت إننى لم أتسلم السيارة التى اشتريتها أنا وزوجتى من شركة النصر- وهى فيات مصرية ١٢٨- فقال سأصحبك معى فى سيارتى وأفضى إليك بأسرار الدنيا!

وعندما حلت عطلة منتصف العام أَرْسَلَتْ نهاد لى دعوة لزيارة جدة مع سارة ابنتنا فوجدت أن علىّ أن أستخرج جواز سفر جديد ، فأعددت الأوراق المطلوبة واستخرجت جواز السفر دون أى صعوبة وأنا بين مصدق ومكذّب ، ولكننى وجدت أن الفتاة التى تكتب الأسماء بالانجليزية (أى بالحروف اللاتينية) كتبت اسمى مبدوءًا بحرف A بدلاً من E ، ولم أكترث فلم أكن أتصور أن ذلك مهم ، أو أنه سيتسبب فى أية مشكلات فلم أكن أنتوى العودة إلى أوروبا ، ولم تكن بى أى حاجة إلى استعمال الاسم بصورته الصحيحة وفقًا للنطق ، أو هكذا كنت أتصور ! واصطحبت سارة طفلتنا وذهبنا إلى جدة حيث رحب بنا الجميع ، وقضينا أيامًا ممتعة ، وكانت نهاد قد دعت أختها عزة للزيارة ، وما لبثت عزة أن وجدت عملاً فى شركة 'أليتاليا' للطيران ، حيث تعرفت على شاب باكستانى دمث الأخلاق يدعى شبير شنوى ، وما لبثا أن تزوجا بعد أشهر معدودة (فى عام ١٩٧٦) ، فاستقر بها المقام فى جدة .

وأنا أذكر الآن هذه التفاصيل لأن تلك الرحلة كانت بداية رحلات لم تتوقف حتى الآن إلى بلدان الله الواسعة ، ولأنها كانت تمثل بداية نسق متصل ، فكأنما كان الانفتاح الذى يدعو إليه النظام السياسى قد أصبح نمطًا عامًا من السفر والترحال ، وهو ما أصبح سائدًا إلى يومنا هذا، وكان له من الآثار ما لم أكن أتوقع وأنا أحزم حقائبى حتى أعود إلى مصر قبل شهور معدودة !

وعندما عدنا من جدة (أنا وسارة) تسلمت السيارة ، وهى صفراء "فاقع لونها تسر الناظرين" ، وبدأت أستمتع بحرية الحركة ، فكنت أذهب إلى مبنى جريدة الأهرام ، وأصعد لمقابلة أحمد بهجت الذى أصبح مسئولاً عن الصفحة الأدبية فأعطيه مقالات قصيرة جدًا ، وكان ينشرها فيقرؤها الناس ويعرفون أننى عدت من الخارج ، ومنه سمعت لأول مرة عن جمال الغيطانى إذ قال فى غضون حديث مع أحد الزملاء "وهل يفهم أحد فى الأدب مثل جمال الغيطانى ؟" وكنت أخرج إلى مسارح صباى فى منطقة الأهرام أو فى أعماق الجيزة فأتوقف ساعات لتأمل الزمن الذى كنت أراه فى كل بقعة ، وذهبت ذات مرة إلى مسرح الجمهورية بعابدين حيث كانت فرقة المسرح الحديث تقدم مسرحية من تأليف الدكتور مصطفى محمود اسمها "الشيطان يسكن فى بيتنا" وحاولت التركيز فى المسرحية حتى الفصل الثانى ، ولكننى كنت ضيق الصدر فلا الفكاهات تضحكنى ولا الموضوع يشدنى ، وكيف يشدنى نَصٌّ يقول إن الشيطان هو المرأة ؟ ويصور الصراع بين الخير والشر فى صورة اجتناب النساء فى مقابل الوقوع فى غرامهن ، وكان الممثلون يتسمون بقدر يصعب وصفه من ثقل الظل ، حتى انصرف الجمهور - ووجدت نفسى وحيدًا فى الصالة فى الفصل الثالث ، فتسللت برفق حتى خرجت .

وفى الصباح ، كنا فى يوم الثلاثاء ١٦ مارس (موعد دروسى فى أكاديمية الفنون) قابلت المخرج حسن على باب معهد الفنون المسرحية ؛ وكان يحمل فى يده ملفًا أزرق ، وتبدو عليه أمارات الاكتئاب ، ولما طلبت منه تفسيرًا لتجهمه دفع إلىّ الملف وهو يقول فى نبرات مريرة "اتفرج يا سيدى !" وفتحت الملف فوجدت نصًا مسرحيًا من تأليف سعد الدين وهبة بعنوان الأستاذ ، وعندما بدأت القراءة أوقفنى وقال "تمهل ! لقد رفضته الرقابة ! ولا أمل فى الموافقة أبدًا !" وقلت له" لا تبتئس فسوف يتغير كل ذلك ، فالانغلاق قد انتهى ! وكما سمعت ألغى السادات معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفيتى بالأمس !" (وكان الإلغاء في يوم ١٤ مارس ١٩٧٦) فضحكَ حسن وقال : "لن يتغير شىء !" وسرت معه حتى القاعة التى كنت سألتقى فيها بالطلاّب ، وكنت أتصور أنه يريد إخراج المسرحية ولكن الرقابة اعترضت ، ولكننى فهمت من حديثه أنه معترض على مبدأ الرفض وحسب .

وعندما انتهيت من محاضرتى العامة ، فى نحو الحادية عشرة ، خرجت إلى البهو الذى يتوسط المعهد، فوجدت حشدًا واقفًا بجوا السلم، وعرفت من بينهم حسين مهران الذى كان

أمينًا عامًا للأكاديمية، وأحمد الفخرانى الذى كان مستشارًا قانونيًا ، والمقدم عاصم عباس الذى كان ضابط الأمن ، وآخرين من العاملين فى الطابق الأول (مكتب المدير). ولم أسأل عن سبب الزحام ولم أكترث له، بل اتجهت إلى السلم الموصل إلى غرفة رشاد رشدى وهناك قيل لى إنه لن يأتى - وهمس لى عاصم عباس قائلاً "إن رئيس الجمهورية قد استدعاه اليوم". وفهمت بعد ذلك من الهمسات وشذرات الحوار أن هؤلاء كانوا يريدون شيئًا ما من رشاد رشدى وخاب ظنهم ، وعدت أدراجى إلى الممر الموصّل إلى قاعات الدرس فرأيت أو سمعت من ينادينى، وكان حسن (المخرج) جالسًا فى غرفة الأساتذة حيث دفتر التوقيع بالحضور، فذهبت إليه وقال لى بلهجة قاطعة: "أنا أدعوك إلى الغداء معى!" ولما رأى ترددى قال: "لن أقبل الرفض وهناك مفاجأة!" وكأننى كنت مُخَدّرًا استدرت وخرجت معه دون أن نتبادل أى حديث.

تركت سيارتى فى فناء الأكاديمية ، وركبت إلى جوار حسن فى سيارته البيجو وانطلقنا غربًا أى باتجاه أهرام الجيزة ، وكان الشارع ما يزال بهيجًا يذكرنى بالأيام التى كنت أتردد فيها على المقاهى والمطاعم المنتشرة فى سفح الهضبة ، وكان الجو صحوًا والنسيم ما زال لطيفًا لم تفسده رياح الخماسين ، وما لبث حسن أن صعد بالسيارة الهضبة فأوقفها خارج مقهى يسمى "كازينو منظر الأهرام" وكنت قد اعتدت المعنى الإنجليزى لكلمة كازينو (أى مكان لعب القمار) فقلت فى نفسى ليتهم يغيرون الكلمة الانجليزية حتى لا يسئ السياح فهم الدلالة المصرية البريئة ! وجلسنا فى مقاعد نطل منها على القاهرة التى بدت مثل العروس فى أبهى حللها ، وطلب حسن الشاى ، ثم بدأ يقص علىّ طرفًا من مغامراته الغرامية ، ولم أجد الوقت مناسبًا لذلك ، فأبديت تململاً لم يلبث أن لاحظه فقال 'كل شىء له سبب !" وضحك . وأسرعت أعتذر عما بدر منى من سأم ، على الرغم من محاولتى إخفاءه ، فقال : "إن من أحكى لك عنها ليست نكرة ! وأنا أحكى لك ما أحكى لأنها حكت لى ما يهمك !" وكان الطعام قد وصل فحوّلت اهتمامى إليه وأنا أتظاهر بالاهتمام ، فلم أكن أريد أن أغضبه ، فهو صديق عزيز حقًا ، بل كان من القلائل الذين تواصلت علاقتى بهم منذ الستينيات ، حتى انتهى إلى القول بأن لها صديقة تريد "خدمة" معينة من جهة حكومية ، وتعرف صلتى برشاد رشدى وكيف يمكن الاستعانة به (من باب الوساطة) وعجبت فى نفسى لذلك اللف والدوران كله ، فإن كان الأمر ينحصر فى "الواسطة" فلماذا لم يفصح عنها 'حسن' مباشرة ؟ وأخرجت من جيبى مفكرتى الصغيرة ، ودونت فيها اسم طالبة "الخدمة" ونوع الخدمة ، وبعد الأحاديث

العابرة التى لم أكن أرى لها وجهة محددة ، نهضت وأنا أنظر فى ساعة يدى ، وفهم حسن مقصدى فضحك وقال انتظر لحظة . والْتَفَتَ فى حركة مسرحية إلى مائدة مجاورة لنا تجلس إليها امرأتان كنت لاحظت وجودهما قبل فترة ولكننى لم أتعرف على أيهما، وما لبثت إحداهما أن ضحكت وقالت بلهجة مسرحية أيضًا "لحظة واحدة !" والتفتُّ أنا إلى حيث جلستا وأنعمت النظر هذه المرة وخيل إلىّ أن وجه إحداهما مألوف ، ورددت على ابتسامتهما بابتسامة ، فرد التحية واجب ، وفى 'لحظة' خاطفة وجدتهما يشاركاننا المجلس ! وقال 'حسن' بسرعة : أنت تعرف 'فلانة' النجمة المشهورة ! وغمغمت كذبًا "طبعًا طبعًا" وأنا أحاول جاهدًا أن أذكر لها اسمًا ، واستمر حسن يقول 'وأما هذه فهى 'فلانة' المعيدة فى معهد البالية !' وكأنما كان ينتظر منى التعبير عن الدهشة فتوقف - مثل المسرحيين - ليتيح لى ذلك التعبير ، ولكننى لم أقل إلا 'أهلا وسهلا !' وإن كانت دهشتى الحقيقية هى ذلك اللقاء المسرحى الغريب ! وخلعت الأخيرة نظارتها السوداء كأنما لتساعدنى على التعرف عليها، وفعلاً تذكرت أنها إحدى طالباتى فى دروس الدراما بمعهد الفنون المسرحية لا بمعهد البالية ، فلم أكن أعمل فيه ، فبدأت أتشكك فى الرواية .

وبعد تبادل الأحاديث "الاجتماعية" التى امتدت حتى أتى الجرسون ودفع 'حسن' تكاليف الوجبة ، قمنا وتبادلنا التحية من جديد واتجهنا إلى سيارته .

كانت الحادثة غريبة ، وتوقعت أن يقص 'حسن' علىّ سر ذلك اللقاء الذى كان فى رأيى مُدَبّرًا ، ولكنه التزم الصمت طوال الطريق ، حتى وصلنا إلى الأكاديمية ، ، وكنت أتحرق شوقًا إلى معرفة "القصة" فسألت "حسن" سؤالاً مباشرًا فضحك وقال "لا تحمّل الموضوع أكثر مما يحتمل .. وسوف تعرف التفاصيل فى حينها !" وتركته وعدت إلى قاعة الدرس ، وأنا أقلّب الأمر على وجوهه ، حتى انتهى اليوم ، وعدت إلى المنزل .

وفى اليوم التالى - يوم الأربعاء - ذهبت إلى الكلية وقابلت رشاد رشدى وجلسنا نتسامر كالعادة ، وفجأة قال لى أريدك أن تأخذنى بالسيارة إلى الأكاديمية ، وكان فى صوته توتر لا يخفى على من يعرفه ، وعندما وصلنا دخلت معه المكتب ، فأمر السكرتيرة "كريمة" أن تمنع الزوار ، وقد رقيت بعد ذلك فأصبحت تشغل منصب المسجل فى المعهد العالى للنقد الفنى حاليًا ، وقال لى فى نبرات جادة وقد ارتسمت على وجهه ملامح جهمة قاتمة تنم عن قلق شديد لم ينجح فى إخفائه : هذه صفحات أريدك أن تترجمها إلى الانجليزية - ترجم قدر ما

تستطيع اليوم ، وائتنى بها فى الثامنة مساءً . وتسلمت المظروف من يده ، وفتحته فوجدت الصفحة قد امتلأت بالكلمات حتى اكتظت (لا أقل من ٥٠٠ كلمة عربية) فقلت له هذا يستغرق وقتًا طويلاً - فقال: أنت لها ! فقمت وأنا مهموم .. فكم من الوقت أحتاج إليه ؟

وما إن دخلت غرفة المكتب فى منزلى حتى بدأت العمل ، وكانت الساعة قد قاربت الثالثة عصرًا ، ولم أتوقف عن الترجمة حتى السابعة تقريبًا ، ولم أترجم فى ذلك الوقت كله إلا نحو ثلاث صفحات ، وكنت قد أعددت صورتين للنص - الأولى حرفية والثانية "بتصرف" أو ترجمة حرة أو ما نسميه بالترجمة الإبداعية ، إذ استعنت فيها بكل ذخيرتى اللغوية وتعمدت فيها ما كان شكرى عياد ينصحنى بالابتعاد عنه وما كان يسميه "التأنّق فى الأسلوب" ، وخرجت بالسيارة إلى منزل رشدى . ووجدته يجلس وحده فى غرفة المكتب ، على أريكة فى زاوية منها ، صامتًا ، ولم أكد أجلس حتى قال لى: "اقرأ !" وقلت له:" النص الحرفى أم الحر؟" فقال "بل الحر !" وجعلت اقرأ بلهجتى البريطانية وهو يتابع ما أقول في النص العربى، حتى انتهيت وساد الصمت لثوان خلتها دهرًا وأنا أنتظر التعليق ودقات قلبى تسرع لاهثة وإذا بصوت أجنبى يقول بلهجة أمريكية (شمالية) ما يفيد الاستحسان ، أو ما معناه هذا حسن أو لا بأس! والتفتُّ فإذا بجوار الباب شخص قصير أصلع الرأس ، يمسك فى يده قبعة، وقدمنى رشدى إليه، وعرفنى به قائلاً: هذا 'مايكل سيمون - بيسى' - (Michael Simon - Bessie) - وأردفَ الضيف قائلاً: لم أشأ أن أقاطعكما ولكننى سأذهب الآن إلى المطار!

(I have a plane to catch)

وقلت فى نفسى إن الحياة المسرحية تفرض نفسها علىّ بمستويات مختلفة ! ما هذا الغموض فى أحداث الأمس واليوم ؟ وانصرف الضيف فبدا أن رشاد رشدى قد تنفس الصعداء، وجاء بعد توديعه لدى الباب إلىّ ببسمة عريضة تتناقض كل التناقض مع مظهر القلق الذى كان يكتسيه فى الظهيرة .

وبدأ رشدى يقول إنه أقنع الرئيس السادات بكتابة سيرة حياته بالانجليزية ، وكان الرئيس قد أعجبه كتاب الدكتور نبيل راغب السادات رائدًا للتأصيل الفكرى (١٩٧٥) فعيّنه لديه فى السكرتارية الخاصة ، وكان يملى ذكرياته على شريط مسجل ، أو شرائط كثيرة فى الواقع ، علّها تصبح مادة لكتابة تلك السيرة باللغة العربية ، وكلف أحد كبار الكتاب وهو إحسان عبد القدوس أولاً بإعداد نموذج مستمد من تلك الذكريات ، التى كان يمليها بحضور

نبيل راغب ، ويبدو أنها لم تعجبه ، ثم كلف أنيس منصور بكتابتها ، وكان يرتاح إليه ، وأنيس ذو أسلوب ساحر جذاب ، وفهمت من حديث الدكتور رشاد رشدى أنه كان يتابع ذلك كله ويتحين الفرصة لإقناع السادات بكتابة الكتاب بالانجليزية لا بالعربية ، ومن ثم حصل على الشرائط واتفق مع الرئيس على إملاء المزيد منها ، وكان ذلك سر مقابلته له يوم ٣٠ ديسمبر ١٩٧٥ ، وفى الشهور الأولى من ذلك العام (١٩٧٦) كتب رشدى الفصل الأول بالعربية ، وحاول الاستعانة ببعض أساتذة اللغة الانجليزية لدينا لترجمته ، ولكن الناشر الأمريكى لم يستسغ الترجمة ، وكان أن استعان بى ، ولم يشأ أن يكون وحده الحكم على الترجمة فدعا الناشر الأمريكى للحضور فى الثامنة ، وعندما وصل ووجدنا 'نعمل' قرر أن يستمع بنفسه إلى الترجمة - فى حركة مسرحية عجيبة - بررها بأنه لم يشأ مقاطعتنا ، ولكن الحقيقة هى أنه لم يكن يريد إحراج أحد إذا رفض الترجمة ! ويبدو أن الناشر قد اقتنع بالنص الذى سمعه وأبدى موافقته ، وانصرف سعيدًا ، فكان ذلك مصدر سعادة بالغة لرشاد رشدى .

ومرت أيام الربيع المصرى سراعًا حتى تفسح للصيف قيظه نهارًا ونسائمه الجميلة ليلاً ، وعاد الأحباب من السعودية ، فعادت نهاد لتفاجأ بمرض والدها ، وجعلنا نتردد على الأطباء الذين قطعوا بأنه أصيب بالمرض اللعين ، وكانت نهاد قد عانت الأمرين من الوحدة والعمل الشاق فى السعودية ، فذهبنا فى الصيف لقضاء أيام معدودة فى الاسكندرية - فى أغسطس - وعندما عدنا وما كدنا نستريح من وعثاء الرحلة حتى وَجَدْتُ فى انتظارى طلبًا من وزارة الخارجية للذهاب فورًا لمقابلة السفير صلاح أبو جبل - رئيس إدارة المؤتمرات . وعندما قابلته قال إن علىّ أن أسافر فورًا إلى كولومبو (سريلانكا) للترجمة فى مؤتمر قمة عدم الانحياز . وعندما تساءلت عن الإجراءات قال لا تخش شيئًا - هذه السكرتيرة ستسافر معك ، وسرعان ما استخرج لى جواز سفر لمهمة ، وتذكرة الطائرة ، وفى غضون ساعات معدودة كنا فى الطائرة ! كنت مذهولاً من السرعة التى انتهت بها الإجراءات ، وكنت ما بين مصدق ومكذب حين وصلنا فى مساء اليوم التالى (إذ فقدنا ساعات بسبب فروق التوقيت وتغيير الطائرة فى الهند) إلى مقر المؤتمر ، وقابلنى السفير الدكتور عادل صالح (رئيس الأمانة الفنية للمؤتمر) فأرسلنى إلى فندق فوق ربوة عالية ، وسط غابة لم أكن أحلم برؤيتها ناهيك عن الضرب فى شعابها ، فقضيت ساعة أو بعض ساعة أسير فى جو آسيا الحار ، وإن كانت الحرارة غير شديدة بسبب ارتفاع المكان ، وفى الصباح ذهبنا إلى قاعة المترجمين حيث

عرفت سر استدعائى ، وهو أن فؤاد كامل - أحد المترجمين الكبار - قرر الرحيل فجأة وكان لابد من إيجاد بديل له ، وتعرفت هناك على مجموعة قدر لى أن أعمل معها سنوات طويلة بعد ذلك فى الترجمة بالمؤتمرات الدولية ، كنت أعرف بعضهم بسبب زمالتهم القديمة لى - مثل محمد عبد الله الشفقى (رحمه الله) ومثل فكرية السويفى زميلتى فى الدراسة الجامعية ، وتعرفت على البعض الآخر ونشأت بيننا صداقة عميقة .

وانقضى المؤتمر 'وانفض المولد' (وهو مشهد تكرر عشرات المرات فى حياتى الجديدة) ، ولكن الدكتور عادل صالح قرر استبقاء عدد من المترجمين والمراجعين ثلاثة أيام للانتهاء من الوثائق ، وكنت بين من بقى ، وفى تلك الأيام القليلة أثناء المؤتمر أحسست بأننى أدخل عالمًا جديدًا ، فالمترجمون خليط غريب من الناس ، بعضهم جاد لا يعرف الهزل ، وهم العماد الذى تستند إليه الأمانة الفنية لكل مؤتمر ، وبعضهم دخل مهنة الترجمة دون إحكام الصنعة ، وبعضهم من أقارب الكبار أو أصحاب السلطة والنفوذ (ومعظمهم من الفتيات) ولم يكن أمامى إلا أن أعرف هذا وذاك ، فمن القسم الأول تعرفت على اثنين من كبار مترجمى مصر هما السيدة نهى بدوى (بنت عبد الحميد بدوى باشا) وعمر حسن صبرى (ابن حسن صبرى باشا) وكانا مثل سائر أولاد الذوات يجيدان الانجليزية والفرنسية إجادة تامة ، ولم يكن أيهما فى مقتبل العمر ، كما تعرفت على بعض الشبان النابهين مثل محمد عبد السلام رضوان المترجم الضليع ، وتعرفت أيضًا على بعض موظفى وزارة الخارجية ، وعرفت أن الدبلوماسى يتميز عن غيره بإضافة لقب 'بك' إلى اسمه رغم إلغاء الألقاب ، وانقضت الأيام كالحلم الجميل ، وكان من مكاسب تلك الرحلة تعرّفى على عبد الرحيم شلقامى - وكان أمهر من يكتب على الآلة الكاتبة العربية ، كما جمعتنى صلاة الجمعة بأحمد بهجت ، الذى رأى الناس يتوضئون فى بركة المياه (لأنها جارية من مسيل أحد الغدران فى الجبال) وتصوّر أن الأسماك سوف تعضهم- وإن لم أكن قد رأيت فى الماء أسماكًا !

وهكذا فى غضون عام واحد من العودة كنت قد تركت مصر مرتين ! وما إن حططت الرحال هذه المرة حتى أدركت أن ما رسمته لنفسى من حياة أدبية لن يكتب له أن يتحقق على نحو ما أردت ، إذ كنت تقاضيت أكثر من ألف دولار مكافأة عن العمل عشرة أيام فى المؤتمر (وكان أجر المراجع آنذاك ١٢٥ دولارًا فى اليوم مثل المترجم الفورى) وهو مبلغ كنت فى مسيس الحاجة إليه آنذاك ، وما لبث أن توفى والد نهاد ، وتعرضت لهزة عنيفة ، فأسرة نهاد لم

تواجه فاجعة من قبل ، وعزة تقيم فى جدة ، وأحمد ما زال طالبًا فى كلية الآثار ، وسناء ما زالت طالبة فى كلية الإعلام ، ونهاد ما زالت فى عطلة الصيف فى القاهرة وسوف تعود إلى السعودية بعد قليل ، وأنا ممزق بين منزلنا الذى أقيم فيه عادة وحدى لأن سارة تقيم مع أسرة زوجتى فى شبرا ، وبين منزل أصهارى ، وأصبحت أشعر بمسئولية جديدة نحوه . وكنا آنذاك فى رمضان ، فانتهت مراسم العزاء بسرعة ، وأنا أزداد فى كل يوم تفكيرًا فى أحوال الأسرة وأزداد اقترابًا من الله فى ضميرى ، حتى جاء يوم بدا لى فيه أن سارة مريضة . واصطحبتها بالسيارة إلى الدكتور خليل عبد الخالق ومعى عيّنة من البول إذ شككت فى أنها أصيبت بالتهاب الكبد الوبائى ، وعندما دخلت إليه سألنى عن الحالة فقلت له إن درجة حرارتها زائدة نصف درجة – وهذا هو البول وإننى أشك فى إصابتها بالصفراء . فإذا به يصرخ فى وجهى قائلا : "أنت حتشخّص كمان يا أستاذ ؟ إنت إيش فهمّك ؟ إديها سلفا !" وكتب لى روشتة وخرجت .

كانت الساعة قد تخطت الرابعة ، والقيظ فى ذروته ، ووضعت سارة فى المقعد الخلفى فغلبها النعاس ، وعبرت كوبرى ٦ أكتوبر وأنا شارد الذهن ، فإذا بسيارة أخرى تحاول قطع الطريق علىّ ، فصحت فى قائدها غاضبًا ، فرأيته يشير إلىّ أن توقف . فتوقفت . فخرج هو من السيارة وأقبل علىّ مرحبًا ومعه زوجته ، وقال لى ألا تذكرنى ؟ كنت زميلك فى مدرسة الأورمان ! والدى كان الناظر السابق الأستاذ المسيرى ! وانعقد لسانى ولم أجد ما أقوله إلا إن ابنتى مريضة ، فقال أنا الآن طبيب فى القصر العينى – سر ورائى من فضلك ! وسرت بالسيارة خلفه حتى توقفت عند عيادة لم أكن رأيتها من قبل فى الدقى ، وأخذ عيّنة البول ودخل ، ثم خرج ومعه بعض أدوية ، وقال لى هل تسمح أن أزورك فى المنزل بعد الإفطار للاطمئنان على سارة ؟ وتوقفنا فى الطريق عند منزله فى شارع مصدق – القريب من منزلنا – حيث أعطى سارة عصير برتقال ، وقال لى اجعلها تستريح حتى المساء ، وفعلاً أتى إلى المنزل فى نحو التاسعة ، واطمأن على سارة وخرج بعد أن أعطانا نتيجة التحليل .

وفى الصباح استدعينا الدكتور السعيد يونس الذى أكد صحة تشخيص المسيرى ، وقال لنا لا تقلقوا فالأطفال "بياخدوا الصفرا على رجليهم" يقصد أنهم لا يتطلبون من الراحة ما يتطلبه الكبار ، ولم تمض أيام معدودة حتى كانت سارة قد شفيت . ولكن هذه الأحداث جعلت نهاد عازفة عن العودة إلى السعودية ، وكانت تشعر بأنها مرغمة على ذلك ، بسبب العقد الذى

وقعته ، ويتضمن شرطًا جزائيًا ، إلى جانب الالتزام الأدبى ، وكانت تعانى وتكتم معاناتها ، فأسرتها الصغيرة فى حاجة إليها ، وأسرتها الكبيرة ليست أقل حاجة ، ومن ثم توجهنا إلى مقر البعثة السعودية حيث اتفقنا على إمكانية إلغاء العقد فى منتصف العام - أى بعد ثلاثة أشهر أو أربعة ، ثم سافر الجميع من جديد بعد العيد ، وعدت إلى الوحدة والوحشة .

ومع بداية أكتوبر كنت قد قطعت شوطًا لا بأس به من كتاب رشاد رشدى - نحو ثلاثة فصول - أرسلها فى الحقيبة الدبلوماسية من مكتب أسامة الباز - وفوجئت ذات يوم فى الجامعة بالدكتور مصطفى محمود (الكاتب) داخلاً ومعه كتاب صغير عنوانه هو الماركسية والإسلام وطلب منى أن أترجمه . ووجدته صغيرًا فقبلت ، وجعلت أترجم فيه على فترات ، وكنت أجد مشقة كبرى فى الترجمة بسبب أسلوب الكاتب الاستطرادى ، فهو يقفز من فكرة إلى فكرة داخل العبارة ويغير النبرة داخل الفقرة الواحدة ، ولكننى كنت أشغل نفسى به فى لحظات الفراغ وما كان أقلها فى تلك الأيام .

هل كان ذلك ما عدت إلى مصر لأفعله ؟ أين طموحاتى الأدبية ؟ أين كتابة المسرح ؟ أين الترجمات الأدبية التى كنت بدأتها بمسرحية مسافر ليل لصلاح عبد الصبور ، وهى الآن قابعة فى قاع الحقيبة الضخمة فى منزل والدى ؟ وفحصت ذات مساء مخطوط مسرحية لم يقدر لها أن ترى النور أبدًا عنوانها الزيارة فوجدت النص أوروبيا فى بنائه وصوغه ، ومن المحال تحويله إلى نص عربى الروح مثلما هو عربى اللغة ، ونظرت أيضًا فى مخطوط مسرحية أخرى لم أكتب منها إلا بضع صفحات قبل أن أسافر وعنوانها السجين والسجان - فأعجبتنى حيوية الحوار وغرابة الموقف وتمنيت أن أكملها ! وكانت لدى بعض أوراق خططت فيها 'موقفًا' من مواقف مسرحية 'الغنم' التى كانت تشغلنى طيلة السنوات العشر السابقة - وفيها أتصور موقفًا غريبًا يتمثل فى 'فرار' الغنم من الحظيرة كأنما قامت بثورة ! وأنطلق من ذلك الموقف لتأمل مفهوم الاشتراكية الذى أخذنا به فى مصر ، وكيف تتحول مبادئها إلى قيم غامضة لا علاقة لها بالنظام الذى وضعه العالم وطوّره - وكانت يغيظنى أن أقرأ عبارات مثل "جهاز عروسة اشتراكى" فى الصحف ، أو أسمع كلمات (فى أغنية لعبد الحليم حافظ) تقول "لو تخدم باشتراكية" أو "يا عديم الاشتراكية" - ترى ما معناها ؟ هل يفهم الشعب المصرى وغالبيته من الأميين معنى ذلك النظام الاقتصادى بشتى صوره الأوروبية ؟ وتصورت أن أسخر من فهم المصريين للقيم النبيلة أو عدم تحويل تلك القيم إلى واقع عملى فى المسرحية - وكان تفكيرى أيضًا غريبًا بمعنى أنه كان يفترض قدرة القارئ أو المشاهد على

إدراك معنى "التورية الساخرة" أو المفارقة الدرامية (Dramatic Irony) وكان ذلك خطأ . كان كل شيء فى حياتى الأدبية قد انفرط عقده ، وكانت الأيام تجرى كأنما دون هدف - وكأنما كنا جميعًا نتسابق نحو الغاية المحتومة دون مبرر لحياتنا أو أحلامنا - كان أكتوبر ١٩٧٦ شهر 'الانقباض الأعظم' !

٥

واتصلت بى فى نوفمبر نهى بدوى وقالت إن هناك فرصة للاشتراك فى مؤتمر فى الجزائر وإن التذكرة موجودة فى مكتب شركة الخطوط التونسية ، فذهبت إلى الكلية وقدمت طلبًا للسفر ، أى لاستخراج الورقة الصفراء ، وكان معنى السفر أثناء العام الدراسى ، ضرورة موافقة القسم ثم العميد ثم مجلس الكلية ، ثم رئيس الجامعة ، وهى إجراءات تستغرق وقتًا طويلاً ، ولكن إغراء السفر لرؤية الجزائر وكسب المال أيضًا كان لا يقاوم ، وشرعت فى الإجراءات حتى انتهت ، وتسلمت الورقة الصفراء من مدام وجيدة وخرجت سعيدًا فالتذكرة فى جيبى ولم يعد هناك مجال للقلق وعندما وصلت إلى المطار وتوجهت إلى ضابط الجوازات قال إن الورقة الصفراء لا تصلح ! وتطلعت إليه فى ذهول ! هل هى مزورة ؟ ما عليه إلا أن يتصل تليفونيا بالعميد ليتأكد بنفسه من صحتها ! ولكنه ضحك قائلاً : أين ختم النسر ؟ وفوجئت وانعقد لسانى . لم يخبرنى أحد بضرورة ختم النسر ! وبذلت محاولات متعددة لإقناع الضابط الكبير الذى كان يتكلم كأنه صاحب المطار أو صاحب مصر نفسها - وحاولت بكل ما أوتيت من لباقة إقناعه بالاتصال بالكلية أو قبول إقرار منى أو أى شيء - ولكنه قال كلامًا مهينًا بصوته الجهورى الأجش الذى لا تزال أصداؤه ترن فى ذاكرتى بعد هذه السنين كلها ، فخرجت واستعدت حقيبتى وقررت إلغاء الرحلة . وعندما عدت إلى الكلية وقصصت عليهم القصة كان رد الفعل مزيجًا من الرثاء والسخرية والتشفى ! أفلا يعلم هذا العائد من انجلترا أن ختم النسر هو سر الحياة ؟

لم يتغير فى مصر شيء إذن - وتأملت ما أنفقت فى استخراج الورقة الصفراء ، إذ كان على الساعى - بعد الحصول على توقيع رئيس القسم أن يحصل على توقيع العميد ثم غالبية

أعضاء مجلس الكلية فيما يسمى "القرار بالتمرير" - أى أن يمر عليهم فى أماكن عملهم أو فى منازلهم فى الأوقات التى يُحتمل العثورُ عليهم فيها ، وكنت أصاحبه بالسيارة فى هذه الرحلات إلى المنازل ، وكان كلما حصل على توقيع صاح صيحة الظفر ، حتى إذا اكتمل العدد المطلوب (أكثر من ٢٥ توقيعًا) طار إلى العميد ثانيًا للأمر بإعداد مذكرة وكتابتها على الآلة الكاتبة فى قسم "النسخ" ، ثم حمل المذكرة إلى إدارة الجامعة ، وكان رئيس الجامعة فى اليوم الذى زرناه فيه غائبًا فى الفيوم ، فتطوع أحدهم بإدراج المذكرة فى "البوسطة" التى ستحمل إليه ، والعودة بها "إكرامًا لخاطرى" فى اليوم التالى ، فإذا تم التوقيع عادت المذكرة إلى الكلية لاستخراج الورقة الصفراء وتوقيع العميد عليها من جديد ! ولكن ختم النسر أبى واستعصم فطارت الرحلة !

وفكرت فى أحداث العام المنصرم ، وجعلت أتأمل الآمال الضائعة والآمال التى تحقق بعضها ولو بصعوبة ، فقررت أن أشغل وقتى بالقراءة مثلما كنت أفعل فى انجلترا ، وفى الكتابة التى جئت إلى مصر من أجلها ، وساعدنى جو الخريف الجميل على تحقيق بعض من هذا وذاك، فأخرجت الصور الفوتوغرافية (الزيروكس) التى كنت صورتها لمخطوطات الشاعر الانجليزى وردزورث والتى تتضمن مسودات السِّفْر الأول والسفر الثانى من قصيدته "المقدمة" وهى سيرة ذاتية كتبت شعرًا وكنت درستها فى انجلترا ، وقررت أن أحقق النص الأول لهذين السفرين استنادًا إلى هذه المخطوطات بعد أن أنفقت الكثير فى سبيل الحصول عليها ، فالسفران يمثلان قصيدة مكتملة ، ولو أن الشاعر عاد إليهما قبل أن ينشرها فاستكمل سيرته الذاتية وزاد عدد الأسفار إلى ثلاثة عشر سفرًا فى عام ١٨٠٥ . ووجدت أن تحقيق النص الأول ونشره مع مقدمة وافية يمكن أن يشغلنى فى ذلك الشتاء ، بل إنه كان يمثل حلمًا من أحلام دراستى فى انجلترا ، فعكفت على ذلك العمل حتى آخر العام .

كنت سعيدًا - لا شك - باستغراقى فى الدراسة ، فلم أعد أذهب إلى الأزهر ولا إلى الفيوم ، وحصرت نشاطى كله فى جامعة القاهرة وأكاديمية الفنون ، حتى انتهيت من تحقيق النص ومضاهاة القراءات المختلفة فى شتى المخطوطات بما استقر عليه الشاعر آخر الأمر ، وكتبت فى غضون ذلك دراسة مستقلة ومنفصلة لمفهوم الأسلوب عند ذلك الشاعر ، منطلقًا من مقولة "ماثيو أرنولد" إن الشاعر لم يصطنع لنفسه أسلوبًا خاصًا بل كان يكتب ما تمليه عليه الطبيعة، وما جاء فى مقاله عنه من أن الطبيعة نفسها هى التى كانت تمسك بالقلم

وتكتب له ! وعندما اكتملت الدراسة عرضتها على أستاذتى الدكتورة فاطمة موسى فرحبت بها واقترحت نشرها فى مجلة الكلية ، وعدت أنا إلى التحقيق فكتبت له مقدمة من خمسين صفحة ، ولكن أبواب نشر ذلك العمل كانت مغلقة فى مصر ، فوضعت كل شىء فى الدرج ، وعدت إلى مسرحيتى القديمة "الغنم" فقطعت فيها شوطًا طويلاً ، وكنت أشعر بحاجة ماسة إلى عرض ما كتبت على ناقد أو كاتب أو مخرج ، ولكن الأصدقاء كانوا فى السعودية ، فوضعت ما كتبت أيضًا فى درج المكتب ، وشغلت نفسى بالترجمة والتدريس وحسب .

وفى يناير ١٩٧٧ اتصلت بى إدارة المؤتمرات بوزارة الخارجية وكلفتنى بالسفر إلى دار السلام (تنزانيا) للترجمة فى مؤتمر تعقده لجنة التنسيق لتحرير إفريقيا المنبثقة عن (أو التابعة) لمنظمة الوحدة الأفريقية ، فركبت الطائرة فى الواحدة صباحًا ووصلت إلى دار السلام ، مرورًا بنيروبى (كينيا) فى نحو التاسعة ، بعد ليلة لم أنم فيها إلا لمامًا ، فوجدت فى انتظارى الأستاذ محمد متدن (واسم الأسرة باللغة السواحيلية تحريف للكلمة العربية متديّن) ومعه جميع وثائق المؤتمر التى يريد ترجمتها بالعربية . وطلبت منه أن يمهلنى حتى أنال قسطًا من الراحة ، ولكنه أصر على ترجمة إحدى الوثائق فورًا لأن الجلسة الأولى ستعقد فى الرابعة من عصر ذلك اليوم ، ولابد من النص العربى فى أيدى المندوبين من السفراء أو وزراء الخارجية العرب . وصدعت بالأمر ، وتحقق ما يشبه المستحيل بفضل عبد الرحيم شلقامى - أسرع من يكتب على الآلة الكاتبة العربية فى العالم - إذ جلست معه فى غرفة بمقر اللجنة ، وشرعت أترجم ترجمة منظورة at sight أى أقرأ النص الانجليزى بالعربية ، وهو يكتب بسرعة نطقى للكلمات ، مثلما كنت أفعل مع "جنيفر باتشلور" (جينى) الانجليزية إبان الأزمات فى انجلترا ! وكان أحد العاملين يأخذ الصفحات المكتوبة على الإستنسل (قبل شيوع آلات التصوير أو النسخ) فيستخرج منها النسخ المطلوبة، حتى إذا حان موعد الجلسة كان النص العربى فى أيدى الجميع!

واستمر الإرهاق فى إفريقيا عدة أيام متوالية ، لم يخفف مه سوى متعة مشاهدة إفريقيا السمراء ، ومقابلة أحد تلاميذى السابقين فى قسم اللغة الانجليزية وهو إبراهيم الخضرى الذى كان يعمل آنذاك ملحقًا صحفيًا بالسفارة المصرية . وكان إبراهيم طموحًا شديد الذكاء ذا طابع عملى فى حياته - فهو من دمياط ، المجتمع الصناعى الذى لا يفهمه الكثيرون - وشديد الولع بالفكاهات والقفشات ، فدعانى إلى الغداء فى منزله عدة مرات ، وفى فندق على ساحل المحيط اسمه "بحارى بيتش" ، وكان قد تعلم اللغة السواحلية أيضًا وأجاد فهم

أبناء إفريقيا ، فكان خير عوض عن إرهاق الترجمة ، وقد قدر لنا أن نلتقى فيما بعد ونعمل معًا فترات طويلة فى قسم الترجمة العربية بمنظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة فى روما . وقابلت بالمصادفة سفيرنا فى دار السلام أحمد حتاته (رحمه الله) الذى كانت تربطه بالأسرة صلة نسب ، فدعانا إلى منزله أيضًا (أنا وفريق الترجمة : آن مارى جريس ، وسميرة عبد السيد ، وشوقى الكيلانى، ونهوت عبد الله) وبعد انقضاء الأسبوع تقاضيت الأجر وكان ٤٥٠ دولارًا وعدت إلى القاهرة محملاً بالشاى ولوز الكاشو (يكتبونها كاجو فى مصر الآن محاكاة للنطق العربى الذى يعطش الجيم) .

وعدت إلى الجامعة للتدريس يوم السبت ١٥ يناير ١٩٧٧ وكنت قد انقطعت عن أخبار مصر أثناء الرحلة فسمعت من الزملاء كثيرًا من الأحاديث عن الأزمة الاقتصادية ، وكان معظم أصدقاء الستينيات قد خرجوا من مصر فى إعارات للعمل بالبلدان العربية ، أو بالأمم المتحدة ، بعد أن أصبح الخروج من مصر ميسورًا ، ولم يكن هناك من أستطيع مناقشته فى الشئون العامة غير أصدقاء الصبا الأستاذ أحمد السودة والأستاذ ماهر البطوطى ولم أكن أقابلهما سوى يوم الجمعة ، فخرجت فى مساء ذلك السبت إلى منزل رشاد رشدى لأطمئن عليه فإذا به ما زال يعانى من نوبة الانفلونزا الحادة وسمعت أن الرئيس السادات قد اتصل به تليفونيا من أسوان ليطمئن على صحته ، ومكثت ساعتين أحطت فيهما بما فاتنى من أنباء ، إذ توافد الأصدقاء وجعلوا يطرحون من الآراء ما ذكرته بعد ذلك فى خطاباتى إلى سمير سرحان ونهاد زوجتى وهما فى جدة .

كان أهم ما سمعت فى تلك الجلسة أن معارضى السادات ، ومعظمهم من مؤيدى عبد الناصر ، غير مقتنعين بسياسة الانفتاح التى أدت إلى "توحش" بعض التجار الذين استغلوا فتح الأبواب للإثراء السريع دون وازع من ضمير، ومن ثم إلى نشأة طبقة يتزايد عدد أفرادها من المستغلين والجشعين ، فأصبح من الصعب الحصول على مسكن بالإيجار ، وارتفعت أسعار الوقود نتيجة ارتفاع أسعار النفط عالميًا ، وتعالت أصوات المعارضين ، والسادات يسمح لهم بإصدار الصحف الجديدة والحديث دون خوف ، وكنت أستمع فى صمت فأنا بطبعى عازف عن الكلام فيما لا أعرف ، وعندما احتدم النقاش مِلْتُ على أحد الضيوف فسألته عن حقيقة الانفتاح – وكان ملمًا بالجوانب الاقتصادية "السرية" التى أجهلها ويجهلها الكثيرون فقال لى :

" إنك لا تستطيع تحويل النظام الاشتراكى إلى نظام رأسمالى بين يوم وليلة ! فهذه هى الوصفة الجاهزة والسريعة للتمزق الاجتماعى ، وأوضح مجال لذلك هو الطعام ، فالناس لابد أن تأكل ، ونحن لا ننتج كفايتنا من الأغذية ، والمستوردون من الأفراد والشركات الخاصة يستغلون ذلك أبشع استغلال، بعد أن غابت رقابة الدولة تقريبًا !"

وسألته إن كانت الحكومة قد تخلت عن مسئوليتها فى الرقابة حقًا ، فقال كلامًا سجلته فى خطاب مطوّل أرسلته يوم الأحد إلى نهاد زوجتى ، وملخصه أن الكبت والانغلاق فى أيام ما كان يسمى بالاشتراكية أوجد فئة من المتحايلين على القوانين، وأن هذه الفئة تنخر كالسوس فى جسد الاقتصاد المصرى، يساعدهم فى ذلك الفاسدون من العاملين فى الحكومة، والفساد يستشرى فى كل نظام مغلق بطبيعة الحال ولكنه ينمو ويزدهر فى مراحل التحول الاجتماعى، خصوصًا إذا كان ذلك التحول فجائيًا ! وقلت له إن السادات سوف يحصل على الأموال اللازمة للنهضة الاقتصادية من إخواننا العرب ، ولَخَّصْتُ له ما نشرته صحيفة التايمز البريطانية عن الخطة الرئيسية master plan التى أعدها السادات بمساعدة شركات الخبرة الأجنبية لتحويل شرق الدلتا ومنطقة قناة السويس إلى منطقة صناعية كبرى، وبها موانئ للتصدير، وحدثته عن الوعد الذى تلقاه من العرب عام ١٩٧٥ بعد إعادة فتح القناة بالمساهمة فى هذه الخطة بنحو عشرة مليارات دولار.

وضحك الضيف قائلاً : وهل صدقت الصحيفة البريطانية ؟ لن يحصل السادات على شىء من إخواننا العرب ، فلكل منهم همومه ومشاغله ، ودعنى أؤكد لك أن السادات يعلم ذلك أو أصبح يعلمه بعد أن قضى ما يقرب من عامين فى الاستجداء ! وأخشى ما أخشاه أن يفلت زمام الموقف من يده وأن يفاجأ بانفجار غير متوقع ! لقد كان الناس يتوقعون بعض التحسن الاقتصادى بعد نصر أكتوبر، ولكن انظر ما يحدث الآن !

وعندما عدت إلى المنزل تذكرت رواية ابن آوى للكاتب الإيطالى جيبوسيبى لامبيدوزا، التى يصور فيها تحولا مماثلاً إبّان توحيد إيطاليا فى القرن التاسع عشر ، ويصف فيها بالتفصيل ما يسميه بالطبقة الوسيطة أى التى تكسب دائمًا فى كل تحول اجتماعى، فهى تستفيد من الانهيار مثلما تستفيد من الازدهار، وسلاحها دائمًا هو الاستغلال وخدمة المصالح الشخصية، وذكرت مسرحية السبنسة لسعد الدين وهبة، التى يقول فيها أحد الأشخاص إن القطار قد يسير فى اتجاه معين فتصبح العربات الأولى هى الدرجة الأولى، أو فى الاتجاه

المعاكس فتصبح الدرجة الثالثة (السبنسة) هى الأولى ، ولكن الدرجة الثانية تظل دائمًا درجة ثانية ! وعندها عدت إلى مسرحيتى الفنم فألححت على اختلال المفاهيم خصوصًا ما يتعلق منها بالسلطة والشعب، وما يتصل منها بمفهوم الاشتراكية الذى شوهناه فى مصر، على نحو ما ذكرت آنفًا، ولم أكن قادرًا على الوصول إلى الفصل الثالث ، كأنما كنت أنتظر الأحداث العامة التى تحدد لى مسار الكتابة !

كانت الصحف فى ذلك الأسبوع تركز على الأزمة الاقتصادية ، ووجدتنى رغمًا عنى أناقش الموضوع مع كل من أعرفه ، وفى صباح الثلاثاء ١٨ يناير ١٩٧٧ صدرت الصحف وهى تحمل أنباء زيادة أسعار الكثير من السلع الأساسية ومنها وقود السيارات ، وكنت فى أكاديمية الفنون ، فقابلت المخرج "حسن" الذى بادرنى بالتحية وشدنى شدًا إلى ركن قصىّ كأنما يريد أن يسرّ إلىّ بما كان يشغله من أمور المسرح (أو النساء)، وجلسنا فى حديقة المعهد ، وأبديت له استعدادى الكامل للإصغاء ، فإذا به يحدثنى عن الضائقة الاقتصادية ! ولم أكن أتوقع ذلك فسألته أن يوضح لى ما غمض علىّ من علاقاته مع الفنانات ، فضحك ضحكة مقتضبة قائلاً "خلينا فى المهم" ومن ثم انطلق يتحدث عن أزمة مسرح الدولة وما يتهدده من خطر الانهيار ، وانتشار فرق القطاع الخاص ، والمهازل التى تقدم باسم "الهزليات" الغنائية أو الموسيقية ، ولم أجد فى ذلك كله ما يستدعى جو السرية الذى أشاعه دون مبرر ، فقلت له إننى مرتبط بعدة مواعيد ولابد أن أنصرف فحدجنى بنظرة عتاب قائلا "أتترك أخاك فى محنته ؟" وكان ذلك كافيًا لشد انتباهى فقلت له "ما تلك المحنة ؟" فقال "لقد قرأت ما أعلنته الحكومة اليوم من قرارات برفع جميع الأسعار ، ومنها أسعار البنزين بل والغاز والكيروسين ، وربما شعرت بضيق الناس لهذا الغلاء المفاجئ ، فالمكوجى كان يتقاضى قرشًا ونصف عن كىّ القميص فأصبح يتقاضى قرشين ، وأنا غارق فى الديون إلى أذنىّ !" وفهمت ما يرمى إليه ولكننى لم أعلق ، فاستمر قائلاً : "إن الفنانة الشهيرة التى رأيتها فى الهرم هى زوجتى ! وصديقتها التى كانت تجلس معها – هى خطيبتى !" وكدت أضحك ولكننى تماسكتُ وأمسكتُ لسانى . وساد الصمت المتوتر لحظات كنت أنتظر فيها نهاية القصة وأتوقع طلب العون ، ولكنه نهض وقال : "لعلك فهمت الآن سر الأزمة ! لقد تعاقدت على إخراج مسرحية للقطاع العام ثم تآمر الناس ضدّى دون سبب مفهوم، فطارت المسرحية، وأنا الآن مضطر إلى إخراج هذا الهراء ! تفضل! اقرأ !" وأخرج من حقيبته مخطوطًا لمسرحية دون عنوان، تصفحتها فقرأت ما يمكن تسميته

بالحوار وإن كان على درجة من الانحطاط لم أعهد مثلها يومًا ما ، وقبل أن أبدى أى رأى بادرنى قائلاً "لابد من إخراجها مهما بلغ من ابتذالها فهى مصدر الرزق الأوحد ! ما رأيك ؟"

كان الموقف محيرًا وغريبًا وبه عناصر "عبث" واضحة ، وحاولت بالمنطق الهادئ الذى اعتدته أن أربط بين علاقاته النسائية وأزمته المسرحية فلم أفلح ، ووجدتنى مضطرًا إلى سؤاله وكانت إجابته حاضرة ، إذ قال إنه سوف يسند دور البطولة إلى زوجته ، فهذا هو "المعقول" الوحيد ، ودور الراقصة إلى خطيبته ، فهذا "معقول" أيضًا ، ولكنه يخشى أن تفصح أى منهما لصاحبتها عن علاقتها به ، إذ إن زواجه من الأولى زواج "سرى" حتى تلك اللحظة ، وكذلك خطبته للراقصة ! وأبديت له دهشتى ، قائلاً إنهما صديقتان وكانا يتساران معًا يوم لقائنا فى الهرم ، فأجاب بأن زوجته لا تعرف إلا أن الراقصة (وقد اتضح أنها قد طُردت من المعهد) تشارك فى الأعمال الفنية فقط ، وأن الراقصة لا تدرى شيئًا عن زواجه ، فهو يعيش وحده فى شقة فى "منيل الروضة" ، وزوجته تقيم مع والدتها المسنّة التى فقدت السمع تقريبًا وتعتمد اعتمادًا كاملاً على ابنتها فى كل شىء!

ولم أدر بمرور الوقت وأنا أستمع لهذه الأقاصيص التى بدت لى أغرب من الخيال، إذ تبّينتُ أن موعد محاضرتى لدبلوم الترجمة فى الجامعة قد حان ، فتململتُ فى مقعدى وأنا أنظر إلى الساعة كأنما لألفت انتباهه إلى الزمن ، ولم يغب عن نظره ذلك فأسرع يقول: "كل ما أردت اليوم هو إشراكك معى فى الأزمة ، فأنا أعرف أنك كاتب مسرحى موهوب ، ولو قدمت لى نصًا محترمًا فسوف ينقذنى من هذه الورطة !" فأخبرته أن الغنم لم تكتمل، فأسرع يقول "مسرحية مترجمة يا أخى !" فقلت له "المترجمات كثيرة !" فقال "لا! ولكن ترجم لى نصًا جديدًا نقدمه معًا إلى المسرح القومى مثلاً .. أو الحديث .. فيعود علينا جميعًا بالخير !" وابتسمت ووعدته خيرًا، فأردف يقول بالانجليزية :

"Meanwhile, you haven't got a tenner to spare by any chance?"

وقلت فى نفسى إن هذه الأقاصيص تساوى عشرة جنيهات ولا شك! فأخرجت الورقة المالية ودفعت بها إليه فعاد يقول بالإنجليزية :

"A temporary loan, of course!"

وأَمَّنتُ على كلامه مكررًا "طبعًا طبعًا" وانصرفت.

وانهمكت فى التدريس عصر ذلك اليوم ، وشغلتنى المشاكل اللغوية عن "حسن" و"حواديته" ، وإن كنت فى أعماقى أكابد صعوبة فى تصديق ما قاله ، وكان من الممكن ألاّ أذكر هذه القصة باعتبارها من نسج الخيال ، شأنها فى ذلك شأن الكثير من قصص أهل الفنون، لولا ما ثبت من صدقها فى الأعوام التالية ، وما أدت إليه من أحداث بعضها مستمر إلى يومنا هذا (٢٠٠٠) ، ولكننى كنت فى دروس الترجمة - ولا أزال - أنسى الدنيا وما فيها ، إذ حل الظلام وأضيئت أنوار قاعات الدرس ، وفى نحو السابعة مساءً طرق الباب عم محمد شهاب ، فراش القسم ، وقال لى ماذا تفعل ؟ المظاهرات فى الشوارع ، والدنيا مقلوبة ! فأنهيت الدرس فورًا وسمحت للجميع بالانصراف، ثم مررت على والدى ووالدتى للاطمئنان عليهما ، فوجدت أخى مصطفى أيضًا الذى قال لى إن المتظاهرين يخلعون بلاط الشوارع ويقذفون أعمدة الإنارة بالأحجار ، فعدت إلى المنزل ، فلم أجد أخبارًا فى الإذاعة والتليفزيون عما يحدث ، باستثناء ندوة اقتصادية بين كبار علماء الاقتصاد والقانون .

وفى الصباح ، سمعت أن الحكومة قد فرضت حظر التجول اعتبارًا من الساعة الواحدة ظهرًا ، وكنت آنذاك فى السيارة الصغيرة ، حين قطع المذيع الأغنية ليذيع القرار ، وكنت قد وصلت إلى قرب ميدان الدقى ، فأوقفت السيارة فى شارع التحرير (غربى الميدان) وخرجت لأنظر فوجدت حشدًا هائلاً من البشر الذين يصيحون ويصرخون ، بعضهم يجرى فى اتجاه الجيزة ، وعددًا من الصغار يجرون نحوى خوفًا وذعرًا ، وجاءنى أحدهم وهو يبكى ويقول "لقد خطفوا البلوفر !" فأيقنت أن الشغب جاد ، فعدت إلى السيارة وعدت أدراجى ، وظللت أستمع إلى الإذاعة حتى اقترب موعد حظر التجول ، وصدرت البيانات الرسمية عن أعمال الشغب ، وكنت أقف فى صيدلية "الصفاء" القريبة من منزلنا ، فقال لى الدكتور إننا يجب أن نعود إلى بيوتنا ، فلا يعلم إلا الله ما يكون من أمر تلك الثورة .

كان الإحساس بالعزلة غريبًا فى مصر ، إذ خرجتُ إلى الشرفة لأرقب المارة والسيارات فلم أجد أحدًا على الإطلاق ، وفى نحو الساعة الرابعة وصلت سيارة مصفحة بها جنود ومدافع رشاشة فوقفت عند تقاطع شارعنا (شارع دمشق) مع الشارع الرئيسى (شارع سوريا) وظل الهدوء مخيمًا حتى أَظْلَمَتْ الدنيا ، واستأنست بالتليفزيون الذى كان يذيع فيلما من أفلام عبد الوهاب القديمة ، وكان المذيع يقاطع الفيلم بين الفينة والفينة ليذيع بيانًا أو بلاغًا ،

وعندما حان موعد نشرة الأخبار ، ذكر التليفزيون أن الرئيس السادات عاد من أسوان لمتابعة الموقف وأنه سيلقى خطابًا فى اليوم التالى .

وسرعان ما رُفع حظر التجول ، وعَدَلَتْ الحكومة عن رفع أسعار بعض السلع . ولكن الرَّجَّة التى أحدثها خروج الجماهير إلى الشوارع كانت عنيفة ، وحدستُ أنها لن تمر بسلام ، وتبارى المحللون السياسيون وكتاب صحف المعارضة الوليدة فى تقديم تفسيراتهم ، وكان بعضها يؤيد ما قاله السادات فى خطابه من أن تلك الفورة لا تعدو كونها بعض أعمال الشغب الإجرامى ، وبعضها يصفها بأنها ثورة شعبية على الحكم ، وعلى رئيس الدولة تحديدًا ، فأسموها انتفاضة شعبية ، وأسماها السادات "انتفاضة الحرامية" . وقَدَّمَتْ بعض الدول العربية الغنية بعض الأموال إلى مصر لإغاثتها فى تلك المحنة الاقتصادية وقد اتضح للجميع أنها ليست أزمة عابرة ، وأن أحداث المستقبل لابد أن تكشف الكثير عما وراءها .

وكان من عاداتى التى لم أقلع عنها منذ عودتى إلى انجلترا عادة الاستماع إلى الإذاعة المصرية والإذاعة البريطانية ، وخصوصًا إلى الخطابات السياسية (إذ كنت أترجمها إلى الإنجليزية من باب كسب الرزق) وكان اهتمامى بمتابعة تطورات الأحداث العالمية قد أصبح عادة مكتسبة ، والعادة - كما يقولون - طبيعة ثانية ، فلاحظت فى الخطابات التى كان يلقيها الرئيس السادات تغييرًا ما فى النبرة ، خصوصًا فيما يتعلق بالمساعدة المتوقعة من أشقائنا العرب الذين أصبحوا من أغنى دول العالم بعد تضاعف سعر النفط أضعافًا مضاعفة ، وكنت ألمح ضيقًا، فى خطاباته الجماهيرية ، وبَرَمًا بعدم تحقيق ما يبدو أنه وُعد به أو كان يتوقعه ، كما لاحظت أن سياسة الانفتاح - على كل مساوئها - قد سمحت بقدر من حرية التعبير فى الصحف (على الأقل) لم نكن نحلم به من قبل ، مما أتاح لى تطارح الآراء دون خوف مع أصدقائى المخلصين من المؤمنين صدقًا وحقًا بالاشتراكية ، وكنت لسبب غامض غير محسوب من أى طائفة إلا إذا اعتبرنا أن دراستى العربية المبكرة ، وإقامتى الطويلة فى انجلترا ، وارتباطى الشديد برشاد رشدى قد جعلنى أبدو أقرب إلى اليمين فى نظرهم منى إلى اليسار ، ولم أكن أكترث لذلك التصنيف آنذاك على أى حال ، فلست ولم أكن مفكرًا سياسيًا ، وإن كانت السياسة تفرض نفسها فرضًا على كل أديب مهما حاول التملص والتخلص !

ونتيجةً للمناقشات المستفيضة فى ربيع ١٩٧٧ ، عدت إلى مسرحيتى ، وقد اقترح المخرج العبقرى كمال يس - رحمه الله - تغيير اسمها إلى ميت حلاوة ، فأكملت الفصل الثالث الذى

أسخر فيه من نوع الفكر الذى يسمى اشتراكيًا ظلمًا ، وهو الشائع فى بلدان العالم الثالث التى لم يكتب لها أن تمر بمراحل التطور الاجتماعى الأوروبى الذى أثمر الاشتراكية المعروفة ، وكانت مصر قد أخذت بجانب منه ولم تأخذ بجوانب ، وكنت - كما سبق أن قلت - أسخر من سوء الفهم وسوء التطبيق ، ومن صور معروفة من صور الانحراف بالسلطة ، ومن ثم دعوت أصدقائى إلى جلسة فى منزلى بعد عودة نهاد من السعودية ، وكانوا تحديدًا سمير سرحان وعبد العزيز حمودة ، وفوزى فهمى ، ونهاد جاد زوجة سمير ، وكمال يس ، ونهاد زوجتى ، وقرأت عليهم المسرحية ، وبدا عليهم السرور ، ثم بدأت المناقشات التى انتهت إلى ضرورة تعديل الفصل الثالث ، وكانوا محقين تمامًا ، ولو أننى قررت آنذاك أن أضعها فى درج المكتب ريثما يأتى الخريف ويبدأ الموسم المسرحى .

الفصل الثانى



شغلت طيلة الصيف بترجمة البحث عن الذات إلى الإنجليزية . وكان الدكتور رشاد رشدى يتعجل الرئيس السادات للانتهاء منه ، فدعاه الرئيس إلى زيارته فى الاسكندرية للانتهاء من الفصول الأخيرة ، فنزل فى فندق فلسطين ، وكان يزوره فى استراحة المعمورة حتى تكتمل الشرائط التى يسجلها الرئيس بصوته ثم تتولى السكرتارية الخاصة تفريغها ، وبعد ذلك يقوم رشاد رشدى بتحرير النص وإعطائى الفصول لترجمتها ، وكانت نهاد زوجتى تكتبها على الآلة الكاتبة ، فإذا صَادَفتْ شيئًا لا يروقها نَبَّهتْنى حتى أعدّله أو أصحّحه ، قبل إرساله إلى رشاد رشدى .

وانتهى الكتاب فى أكتوبر ١٩٧٧، وكانت خطابات الناشر الأمريكى تعرب عن السعادة بالمادة المرسلة ، ثم تَحَدَّدَ موعدُ سفر رشدى إلى أمريكا للإشراف على الطباعة ، وكان على مدار العامين السابقين يعانى من انزلاق غضروفى فى فقرات الظهر العليا عند العنق ، وكان ذلك يسبب له آلامًا مُبَرِّحة ، فانتهزها فرصة ليعرض نفسه على الأطباء فى أمريكا ، وفعلاً جاءنا فى منزل رشدى نص الكتاب بعد ملاحظات الرئيس السادات والتعديلات التى أدخلها بخط يده، وكان يستخدم الحبر الأخضر فيما يضيفه إلى النص ، وإن لم يحذف شيئًا، فعكفنا أنا والدكتور رشدى على مضاهاة النصّين العربى والانجليزى حتى نضمن تطابق التعديلات ، ثم أرانى رشدى الخاتمة التى كان كتبها بالعربية واختار لها العنوان الانجليزى Epilogue

وهو عادة ما نترجمه بتعبير "بعد إسدال الستار" ، ولكنه لم يرق له لأنه ينذر بأن قصة الحياة آذنت بالمغيب ، وظللنا ساهرين حتى الرابعة صباحًا ، هو يكتب العربية وأنا أصوغها بالانجليزية ، وليس معنا سوى مدام ثريا زوجته ، وعندما انتهينا من الخاتمة باللغتين نهضتُ للخروج ، ونهض لوداعى ، وبعد أن غادرت الشقة خطر لى خاطر فعدت أطرق الباب ، ولما فتحه لى بنفسه قلت له فلنقل "وبعد" فحسب ! فبدا عليه الارتياح وعدت إلى المنزل مع تباشير الصباح الأولى .

وبعد أن سافر الدكتور رشدى تطورت الأحداث سريعًا ، إذ أعلن السادات اعتزامه زيارة القدس لصلاة العيد (عيد الأضحى) فى المسجد الأقصى ، وهو ما أصبح يسمى بالمبادرة ، واتصلت بى السكرتارية الخاصة للرئيس ، وحُدّد لى موعد فى أوائل ديسمبر ، حيث تسلمت شريطًا عليه تسجيل صوتى للرئيس لفصل جديد يضاف إلى الكتاب العربى ، وطُلب منى أن أترجمه وأرسله عن طريق السكرتارية إلى رشدى فى أمريكا . وفعلت ذلك ، فأرسل لى رشدى من أمريكا نصًا جديدًا للخاتمة بالانجليزية وطلب منى أن أضاهيه بالنص العربى القديم وأن أدرج الإضافات الانجليزية بالنص العربى وأسلمه إلى الحاج أحمد يحيى ، ناشر النسخة العربية ، وصاحب المكتب المصرى الحديث ، دار النشر المرموقة .

ولم يصدر الكتاب باللغتين إلا فى إبريل ١٩٧٨ ، ولكن مجلة **Time** نشرت مختارات من الفصول الأولى للكتاب قبيل النشر الرسمى ، وجعلت أقارن النص المنشور بالمخطوط الذى أحتفظ به ، فعجبت من أن المحرر الأمريكى لم يغير حرفًا واحدًا ، بل لم يقرب علامات الترقين (أى الفواصل والنقاط وما إلى ذلك) وزاد من دهشتى أنه حافظ على خطأ كنت أخطأته عندما ترجمت عبارة 'الحق والخير والجمال' فكتبت كلمة الحق بحرف كبير (كابيتال) دون الكلمتين الأخريين فإذا به يبقى على ذلك الحرف كأنما رأى فيه دلالة عميقة لم يشأ أن يجور عليها ، ولم تكن إلا سهوًا محضًا .

وعندما عاد رشدى وذكرت له ذلك أبدى الدهشة وقال إنه راجع التجارب الطباعية بنفسه ، ولكن السهو وارد فى كل حالة ! ولم يكن يعلم بسرّ الكتاب إلا قلة قليلة من المقربين إلى الرئيس - طبعًا - وإلى رشاد رشدى ، وأما أنا فلقد تقاضيت أجرى من الرئاسة وفقًا للقواعد المعمول بها ، وكان قد صدر القرار الجمهورى لعام ١٩٧٨ الذى يحدد سعر ترجمة الكلمة إلى الانجليزية بستة مليمات بدلاً من ٣ ، وكان المفروض أن يمنحنى الحاج يحيى -

رحمه الله - شيئًا مقابل تصحيح النسخة العربية حسب الاتفاق ولكنه تباطأ وتلكأ ، فطلبت منه أن ينشر لى نصًا مسرحيًا ، ولكنه تباطأ وتلكأ أيضًا وقال لى إن المسرح للتمثيل لا للقراءة، ولن يشترى النص أحد !

فى فبراير ١٩٧٧ عادت نهاد زوجتى من السعودية ، كما قلت ، بعد أن قطعت نصف مدة العقد للسنة الثانية أى بعد انتهاء الفصل الدراسى الأول ، وبدأنا نعيش حياة الأسرة التى افتقدناها منذ العودة من انجلترا ، ودخلت ابنتنا سارة مدرسة بورسعيد بالزمالك (مانور هاوس سابقًا) ولم توافق مارى سلامة الناظرة على قبولها إلا بعد أن اتفقت مع نهاد على العمل فى المدرسة لتدريس الأدب لتلاميذ الثانوية العامة ، وكنت أتولى اصطحاب سارة إلى المدرسة بسيارتى الفيات (١٢٨) الصفراء ، ولم يلبث أن عاد سمير وحمودة من السعودية فى عطلة صغيرة فى منتصف الفصل الدراسى الثانى (فى أول مارس ١٩٧٧) ثم عادا لاستكمال العام الدراسى ، وظللت وحدى أعمل فى كتاب السيد الرئيس ، بعد أن انتهيت من كتاب مصطفى محمود (الماركسية والإسلام) وسلمته المخطوط ، ولكنه قال إنه كتاب صغير ويود إضافة كتاب صغير آخر إليه هو لماذا رفضت الماركسية ، فترجمته بسرعة ، وأذكر أننى عندما ذهبت لتسليمه المخطوط الجديد وتسلم المكافأة على الكتابين معًا ، كان معى صديقى المستشار أحمد السودة ، وكنا فى منزله بالزمالك ، وسألنى عن الأجر المطلوب (وفقًا للقرار الجمهورى القديم) فقلت له ٢١٢ جنيهًا ، فدخل غرفة من غرف المنزل وعاد بمائتين وقال هذا يكفى ، وانصرفنا .

كنت عندما سافرت إلى دار السلام ، للمشاركة فى ترجمة وثائق منظمة الوحدة الافريقية أتقاضى فى اليوم نحو سبعين دولارًا ، وكان الدولار له سعران ، سعر رسمى وسعر تشجيعى فيما يسمى بسوق الصرف الموازية ، أما السعر الرسمى فهو أربعون قرشًا ، وأما التشجيعى فهو يزيد على ٦٧ قرشًا ، وكانت له سوق سوداء كذلك ، ولكننى كنت أفضل تغيير الشيكات السياحية من البنك ، ومعنى ذلك أن العمل فى ترجمة المؤتمرات كان مجزيًا على عكس ترجمة الكتب مهما كان كرم أصحاب العمل .

وكما سبق أن ذكرت كان عام ١٩٧٧ عام الاستقرار ، أو قل عام الحياة الجديدة التى كتب علىّ أن أعيشها ما بين الترجمة والتأليف ، وفى مارس ١٩٧٧ اتصلت بى وزارة الخارجية وأبلغتنى أننى قد أُخْتِرْتُ للعمل بالترجمة فى مؤتمر عدم الانحياز بالهند ، وبسرعة البرق

أنهيت الإجراءات الخاصة بالسفر ، وكان ذلك فى أواخر مارس ، لمدة أسبوع ، وهناك عملت مع صديقتى القديمة عصمت عبد المجيد نصر ، زوجة أحد أقربائى ، وهو جهاد الميقاتى، وكان معنا من المترجمين محمد عبد النبى (اللغة الفرنسية) ومن الفوريين رفعت شلتوت ود. خلف الله عبد الغنى ، وعلى أبو شادى كبير مترجمى الأمم المتحدة ، وكان المؤتمر عملاً متصلاً ، وإن كان نطاقه محدودًا ، فهو ليس مؤتمر قمة بل مؤتمر دول لجنة التنسيق للحركة فقط، ولكن زيارة الهندكانت ممتعة ، وأوحت لى بقصيدة لم تنشر إلا عام ٢٠٠١ !

فى الهند قابلت صلاح عبد الصبور الذى كان يعمل مستشارًا ثقافيًا ، وقابلت أحمد الإبراشى الذى كان ملحقًا إعلاميًا ، ولكن أوقاتنا كانت محدودة ، بسبب ضغط العمل ، ودعانا القنصل يسرى لحفل عشاء فى السفارة ، ودهشت عندما قدم نفسه لى قائلاً إنه أحد تلاميذى القدامى ! وفى منزل صلاح عبد الصبور قضينا ليلة رائعة فكان ينصحنا على المائدة بالإكثار من أكل اللحم بسبب رخص سعره والإقلال من الأرز بسبب غلائه ، وأسمعنا هناك بعض قصائده وناقشنا الأحوال الأدبية فى مصر ، وفى الصباح ، وكنا آخر مارس أو أول إبريل، جاءنا من يقول إن عبد الحليم حافظ قد توفى ! كانت آخر ليلة نقضيها فى الهند ، وفى صباح يوم السفر ، تأخر 'فوزى' وهو كاتب على الآلة الكاتبة (من وزارة الخارجية) فذهبت إلى غرفته أستطلع الأمر ، فإذا به يجاهد لكى يضع فى حقائبه ما بقى من الكعك و'القُرص' لديه وكانت والدته قد زودته بكميات هائلة حتى تغنيه عن إنفاق النقود فى الطعام فى الهند ، وكان قد بقى معه جوال (جوالق) كامل ، ولم يكن من الممكن بعدما اشترى من الهدايا لأسرته أن يرحل عائدًا إلى مصر ومعه ذلك الجوال ، فحاول حشرها حشرًا فى الحقائب دون جدوى ، فاهتدينا إلى حل معقول وهو ترك جانب منها للعاملين بالفندق ، وكان فندقًا متواضعًا أصحابه فقراء والعاملون فيه أفقر ، فوافق على مضض ، وجعل يجاهد كى يحشر ما تبقى فى حقائبه فى أكياس من النايلون .

كانت زيارة الهند تجربة فريدة، إذ كان نص الاتفاق التى عقدته مارى بنى (Penny) وهى 'المقاولة' الانجليزية التى تتولى تنظيم المؤتمرات الدولية ، يقضى بالاستعانة ببعض المترجمين المحليين، إلى جانب جهاز سكرتارية هندى خالص، بالإضافة إلى فريق الآلة الكاتبة العربية، وكان يتكون من أربعة هم فوزى المذكور ومحاسن ومديحة وفوزية، وهم جميعًا من العاملين فى وزارة الخارجية المصرية، ولذلك وجدنا معنا فى فريق الترجمة الانجليزية/

العربية شابًا فى أواخر الثلاثينيات من مسلمى الهند يدعى الأستاذ 'نقوى' وقد أوضح لنا أن اسمه ذو جذور عربية، فهو مشتق من النقاء، وكان يعمل أستاذًا للّغة العربية فى جامعة نيودلهى، ولم يكن فى فريقنا سوى عصمت وأنا، وكانت المادة المترجمة زاخرة، فأعطيته صفحة وبعض صفحة ليترجمها إلى الانجليزية وسمحت له بما يريد من وقت، ولكن عمل المؤتمرات لا يسمح بهذا الوقت فى العادة فترجمتها بنفسى (سرًا) على الفور وأرسلتها للطباعة والتوزيع ، وقلت لعصمت أن تتولى مراجعتها عندما يعود بها ، ثم شغلت بعد ذلك بالترجمة والمراجعة والتحرير حتى ساعة متأخرة ، وعدنا جميعًا إلى الفندق ، دون أن يظهر للأستاذ 'نقوى' أثر.

وفى اليوم التالى، وفى نحو الساعة الثانية عشرة ظهرًا، ونحن نستعد للانتهاء من أعمال جلسة الصباح، دخل الأستاذ 'نقوى' ومعه النص المترجم، وقدمه إلى عصمت، وكانت عصمت ولا تزال ذات نفس صافية صادقة لا تعرف المداورة ولا المراوغة، وتعبر عن رأيها دائمًا بصراحة تامة ، وتضحك مما يغيظها مثلما تضحك مما يسعدها، ولم تمض دقائق حتى سمعتها تقهقه وتصرخ، فأدركت أن الأستاذ نقوى قد 'لبّخ' تلبيخًا شديدًا، فتناولت الورقة منها بسرعة واصطحبته خارج الغرفة ، وأوضحت له أخطاءه، وشكرته على مجهوده، ثم أعطيته نصا انجليزيا هذه المرة وطلبت منه الانصراف. وعندما عدت إلى الغرفة كانت عصمت ساكنة ذاهلة، فسألتها ما الخبر فقالت: هل هذا هو أستاذ اللغة العربية هنا ؟ وفى الجامعة ؟ قلت لها ربما لا يكون أفضل من عندهم، ولكننى كنت مقتنعًا فى أعماقى بأن العربية لا تنتمى إلا لأبنائها، وقد تأكد ذلك عندما عاد الأستاذ نقوى فى اليوم التالى بالنص العربى، إذ كان عدد الأخطاء التى أخطأها مذهلاً، ولو كنا صدقناه وسمحنا له بالعمل رسميًا معنا لجلب لنا المصائب، إذ اختلطت عليه بعض المعانى مثل 'الضفة الغربية' West Bank (التى ترجمها بالبنك الغربى) و'التسوية السلمية' Peaceful settlement إذ ترجمها بالمستوطنة السلمية، ولا أدرى ما عساه أن يحدث لو قلنا إن البلدان العربية تطالب بمستوطنة سلمية فى الشرق الأوسط!

وقبل رحيلنا بيوم اشتريت عقدًا من لآلئ المياه العذبة (fresh water pearls) بثمن زهيد ، ومعظم أسعار الهند زهيدة ، ولكن الدُّر غير مثقوب ، وقد نصحنى صاحب الدكان أن أستأجر شخصًا لثقبه ونظمه (أى وضعه فى دوبارة أو خيط من النايلون) فطلبت من يفعل ذلك فجاءنى ، وكان من 'الفقراء' الهنود حقا وصدقًا ، وصحبته إلى الغرفة وكان نحيل

الجسد ضئيل الجرم يتكلم انجليزية بدائية ، وحاولت الاحتفاء به فطلبت له الشاى ، ولكنه قال إنه يعبد الماء ، وتصورت أنه يستخدم الفعل استخدامًا استعاريًا ، فقدمت له كوبًا من الماء البارد . وإذا به يقعى ثم يركع ركعة تقترب من السجود ، ويستغرق فيما يشبه الغيبوبة حتى خفتُ عليه ، ولكنه سرعان ما أفاق ، وقال لى معتذرًا إنه كان يصلّى لإلهه وهو الماء ، ثم تجرع ما فى الكوب وبدا عليه الانتعاش لأن روح الإله - فى عقيدته - قد تملكته ، فأمكنه إنجاز العمل بسرعة ، وخرج .

وعندما عدت إلى مصر سمعت أن السادات قد عاد من رحلة خارج البلاد ، وكان يتوقع من الصحف تغطية أنبائها ، ولكن الصحف كانت تحمل صور الراحل عبد الحليم حافظ ، وكان الحديث فى كل مكان يدور حول الراحل العظيم ، إلى جانب أنباء كارثة طيران مروعة فى جزر الكنارى ، راح ضحيتها ٥٧٤ شخصًا (٢٨ مارس) وبعض الأنباء التى كان البعض يتناقلها دون اهتمام مثل التحول الماركسى فى إثيوبيا بعد ثلاث سنوات من الإطاحة بالزعيم القديم هيلا سلاسى ، إذ كان منجستو يقبض على البلد بيد من حديد والحرب الأهلية فى أنجولا لا يهدأ لها أوار ، وتولى حكومة جديدة فى الهند بعد هزيمة إنديرا غاندى فى الانتخابات ، والعالم يبدو فى تغيّر مستمر . ولكننى كنت على المستوى الشخصىّ سعيدًا بعودة سمير سرحان وعبد العزيز حمودة عودة نهائية من الإعارة فى السعودية ، واهتم كل منهما بشئون الاستقرار ، وذهبت أنا وزوجتى وابنتى لقضاء أيام معدودة فى شاطئ المعمورة ، وزرنا رشاد رشدى فى فندق فلسطين ، وذات يوم شاهدت لديه عايدة شعراوى (الدكتورة) زميلتى القديمة ومعها نسخة من أحد فصول رسالتها للدكتوراه ، وكان رشدى يقتنص الوقت المتاح له أثناء كتابة نص البحث عن الذات ، لقراءة ما يأتيه به الطلاب .

وعندما عدنا إلى القاهرة وجدنا إعلانًا نشرته أكاديمية الفنون للعمل فيها ، وكانت الشروط تنطبق على نهاد زوجتى فقدمت أوراقها ، وانتظرنا بداية العام الدراسى حتى يُبَتَّ فى الطلب ، وكان المطلوب الحصول على الماجستير فى الأدب الانجليزى ، وكانت قد حصلت على هذه الدرجة من جامعة ساكس Sussex فى انجلترا ، وتخصصت فى الدراما والرواية ، ومن ثم كانت فرصتها كبيرة عند المفاضلة مع غيرها ، خصوصًا لأنها حصلت على درجة الليسانس الممتازة ، بمرتبة الشرف ، فى الأدب الانجليزى من جامعة القاهرة .

ولا يفوتنى أن أذكر هنا أن بنات السيد الرئيس الثلاثة لبنى ونهى وجيهان ، كن قد

التحقن بقسم اللغة الانجليزية لدينا ، وكانت السيدة الأولى جيهان السادات قد انتهت من دراستها بقسم اللغة العربية وحصلت على تقدير ممتاز . كانت البنتان الكبريان تنجحان بسهولة ، فهما تتمتعان بالذكاء والاجتهاد معا ، فكانتا تحصلان على تقدير جيد كل عام ، أما الصغرى فكانت غير مجتهدة ، وكانت تنتقل بمواد 'تخلف' من عام إلى عام ، وفى العام التالى (٧٨ - ٧٩) رسبت فى أربع مواد فعادت السنة الثالثة كلها باعتبارها 'باقية' والحق أن أحدًا منا لم يتعرض لأى ضغوط حتى يساعدها . ولو أننى علمت أن بعض أساتذة القسم كانوا يُستدعون إلى منزل الرئيس فى الجيزة لشرح بعض ما قد يستعصى على الطالبات .

كنت قد وطنت النفس على أن أحاول كتابة مسرحية جديدة ، وكانت خبرات السفر فى المؤتمرات قد بدأت تمدنى بزاد لا بأس به من المادة الإنسانية ، ولكننى لم أكن قد نشرت كتبًا تحمل اسمى بعد عامين من العودة ، وباستثناء ترجمة كتاب مصطفى محمود الذى ظهر بالانجليزية عام ١٩٧٧ ، إلى جانب الترجمات التى كنت أنجزتها لمجلة 'المسرح والسينما' (يوسف جوهر) ومجلة فنون (سعد الدين وهبة) والتى حضنى على الانتهاء منها صديقى أمير سلامة الكاتب المسرحى والناقد النابه الذى عمل معى بعد ذلك سنوات طويلة مديرًا لتحرير مجلة المسرح ، وتوفى عام ٢٠٠١ (رحمه الله) فبكيت فيه دماثة الخلق وحلاوة المعشر، لم أنشر شيئًا يذكر ولم أحقق شيئًا مما أصبو إليه ، واستسلمت للقدر وأنا أترجم البحث عن الذات ، فهو عمل ربما لن يحمل اسمى (بخلاف كتاب مصطفى محمود) بل ولا اسم رشاد رشدى بطبيعة الحال ، واجتهدت - كما سبق أن قلت - حتى انتهيت منه فى أكتوبر ، ووضعت همى بعد ذلك فى تأمل مواقف وشخصيات تصلح لمسرحية جديدة لا يكون مصيرها مثل مصير ميت حلاوة التى وضعتها فى الدرج وقررت تجميد موقفها حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً .

ولكن بداية عام ١٩٧٨ كانت تختلف اختلافًا تامًا عن أواخر العام المنصرم . كان 'حسن' (المخرج) قد اختفى اختفاء مفاجئًا من الأكاديمية ، والحق أننى لم أكترث لاختفائه ، وعللتُ ذلك بأنه ربما ترك مصر فى إعارة إلى بلد عربى ، وكنت مشغولاً بما أكتب وما أترجم، وإن كنت أحيانًا ما أعجب مما يفعل ، وأجد فى مغامراته تسرية عن الهموم التى أتحملها فى الكتابة وفى الترجمة جميعًا ، وكنت كثيرًا ما أتذكر قصصه فأقول فى نفسى ويلٌ للشجىّ من الخلىّ ، فهو مثال الفنان الخالى البال ، إذ تعلم من الحياة المسرحية والسينمائية ألا يرهق نفسه بالتفكير ، وأن يلقى خلف ظهره بأية هموم قد تنشأ من الصدام مع واقع يؤلمه ، وأن

يركز على اللحظة الراهنة فيعيشها بعمق بعد أن يضفى عليها من خياله ألوانًا وظلالاً تجعلها ذات سحر أخّاذ ، وفى شتاء ٧٧ - ١٩٧٨ ، كان استقرارنا العائلى قد حدد لى نمطًا جديدًا من الحياة يتناقض تمامًا مع حياة 'حسن' بل كنت على وشك أن أنساه حين وجدته ذات يوم جالسًا فى غرفة الأساتذة بالمعهد العالى للفنون المسرحية !

وكنت على وشك الانصراف بعد التوقيع فى دفتر الحضور حين لمحته ولم أصدق عينىّ ، إذ كان يرتدى ثيابًا فاخرة وشبه 'رسمية' ، وكان يمسك غليونًا غير موقد ، وإن كانت ترين على وجهه سحابة حزن تنم عن انشغال غير معهود فيه بفكر أو همّ دفين ! وعندما التفتُّ إليه وخاطبته مُرحِّبًا نهض بخفة ورشاقة فرد التحية وتبادلنا السلامات ودون وعى خرجنا معًا من الغرفة ونحن نتبادل بعض أحاديث 'السمر' (small talk) حتى وقفنا على سُلّم المعهد ، فاقترب منا شاب أزرق العينين يدعى 'محمد الأزرق' ، وكان معيدًا بالمعهد ويتابع دراسته فى المعهد العالى للنقد الفنى ، كما كان مرشحًا لبعثة فى الخارج ، فسلّم علينا وحادثنا فى أمر بعثته كأنما ليصل بذلك حديثًا كان قد انقطع منذ هنيهة ! وقلت فى نفسى إن هؤلاء الفنانين لا يشعرون بالزمن، فالاستغراق فى الحاضر يجرفهم دائمًا إلى ما لا يبتعد به الزمن عن آخر اليوم أو الغد على أقصى تقدير، وهم دائمًا ما يدورون فى دوامات المشروعات الفنية التى قد لا تتحقق أبدًا، ولم نكد نؤكد له ضرورة معرفة لغة البلد التى سيدرس فيها، ونحن فى أعماقنا نتلهف على الرحيل - فأنا أريد أن أعرف أخبار 'حسن'، وهو يريد أن يطلعنى عليها - حتى تجمع عدد من الطلاب والمعيدين ، كان من بينهم توفيق عبد اللطيف المعيد وعبد الرحمن عرنوس المدرس بالمعهد ، وبعض الفتيات ، فاعتذرت للجميع بمشاغلى وانسحبت برقة، وإذا بحسن يعتذر بسرعة هو الآخر ويلحق بى عند أسفل السُّلّم قائلاً إن لديه ما يريد أن يقوله.

وسرنا معًا حول مبنى المعهد إلى الكافيتريا حيث شمس الصباح الدافئة ، واشترينا الشاى وجلسنا فقال لى 'حسن' إنه قد عاد لتوه من الاتحاد السوفييتى بعد الحصول على الدكتوراه! وكان يعرف أننى سوف أدهش لذلك فوعدنى بالحديث التفصيلى فى كيفية تدبير ذلك (فى وقت لاحق) قائلاً إنه يفضل الآن أن يحكى لى عن مشروعاته بعد 'التأهل'، وكيف أنه نادم على السنوات التى قضاها فى الغرب، وكيف أن الاشتراكية تقدر الفن والفنانين حق قدرهم، إلى آخر هذا الكلام المعروف ، ومن ثم اقترح علىّ أن أكتب له مسرحية فكاهية، حتى ولو كانت 'مقتبسة'، حتى نهز الدنيا هزا ، كما قال ، لأنه يتطلع إلى موقع مرموق فى مصر!

والغريب أننى صدقته ، على الرغم من يقينى بأنه 'خدن أوهام' - كما يقول الشاعر - وفرحت بما عرضه علىّ من أسماء النجوم التى يريدها أن تلعب الأدوار الرئيسية ، بل وبدأت أفكر فى النصوص العالمية التى يمكن إعدادها بحيث تمثل الفن الراقى وترضى الجمهور فى الوقت نفسه ، فقلت له ما رأيك فى حلم ليلة صيف ؟ فاعترض على الفور ، وقال إن شيكسبير لا يصلح فى مصر ، فأخذت أستعرض معه أسماء ما أتصور أنه يصلح من مسرحيات موليير إلى هزليات جورج فيدو ، وهو يعترض على الواحدة بعد الأخرى ، حتى وصلنا إلى نويل كاوارد البريطانى فقال إنهم أنهكوه اقتباسًا ، ولكنه يتصور اقتباس مسرحية مثل ملهاة غرفة النوم للكاتب البريطانى ألان إيكبورن ولم أكن قرأتها فدهشت لإحاطته بهذا النص ، وتصورت من العنوان أن به ما لابد أن يثير الرقابة ، فوعدته بقراءتها والاتصال به بعد ذلك . وبدا لى أننا على وشك إنجاز شىء ما ، ففرحت وحاولت النهوض ولكنه استبقانى وقال إن لديه طلبًا خاصًا ، فتوقعت طلب النقود ولكنه قال إنه يريد أن يُعيّن أستاذًا فى الأكاديمية وإن مستقبله معلق بتحقيق هذا الحلم ، وإنه يعرف أننى لو كلّمت رشاد رشدى فسوف يستجيب ، وقلت له إننى سوف أخاطب د. رشدى فى هذا الموضوع بعد عودته من أمريكا ، لكننى لا أستطيع أن أعده بشىء محدد ، ونهضنا ، وقال لى ونحن فى الطريق إلى سيارتينا : ''على فكرة .. زوجتى تسلّم عليك ..'' وفهمت أنه يشير إلى الممثلة الشهيرة ، فسألته عن أخبارها فقال ''أبدًا .. إنها حامل !'' ووقفت مذهولاً وكأنما لمح فى عينى شبه استفهام عن 'خطيبته' (الراقصة) فأسرع قائلاً ''قصدك اسمها إيه ؟ لا .. دى سافرت مع الفنون الشعبية للعراق ولا تريد الرجوع !'' وساد صمت قصير قال بعده ضاحكا ''لكن فيه غيرها ! لابد من تعدد القنوات !'' ولم أستطع تمالك نفسى من حب الاستطلاع ، فهذا رجل لا يهدأ ولا يكلّ ولا يملّ، فسألته مباشرة عن هذه الجديدة ، فقال إنها لا تزال 'مشروعا' وإنها تعلم أنه متزوج وتعرف كل شىء عن طباعه ، أى إنها تدخل الطريق 'مفتوحة العينين' . وسألته إن كان ينتوى الاقتران بها ، فقال نحن مقترنان فعليا ولا ينقصنا إلا شقة مناسبة ! ثم تكلم فى شبه تأمل حزين قائلاً : ''الموضة اللى طالعين فيها اليومين دول يا سيدى .. اكتب لى ورقة ! كأن الورقة دى سر الحياة !'' وأفهمته أننى أختلف معه فى نظرتى للمرأة ، فرد بسرعة ''يا حبيبى افهمنى ! تقنين العلاقة يقتلها .. وأنا مع برتراند راسل فى 'الحب الحر' (free love) .. إذا وضَعَتْ قيودْ عليه تبقى قتلته .. وأستاذك رشدى بيقول إن الحب شعلة لازم

تنطفى .. المهم أنك تولّع شعلة تانية.. وبسرعة ! وخرافة إن القلب لا يتسع إلا لواحدة لابد من قهرها ! وبعدين التغيير هو سنّة الحياة ..'' وقلت له إنه لا يقبل ذلك مع زوجته ، فكيف يقبله لنفسه ، وقال وهو يركب السيارة ''أنت بريطانيا أثرت عليك أكثر من اللازم .. بكرة أثبت لك وجهة نظرى ! بس انت شد حيلك وكلم رشدى !'' وانطلق بالسيارة .

وكنت أنتوى أن أفاتح رشاد رشدى فى الموضوع فعلاً لولا أنه عندما عاد كانت فى انتظارى تقلبات فى العلاقة لم أكن أتوقعها .



لا أدرى أسباب الجفوة المفاجئة التى حدثت فى دائرتنا الضيقة (inner circle) بعد عودة رشاد رشدى من أمريكا ، ويبدو أنها أسباب ترجع إلى الأكاديمية، إذ كان رشدى قد أحاط نفسه بعدد من الموظفين المداهنين مثل حسين مهران، وأحمد الفخرانى، وعاصم عباس، وغيرهم ممن كانوا يوحون إليه بضرورة التخلى عن أبنائه القدامى (ثلاثتنا - سمير وحمودة وأنا) وبالانقضاض على أساتذة الأكاديمية بيد من حديد، ولم يكن رشدى - للحق والتاريخ - يصغى إلى نصائحهم دائمًا أو يعمل بها، ولكنه لا شك قد تأثر فى إدارة الأكاديمية بآراء مستشاريه، فبدأ الصدام بينه وبين فوزى فهمى وإبراهيم حمادة ، وكانا عميدين للمعهد العالى للنقد الفنى وللمعهد العالى للفنون المسرحية (على الترتيب) ، ولما كان قد استصدر من رئيس الجمهورية قرارًا جمهوريًا بمد العمل له رئيسًا للأكاديمية أربع سنوات (من ١٩٧٦ - ١٩٧٩) وذلك بعد سن المعاش (التقاعد) الذى كان بلغه قبل سنوات فقد زيّن له مستشاروه اتخاذ قرارات فردية أغضبت الأساتذة، وكان أكبر صدام له مع إبراهيم حمادة (رحمهما الله) إذ كان كل منهما ذا ذات منتفخة، وكان كل منهما يتمتع بثقة لا متناهية فى نفسه . وكنت أتصور بعد العمل الذى جمعنا فى الكتاب وما يسمى 'بعشرة العمر' القديمة ألاّ أجد نفسى طرفًا فى هذا الصراع، ولكننى أحسست بجفاء لا يمكن أن تخطئه العين تجاهى، وشعرت بأن بعض الأيادى تعمل فى الخفاء على التفريق بيننا. حتى كان كأنما يتحاشى النظر إلىّ داخل الكلية، ووصلت الأمور - لا أدرى كيف - إلى ذروة عجيبة، إذ استصدر هؤلاء منه قرارًا يقضى بمنعى

من التدريس فى أكاديمية الفنون يوم ١٧ مايو ١٩٧٨ ولم يكن قد بقى على انتهاء العام الدراسى إلا أيام معدودة ، وعندما ذهبت إلى محاضرتى فى ذلك اليوم قال لى زكى معاون المعهد " آسف! لدىّ قرار بمنعك من الدخول من باب المعهد العالى للنقد الفنى!" والتفّ الطلابُ حولى وأرادوا أن ألقى المحاضرة فى الهواء الطلق ولكننى اعتذرت . وكانت المرارة شديدة، وعندما عدت إلى المنزل وجدت ما يدعو لمرارة أشد! لقد أرسلوا طلبًا إلى نهاد زوجتى برد مبلغ ١٠٢ جنيه مقابل الساعات الإضافية التى كانت قد عملتها فى المعهد العالى للفنون المسرحية طيلة العام الدراسى بحجة أن رئيس الأكاديمية لم يوافق على انتدابها للتدريس .

كانت أحوالى المالية مرتبكة فى تلك الأيام ، ولكن النجدة جاءت من السماء . إذ اتصل بى أمين بسيونى ، وكان رئيس صوت العرب آنذاك ، وقال إنه يريد حلقات إذاعية بعنوان الحب والحرب ، وسرعان ما كتبت أول خماسية عن أنطونيو وكليوباترا ، وتقاضيت آخر الأسبوع مبلغ ١٢٠ جنيها (من أصل ١٥٠ - ناقص الضرائب) . وسددنا الأموال . وأرسلت نهاد زوجتى إلى رشاد رشدى خطابًا شخصيًا تستنكر فيه ذلك الإجراء ولكن الأزمة كانت قد تخطت الحل ، إذ قام الزبانية بإحالة فوزى فهمى إلى التحقيق فى النيابة الإدارية . واستدعيت أنا وسمير سرحان للشهادة فى القضية ، وكانت التهمة هى تغيير المناهج دون استئذان ! وبطبيعة الحال أوضحنا الحقيقة لوكيل النيابة ، فأمر بحفظ القضية ، ولو أن 'الجماعة' لم يسكتوا وظلوا يمارسون تخريبهم فى الظلام .

بذل البعض عدة محاولات للإصلاح ، وأذكر أننا اجتمعنا أنا وسمير ورشاد رشدى فى غرفته القديمة بقسم اللغة الانجليزية ، وتصافينا تصافيًا عاطفيًا ، وقال له سمير إن طباعنا تختلف عن طباع هؤلاء الموظفين ، وقالها بالانجليزية مستخدمًا تعبير (our chemistry) وضحك رشدى وإذا بالباب يفتح ويدخل الفخرانى الذى كان فارع الطول أصلع الرأس . ووراءه مهران وعباس ، فكان ذلك إيذانًا بانفضاض الاجتماع ، فلم يكن هناك ما يرجى تحقيقه فى وجودهم.

وشهد عام ١٩٧٨ حادثة غريبة ، وأكاد أقول فريدة ، إذ كان الخلاف قد دب بين وزير الثقافة والإعلام آنذاك عبد المنعم الصاوى وبين سعد الدين وهبة . وقيل إنه بسبب التنافس فى انتخابات مجلس الشعب ، ولكن الوزير استصدر قرارًا قضائيًا بإنهاء عمل سعد وهبة أى

إحالته إلى المعاش ، وكان وكيلاً أول لوزارة الثقافة ، وكذلك زوجته سميحة أيوب ، بتهم تتعلق بإدارة وإنشاء شركة خاصة للإنتاج الإعلامى والثقافى (أى الفنى) هى شركة 'فجر' . وفى آخر ليلة من ليالى عرض مسرحية ست الملك بالمسرح القومى (تأليف سمير سرحان) وكانت سميحة أيوب تلعب دور البطولة فيها ، وقفت على المسرح بعد خاتمة المسرحية تخاطب الجمهور وألقت مونولوجًا جعل الأيادى تلتهب بالتصفيق لها والغضب من قرار إحالتها إلى التقاعد .

وشجعنى تقديم مسرحية ست الملك على أن أتقدم إلى هيئة المسرح بمسرحية ميت حلاوة، وكان كمال يس متحمسًا لإخراجها ، وبدأت الخطوات التنفيذية ، فأرسل المسرح الحديث ، الذى كان يرأسه محمود عزمى ، نص المسرحية إلى الرقابة ، وذهبت إلى المسرح الذى كان مكانه فى مسرح الجمهورية الحالى ، فقابلنى مخرج يدعى جمال الشيخ ، وقال لى أنا بصراحة ضد هذه المسرحية ! وسألته عن السبب فقال إنها ''ضد السادات !'' وأنكرت ذلك بشدة وقلت له كيف انتهيت إلى تلك النتيجة العجيبة ؟ فقال إن 'غريب' بطل المسرحية هو الرمز الحىّ للسادات ! وانطلق يقول ''إنه غريب عن الثورة ، وهو إذن رمز الانتهازى الذى يدمر تركيبة الجمعية التى ترمز بها إلى الثورة !'' وقلت له إن ذلك تفسير غير مقبول ولا مبرر له إلا فى ذهنك ! وانصرفت مغضبًا ، وبعد أيام معدودة قابلت المخرج رشاد عثمان الذى كان يريد إخراج المسرحية وقال لى ''الْحَقْ ! الرقابة رفضت النص !''

وأهرعت فى صباح اليوم التالى إلى منزل سمير سرحان القديم فى روكسى بمصر الجديدة، وأبلغته ما سمعت ، وكنت مهتاجًا ثائرًا ، فقال لى هدّئ روعك ! سوف نمضى معًا إلى الرقابة ! وخرجنا إلى رقابة المصنفات الفنية فى الطابق الثالث بمبنى جريشام الذى تقع فيه هيئة الاستعلامات ، وبمجرد أن سألْناه عن النص قيل لنا ''آه ! المسرحية المرفوضة ؟'' وكانت تلك الكلمات كالسهام فى جانبى ، ولكننى تذرعت بالصبر ، ودخلنا إلى مكتب مدير الرقابة ولا أذكر من اسمه إلا 'رضوان' ، فرحب بنا ، وكان فى المكتب محمد شيحه (الدكتور) وسيدة فى مقتبل العمر تدعى فاطمة ، وناقشناه فى أسباب الرفض ، فَأَطْلَعَنا على التقرير الختامى وتقارير الرقباء الستة ، وأهمهم ممثل يدعى محروس الجارحى ، وكان قد كتب يقول إن المسرحية 'ضد النظام' وانتهى إلى العبارة التى هزّتنى هزًا ''ولو كانت هناك عقوبة أقسى من المنع لطبقتها على المؤلف !''

واستنكرت ما جاء فى التقارير وكان سمير سرحان ينصحنى بالتريث والهدوء، وأخيرًا قال رضوان ما يعتبره خلاصة التقارير ألا وهو أن المسرحية شيوعية! وغامت الدنيا فى عينىّ فعلاً وأحسست بدوار خفيف، حتى إننى لم أستوعب كل ما قاله سمير، إذ جعل يشرح لرضوان أن جمعية الصيادين التى هى جزء من الجمعية الزراعية والصناعية إلخ لا ترمز لشىء، وإنما هى معالجة ساخرة لسوء فهم الاشتراكية وتطبيقها تطبيقًا بالغ السوء، فقال رضوان: ولكنك لابد أن توضح ذلك فى النهاية بصريح العبارة حتى لا يختلط الأمر على الجمهور فيتصور أنك تؤيد هذا الضرب من الاشتراكية! فقال سمير: وهذا هو ما فعله عنانى فى آخر المسرحية فعلاً! فقال رضوان: أين ؟ فرد سمير بسرعة: لابد أن صفحة وقعت! والتفت إلىّ بسرعة وقال لى هل تذكر ما جاء فى تلك الصفحة يا عنانى ؟ وأدركت ما يرمى إليه فقلت بسرعة: نعم! فقال إذن اكتبها فورًا من الذاكرة! وأخرجت قلمًا من جيبى والتقطت ورقة من المكتب وبسرعة البرق كتبت صفحة 'الإيضاح' التى أستنكر فيها مساوى الفهم والتطبيق! وعندها ابتسم رضوان بسمة عريضة، وقال لمدام فاطمة أن تحضر خاتم الرقابة لإجراء اللازم، ولكنها قالت إنها تخصص سينما، وإن شيحة لديه الخاتم ، وفعلاً تم المطلوب وتمت كتابة خطاب موافقة الرقابة. وخرجنا بعد ساعات من التوتر وأنا أشعر بزهو انتصار نادر!

ولكن لجنة المسرح (فرقة المسرح الحديث) لم تأخذ برأى الرقابة ، وأحال محمود عزمى (تحت ضغط جمال الشيخ وغيره) نص المسرحية إلى الوزير للبت فى صلاحيتها للعرض . ولم يكن لى من سبيل إلى الوصول إلى الوزير ، وبينا أنا فى خضم هذه الحيرة وصلنى استدعاء من الدكتور محمود الشنيطى – رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب – للمساعدة فى ترجمة شىء ما ، وعندما دخلت المكتب قابلنى ضاحك السنّ ، وأعطانى الخطاب المطلوب ترجمته ، وعجبت من هذا الطلب ، فهو خطاب عادى والدكتور محمود يجيد الانجليزية ، ولكننى فعلت ما طلبه ، وما كدت أفعل حتى اقترب منى وجلس وجعل يقول فى شبه همس : 'إيه حكاية ميت حلاوة ؟' وفهمت على الفور أن ذلك هو الهدف الحقيقى للزيارة ، فاعتدلت فى مجلسى وحاولت استجماع جميع نقاط الدفاع عن النص وتنظيمها قبل عرضها – فهذه محاكمة ولا شك ! ولكننى قبل أن أتمكن من الردّ على ما توقعته من هجوم فوجئت به ينهض ويحضر ملفًا من درج مكتبه ويضعه بيننا على المنضدة قائلاً : ''فيه كام حاجة كده عايزة نظر..'' وانتظرت أن يعرض تلك الأشياء ، وبدأ يتصفح المسرحية المنسوخة فى المسرح على الإستنسل –أى

نسخة الإخراج لا النسخة التى كنت قدمتها للرقابة - ولم أستطع مقاومة التطلع إلى الخطوط التى وضعها تحت بعض العبارات ، ومضت ثوان مفعمة بالتوتر الشديد ، وبدا لى الانتظار دهرًا طويلاً ، أنقذنى منه رنين جرس التليفون . وما كان أشد دهشتى حين سمعته يقول : "أيوه أيوه فاهم ! ما هو معاى هنا ! يعنى انت مستعد تخرجها ؟ طيب طيب .." وضحك ضحكة كبيرة وهو يقول لى بعد أن وضع السماعة "ده كمال يس !" وحمدت الأقدار على التدخل فى الوقت المناسب . واستمر قائلا "براءة يا عم .. ممكن تبدأوا التجارب !"

كنت لا شك أشعر براحة عميقة ولكن حب الاستطلاع دفعنى إلى سؤاله عن "الأشياء" التى "فيها نظر" ، فقال "يعنى .. حاجات زى 'الوحدة الفكرية' .. والرمزية اللى ما لهاش لازمة .. ماله الحب والغرام والحاجات الحلوة .. ؟ ليه الرمزية بس ؟!" وألقى نظرة سريعة على النسخة الموضوعة على المكتب ثم قال "أنا عملت لك قائمة مؤقتة .. لكن ده مش تدخل ولا حاجة .. يعنى المخرج يمكن يطلب منك تعديل كلمة هنا وكلمة هناك .. وانت عارف الأحوال !" قال ذلك برقة لم أعهدها فيه ، ونهض ليعلن انتهاء المقابلة .

وخرجت سعيدًا ، فالدكتور محمود الشنيطى هو رسميًا نائب وزير الثقافة ، والوزير يثق فيه ثقة مطلقة ، ومعنى الموافقة أن الطريق أصبح معبدًا لإخراج المسرحية ، ولكن خاب ظنى كما سوف أشرح فيما بعد . يكفى أن أقول هنا إن صيف عام ١٩٧٨ كان يحمل المزيد من المفاجآت ، وكان أولها فى مايو حين جاءنى استدعاء من منزل الرئيس السادات ، فذهبت متوقعًا أن أُسأل عن بعض أمور قسم اللغة الانجليزية حيث تدرس بنات السيد الرئيس ، ولكن السيدة جيهان السادات استقبلتنى فى الصالون استقبالاً شبه رسمى ، وجاءت الفتيات فسَلَّمْن وخَرَجْن ، ثم فاتحتنى السيدة الأولى فيما عساها تدرسه للماجستير فى الأدب المقارن ، وفى مجال الشعر على وجه الخصوص ، قائلة إنها سمعت أننى متخصص فى الشعر الرومانسى الانجليزى ، وأننى ترجمت بعضه (وقد عرفت فيما بعد أن مصدر المعلومات كان مجدى وهبة رحمه الله) . وحدثتها باستفاضة عن المجالات المتاحة من وجهة نظر الأدب المقارن حين يكون المدخل هو الأدب العربى لا الأدب الانجليزى ، ومكثت ساعة أو بعض ساعة وانصرفت .

كانت المقابلة ودية إلى أقصى حد ، وكانت تتناقض تمامًا مع مقابلات كبار موظفى الدولة، فتفاءلت ، وكنت أتوقع السفر إلى لوساكا ، عاصمة زامبيا ، فى اليوم التالى ، فأعددت

حقيبتى وودعت الأسرة ، ولحقت بفريق الترجمة فى المطار حيث ركبنا طائرة مصر للطيران إلى نيروبى، حيث يجب تغيير الطائرة، وكان فريق الترجمة يتكون منى، ومن أن مارى جريس، وسميرة عبد السيد، وفتاة فى العشرينيات من وزارة الخارجية (للآلة الكاتبة العربية) اسمها ليلى عبد الحليم، وأخرى تعمل فى الميريديان (للآلة الكاتبة الفرنسية) اسمها إيڤيت اسكندر . وكان باقى أعضاء الفريق قد اتجهوا قبلنا إلى لوساكا وهم : كمال عزت ، الذى سافر مباشرة من روما ، وعبد الرحيم شلقامى (الآلة الكاتبة العربية) الذى سافر مباشرة من أديس أبابا حيث يعمل بصفة دائمة ، وشوقى الكيلانى الذى كان فى مؤتمر آخر . سافر منه إلى لوساكا . كان ذلك يوم السبت ، وكانت الطائرة تقلع بعد منتصف الليل ، ووصلنا فجر الأحد إلى نيروبى ، فى نحو الخامسة صباحًا . وتساءلنا عن الطائرة التى سوف نركبها إلى لوساكا ، وكانت تابعة لشركة طيران إفريقيا الشرقية ، ولكننا لم نجد إنسانًا نسأله ، إذ كانت عطلة الأحد بادية فى كل شىء ، فالمكاتب مغلقة . وبعض الأشخاص من أبناء إفريقيا نائمون هنا وهناك، ولم نجد بدًا من إيقاظ أحدهم ، فاصطحبنا إلى مكتب الموظف النُبْطشى (النوبتجى) وكان يغالب النعاس ويجرع القهوة ، وحادثناه بالانجليزية فلم يَبْدُ عليه الفهم ، فحاولنا الفرنسية ولم تكن النتيجة أفضل ، وكدنا أن نيأس حين دخلت فتاة نشيطة حادثتنا بالانجليزية فقلنا فُرِجَتْ! وعندما شَرَحَتْ لها سميرة عبد السيد ما نحن فيه من حيرة ضحكت وقالت : آسفة! شركة طيران إفريقيا الشرقية أفلست ! لا توجد طائرات ! وتسمرنا لحظات فى أماكننا. إذ تصورنا جميعًا أنها لا يمكن أن تكون جادة ، ولكن الأمور كانت قد تعقدت فعلاً لأن الأحد عطلة مقدسة، والسكون يخيّم على المطار ، ولا أحد هناك أو يمكن أن يظهر قبل الضحى!

وتذكرت أن لى صديقًا هو توم هيتون الانجليزى الذى كان يعمل فى محطة الإذاعة البريطانية فى نيروبى ، وكنا ما زلنا نتراسل وفى مفكرتى رقم التليفون ، فتركت الفريق فى القاعة المقفرة التى بدأت تغزوها أضواء سماء ملبدة بالغيوم ، وذهبت إلى كابينة التليفون وطلبت العامل فوافق على إجراء المكالمة مقابل دولار واحد فنقدته إياه وخاطبت توم فأيقظته من النوم وشرحت له الموقف فقال لى : "لا تقلق ! سوف أكون لديك حالا !" وبعد انتظار طال فأمعن فى الطول لمحت توم هيتون داخلاً ومعه شخص فارع الطول كأنه الجنى الذى خرج من القمقم ، وعرفنى توم به قائلاً هذا هو مدير المطار ! وعرفت فيما بعد أنه كما نقول هنا 'ناظر المحطة' ، المهم أنه شرح لى أن إفلاس الشركة معناه أن تتولى مصر للطيران إنزالنا

فى فندق حتى يتسنى إيجاد مكان لنا على طائرة إفريقية أخرى من الشركات المتعاقدة مع مصر للطيران، وكان ذلك 'الحل الرسمى' معناه ضياع يوم على الأقل، وأما الحل غير الرسمى الذى اقترحته آن مارى جريس فهو أن نشترى لنا تذاكر على أى طائرة متجهة إلى لوساكا ثم نطالب بالثمن فيما بعد ! وقالت سميرة عبد السيد : نطالب المنظمة به ؟ أم مصر للطيران ؟ فقلت إننا فى ورطة وإذا كان ثمن التذكرة زهيدًا فلا يهم، وبدأنا نرصد ما لدينا من نقود سائلة فوجدنا ما يكفى أربعة أشخاص ولا يكفى خمسة، مما جعل هذا الحل مستبعدًا، وهكذا لم يبق سوى الحل الرسمى، واقترح توم هيتون أن نتصل بمصر للطيران فورًا، وتولى هو الاتصال، وخرج مع 'ناظر المحطة' لإجراء اللازم، بعد أن وعدنا بالرد علينا بعد قليل.

وفى نحو الواحدة ظهرًا جاءنا من يخبرنا أن هناك طائرة خاصة ستقوم فى الخامسة من نيروبى إلى لوساكا، وأن مندوب مصر للطيران سوف يأتى للانتهاء من الإجراءات، وأننا مدعوون للغداء على حساب الشركة فى بوفيه المطار، وعاد توم هيتون مع زوجته چاكى، وجلسنا نتسامر حتى نحو الثالثة، ثم انصرفا، وكان التعب قد بلغ بى مبلغه، فغفوت قليلاً وفتحت عينى على صراخ سميرة عبد السيد، إذ كانت الطائرة قد وصلت وكان الناس يتدافعون إليها ويتزاحمون بالمناكب، وكان الزحام أشد مما تحتمله السيدات، وكان لابد أن نتقدم جميعًا وأنا "كالقاطرة" فنشق طريقًا وسط الحشود نحو الباب - وأنا أدافع الحشد الصاخب صائحًا صارخًا، وفعلنا ذلك مما تطلب قدرًا كبيرًا من الجهد البدنى حتى وصلنا إلى الطائرة، وهناك طُلب إلينا أن نتعرف على حقائبنا حتى توضع فى الطائرة، وساد الهرج والمرج واشتد الصياح والصراخ، إذ إن أحدهم شاهد غلامًا يختطف حقيبة ظنها الراكب من متاعه وينطلق بها إلى حيث يعلم الله ! ولكننا نجحنا جميعًا فى العثور على المتاع وتأكدنا من تحميله على الطائرة وانطلقنا إلى لوساكا.

أما ما حدث فى لوساكا فروايته قد تستغرق صفحات طويلة، ولقد أفردت لحادثة المطار هاتين الصفحتين لأنها حادثة تكررت كثيرًا على مدى السنوات العشرين الماضية، وأكاد أقول فى كل مؤتمر أعمل فيه فى إفريقيا، ولكننى سأكتفى بما حدث فى الليلة الختامية للمؤتمر، إذ كان ينبغى كتابة التقرير بالعربية والانجليزية والفرنسية، ولجنة التنسيق لتحرير إفريقيا كانت اللجنة الأساسية لمنظمة الوحدة الافريقية التى تتولى متابعة نشاط حركات التحرير فى شتى البلدان الإفريقية، وقد أتاح لى العمل بالترجمة فى مؤتمراتها أن أزور

بلدانًا إفريقية كثيرة ، وكان ما حدث فى الليلة الختامية لا يختلف هنا عما شهدته فى بلدان أخرى كثيرة .

كان المترجم الفورى كمال عزت يترجم من الفرنسية إلى العربية فى الكابينة ، وسامية خلاف تترجم من العربية إلى الفرنسية ، وأن مارى جريس من الانجليزية إلى الفرنسية وبالعكس، وسميرة عبد السيد من العربية إلى الانجليزية ، وشوقى الكيلانى من الانجليزية إلى العربية ، وأنا المترجم التحريرى الوحيد فى الفريق ! وكان المفروض أن يتولى الافريقيون إعداد النص المطبوع الأصلى بالانجليزية والفرنسية وأن يترجمه أحدنا (وكنت أنا ذلك الشخص) من إحدى اللغتين إلى العربية . وكان المفترض أن يكون النص قد اكتمل قبل بداية الجلسة الختامية - كما هو الحال فى شتى المؤتمرات العربية والعالمية - وكان علينا أن نستقل الطائرة عائدين من لوساكا إلى نيروبى فالقاهرة فى السابعة صباحًا ، وهكذا كان المفترض أن تكون الجلسة 'جلسة شكلية' (a formality) أو جلسة ختامية رسمية لا تتأخر عن الثامنة أو التاسعة مساء، ولكن الذى حدث هو أننا بعد أن انتهينا من التقرير بالانجليزية والعربية ، (ولقد شاركت مترجمًا إفريقيا نابهًا اسمه 'قوصى' فى صياغته بالانجليزية) ، وبعد أن وافق عليه السفراء ، بدأ الوزراء فى الجلسة العامة يعترضون على فقرات منه ويقترحون إبدالها بفقرات جديدة ، وكانت الفقرات الجديدة تملى إملاء على كاتب الجلسة أثناء الاجتماع ، فإذا كانت بالفرنسية ترجمها كمال عزت وأعطى النص إلى ايڤيت اسكندر وإذا كانت بالانجليزية ترجمتها أنا ، وعبد الرحيم شلقامى جالس إلى الآلة الكاتبة ينسخها بهمة ونشاط ، ومرت ساعات المساء ودخل الليل ، وبدا على أعضاء السكرتارية الإفريقى التعب ، وبدأ النعاس يتسلل إلى عيونهم (مثلما تسلل إلى عيون كثير من المندوبين فى القاعة) ، ولم أعرف سر ذلك إلا حين وجدت صناديق الجعة الإفريقية مكدسة بجوار مكاتبهم ، وانتصف الليل والجلسة صاخبة ، والإفريقيون ينامون الواحد بعد الآخر ، وكانت إيڤيت اسكندر تكتب ما يأتيه بها كمال عزت ، وشلقامى يكتب ما أمليه عليه ، وتوغل الليل حتى الهزيع الثانى فلم يبق يقظًا إلا نحن المصريين ، ولكننا لم نستسلم حتى انتهينا من التقرير فى الخامسة صباحًا .

وعندما عدت إلى القاهرة كان أول ما سألت عنه هو ما حدث للمسرحية ، وكان الرد هو أن الأستاذ محمد لمعى رئيس هيئة المسرح ، وهو ضابط سابق بالجيش ، قد رفض تقديمها على المسرح ، وعندما زرناه أنا وسمير سرحان فى المكتب بشارع عبد الخالق ثروت قال لنا

بلهجة عسكرية "لقد أمرت بوقف التعامل مع هذه المسرحية الشيوعية !" وعندما شرح له سمير أن المسرحية تنتهى بتصحيح الصورة وذكر مساوئ عدم الفهم الصحيح للاشتراكية وسوء التطبيق، قال بلهجة استنكار وصوت مدو : "يعنى تيجى فى الآخر وتقول كلمتين بعد ما يكون الناس اتحوّلوا ؟" وخرجت منكس الرأس، فاقترح سمير أن أنشر المسرحية ، ولكننى عرفت صعوبة ذلك آنئذ، فقررت أن أعيدها إلى الدرج وأنتظر ما تأتى به المقادير!

وفى أواخر عام ١٩٧٨ تبسمت الدنيا بعض الشىء !



فى أغسطس ١٩٧٨ طرق الباب طارق فى السادسة صباحًا ، وجاءت إلىّ نهاد تخبرنى بأنه - فيما يبدو - 'عسكرى' ولو كان يرتدى الزى المدنى ، فقفزت من الفراش قفزًا وكنا فى رمضان ، وكنا نسهر مثل جميع أهل القاهرة آنذاك حتى الفجر ، ثم لا ننهض حتى الضحى ، وإن كنت أنا وما زلت أستيقظ قبل إشراق الشمس ، مهما بلغ السهر ، وأهرعت إلى الباب فوجدت شابًا يتكلم بلهجة عسكرية ولم يزد على أن قال : "موعدك الساعة الواحدة ظهرًا" وانصرف . ونظرت إلىّ نهاد فى دهشة ولم أكن أقل منها دهشة ، وقلت فى نفسى "لقد تأخر زائر الفجر هذه المرة ! والله زمان !" ولم أُخْفِ قلقى من هذا الطارق ، وطَمْأنْتُ نهاد وقلت لها سواء أكان هناك ما يسوء أم لا فلابد من إجراء تحقيق لأن عهد المعتقلات ولّى إلى الأبد ، وسواء أكان الذى أبلغ السلطات هو أحد زبانية رشدى أم لمعى أفندى فسوف أثبت براءتى . وقالت إنها ستذهب لوالدتها ، وسوف تتوقع منى اتصالاً تليفونيًا قبل الإفطار إذا سار كل شىء على ما يرام ، وإلا فسوف تعرف أننى ما زلت رهن التحقيق ، وليست كتابة المسرحية بالجريمة النكراء ، فأنا لم أنشرها بعد ، ولم يثبت أن بها معارضة للنظام ، مع أن النظام يسمح رسميًا بالمعارضة ، وعلى أى حال فكلها ساعات معدودة ، ولكم سبق لنا الانتظار !

وفى الواحدة تمامًا دق الجرس فخرجت ، وكانت نهاد تخفى قلقها ، وذكرت أن ليليان زوجة لطفى الخولى كانت تعد له حقيبة فى مثل هذه الحالات ، ولكننا كنا متفاءلين ، وانطلقت بى السيارة - وكانت سيارة مدنية عادية - وما كان أشد دهشتى حين دخلت السيارة منزل

رئيس الجمهورية فى الجيزة ! ووجدت ترحيبًا من الرائد عبد العظيم 'مشرف المنزل' الذى ساقنى إلى الصالون ، وهناك جاءت السيدة جيهان السادات ورحبت بى ثم انتقلنا إلى غرفة مكتبها ، وبدأنا مناقشة مشروع رسالة الماجستير ، واندمجنا فى الحوار ، وتشعب الحديث وتلوّن ، فبهرنى ما تتمتع به من صبر وقدرة على التفكير المتأنى ، ولما كنا فى رمضان فلم يكن يقاطعنا من اعتدناهم فيما بعد من حاملى صوانى عصير الليمون والقهوة ، واستمرت المناقشة حتى الرابعة ، فطلبتُ أن أتصل بزوجتى فى شبرا بالتليفون فَفَهِمَتْ من ذلك أننى أريد الرحيل فقامت وأوصت السائق بتوصيلى إلى شبرا ولكننى فضلت أن أذهب إلى المنزل فى المهندسين ثم أذهب إلى أصهارى فى شبرا بسيارتى الخاصة .

كانت تلك بسمة حانية من القدر فى أحلك لحظات حياتى، فلا شك أن معرفة السيدة الأولى والإشراف على دراستها الأكاديمية ولو من الباطن يمكن أن ينجينى من أمثال الرقباء الذين يطالبون برقبتى، وذهبت إلى شبرا وهمست لزوجتى بسر الاستدعاء الصيفى، وعندما انتهى رمضان وجاء العيد، أحسسنا بأن لدينا ما نفرح به حقًا، فتلميذتى هذه المرة ذات موقع مرموق فى الدولة، وكنت فى مسيس الحاجة إلى مثل هذه التلميذة المجتهدة، خصوصًا بعد أن آنَسْتُ فى أسئلتها وخلال المناقشة مدى جدية مطلبها، ومدى حدبها على العلم والعلماء. ولم أعرف سر استدعائى فى ذلك الوقت تحديدًا إلا عندما ذاعت أنباء سفر الرئيس إلى الولايات المتحدة لإجراء المفاوضات حول جلاء إسرائيل من الأراضى العربية المحتلة، والتى بدأت فى أوائل سبتمبر ١٩٧٨ وانتهت بتوقيع اتفاقيتى كامب داڤيد فى ١٨ من ذلك الشهر بوساطة الرئيس جيمى كارتر. وعندما عاد الوفد المصرى، استُدْعيتُ مرة أخرى وتكررت اللقاءات.

كنت فى تلك الآونة قد يئست أو كدت من 'الإفراج' عن مسرحيتى ميت حلاوة وكان حلمى القديم بإعادة إصدار مجلة المسرح ما زال يراودنى ، ففاتحت سمير سرحان فى الموضوع، ولكن جو وزارة الثقافة كان متجهمًا ، وكان من الواضح أن تغييرًا ما لابد أن يقع دون أن ندرى كيف ، فاقترح سمير إنشاء مجلة خاصة - أى مجلة تابعة للقطاع الخاص ، وكانت اللوائح تنص على أن إصدار أى مجلة خاصة يجب أن يكون تحت عباءة جمعية مسجلة ومعترف بها ، فتفتق ذهنه الخلاق عن إنشاء نادٍ للمسرح يصدر مجلة بعنوان نادى المسرح ، ومن ثم بدأنا العمل ، وكانت قضية سعد الدين وهبة وسميحة أيوب قد حسمت لصالحهما وعاد كل منهما إلى منصبه السابق ، فاجتمعنا ذات يوم فى أكتوبر فى غرفة الأستاذة سميحة

فى المسرح القومى (الأزبكية) واقترحنا تشكيل النادى برئاستها ، فهى علم من أعلام المسرح ، وكان مجلس إدارة النادى يضم سمير سرحان وفوزى فهمى وجمال سلامة (وهو أخو مرفت سلامة الناقدة والمذيعة التليفزيونية وزوجة فوزى) والفنانة محسنة توفيق ، ومن الشباب أسامة أبو طالب (الدكتور) وشخص كنت أراه لأول مرة اسمه مرسى نويشى (اتضح لى فيما بعد أنه أفّاق كبير) .

كانت مغامرة إصدار المجلة ممتعة ، إذ عقدنا أول اجتماع لهيئة التحرير التى كان على رأسها سمير ، وتضمنى مع فوزى نائبين له ، وتضم أسامة سكرتيرًا للتحرير ، وذلك وفقًا للأقدميات الجامعية ، وبدأ سمير العمل فاتجهنا إلى دار روز اليوسف حيث قابلنا مندوب إعلانات فذ ذا ذهن وقاد يدعى أنور حجازى واتفقنا معه على الحصول على إعلانات من بعض الشركات ، وكان أهمها شركة مصر للطيران ، بحيث تغطى تكاليف العدد الأول والغريب أن حجازى المذكور كان كفيفًا ، وبعد ذلك عقدنا 'اجتماع تحرير' (نحن الأربعة) فى فندق ميريديان (الجديد) واتفقنا على مواد العدد ، وحددنا يناير موعدًا لصدوره ، وكنت أتأمل حينذاك اختلاط مفاهيم المسرح فى مصر والتفرقة بين العرض المسرحى وبين أدب المسرح (الدراما) حين وقعت حادثة الانتحار الجماعى لطائفة 'معبد الشعب' الأمريكية ، وخلاصتها أن جماعة دينية متطرفة يرأسها شخص يدعى جيم جونز ، واسمه الكامل جيمس وارن جونز، وكان يقول إنه كاهن ، اتخذت من غيانا فى أمريكا الجنوبية مقامًا لها ، وكانت تضم الشباب بصفة أساسية ، وكانوا يتزوجون بحرية فيما بينهم ، ولديهم أطفال من مختلف الأعمار ، وكان ذلك المتطرف قد أقنعهم بترك ممتلكاتهم من ''عرض الدنيا الزائل'' والتفرغ للعبادة تحت مظلة تعاليمه (التى لم يكشف عنها النقاب أبدًا) وعندما قام أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى واسمه ''ليو رايان'' بزيارة أمريكا الجنوبية للتحقيق فيما قيل من أن بعضهم كان محتجزًا رغم أنفه ، قتله بعض أعضاء الجماعة يوم ٢٠ نوفمبر ثم انتحر الجميع بتناول السم، وكان عددهم ٩٠٩ (تسعمائة وتسعة) بنسائهم وأطفالهم بعد أن دعاهم القسيس الزائف إلى الرحيل معه إلى العالم الآخر وأطلق الرصاص على رأسه .

وقرأت تحقيقًا فى مجلة أمريكية آنذاك تقول إن جونز المذكور كان متحدثًا بارعًا وممثلاً موهوبًا ، وإن طقوس الجماعة كانت مسرحية فى جوهرها ، بعد أن عثر المحققون فى الحادثة على كتيبات تركز على الطقوس والشعائر التى تتضمن حركات وأقوالاً وموسيقى يشهدها

الجميع ويشاركون فى أدائها ، وكان العمل المسرحى أو 'فنون الأداء' - كما نسميها اليوم - من صلب ممارسات العبادة لديهم ، فاتخذت من هذه الحادثة نقطة انطلاق للتفرقة بين المسرح أو فنون الأداء وبين الدراما ، وكتب فوزى دراسة عن المسرح الروسى ، وكتب سمير دراسة عن مسرح السبعينيات فى أمريكا ، وكتب أسامة دراسة لمفهومه عن البطل التراجيدى من وجهة نظر الإسلام .

واكتملت المادة فى ديسمبر - وكانت من بينها دراسة رائعة للمدارس المسرحية الحديثة كتبتها نهاد صليحة زوجتى (طورتها فيما بعد وطبعتها مستقلة بعنوان المدارس المسرحية المعاصرة) وذهبنا إلى دار نشر مغمورة اسمها 'دار الهنا' فى شارع متفرع من شارع الصحافة وربما كانت مطبعة وحسب ، فجمعت المادة بالتيبو (اللينوتيب) وصُحّحت ، ثم طُبع الغلاف الملوّن ، وبه ثلاثة إعلانات ، وصدرت مجلة نادى المسرح فى أول ١٩٧٩ ، وكان سعر النسخة ٢٥ قرشًا . واصطحبنى سمير غداة صدور العدد الأول إلى أماكن التوزيع فوجدنا أن عدد المباع لم يزد على سبعين نسخة ، فقررنا القيام بالدعاية اللازمة ومحاولة الحصول على المزيد من الإعلانات وتعريف أهل المسرح بالمجلة الوليدة .

وفى أواخر ١٩٧٨ أنشأت جريدة الأهرام صفحة خاصة بالثقافة ، واختلف المسئولون بالجريدة حول من يتولى الإشراف عليها هل توفيق الحكيم أم ثروت أباظة ، وكان لكل منهما أنصاره ، فتوفيق الحكيم عَلَمٌ لا ينازَعُ فى مكانته ولكنه هَرِمٌ مهدَّمٌ ولا يستطيع ممارسة العمل الصحفى ، وثروت أباظة كاتب كبير وله نفوذه وأنصاره ، ومن ثم استقر الرأى على أن يتولى أحد الصحفيين المحترفين تنفيذ الصفحة حتى يحسم الخلاف ، ووقع الاختيار على فاروق جويدة ، الشاعر ، فهو شاب وصحفى محترف ، ومن ثم بدأت الصفحة فى الظهور ، وبدأت تملأ الفراغ الذى أحدثه اختفاء المجلات الأدبية ، ونُشرت فيها مقالات لكبار الكتاب ، وسرعان ما بدأ سمير سرحان ينشر فيها مقالات منوعة ، وظهر لى أول مقال طويل بالعربية منذ عودتى يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٧٨ ، وفى أواخر ذلك العام أيضًا دعينا أنا وزوجتى نهاد إلى حفل زفاف جمال السادات فى منزل الجيزة ، كما دعى إليه كثير من أساتذة كلية الآداب، ووجدت فى الحفل الكثيرين من المعارف الآخرين ، ورحبت بنا السيدة الأولى خير ترحيب وفق تقاليد أم العريس المصرية ، ولما كانت قد سجلت لدرجة الماجستير بإشراف سهير القلماوى وكنت الوحيد (باستثناء رشاد رشدى) من قسم اللغة الانجليزية الذى دعى إلى حفل

الزفاف فقد بدأت الشائعات عن مشاركتى فى الإشراف من الباطن ، وإن كان دورى مقصورًا فى تلك المرحلة على لقاءات دورية لشرح نصوص شلى ، وكان مجدى وهبة هو الذى يراجع ما تكتبه 'الطالبة' مع سهير القلماوى ، ولكن النشر فى الأهرام كان التتويج الحقيقى لعام ١٩٧٨ .

٤

كان حلم تقديم المسرحية على المسرح ما فتئ يراودنى ، وان كان قد أصبح الآن بعيد المنال، لسبب آخر لا علاقة له بالرقابة، وهو اختفاء ممثلى المسرح فى استوديوهات اليونان والخليج العربى لتصوير المسلسلات. واقترح علىّ أحمد زكى المخرج أن أقدم نصًّا لشيكسبير إذ لن تعترض الرقابة عليه، بل ويمكن تصويره تليفزيونيا، واقترح مسرحية زوجات مرحات (واسمها الأصلى زوجتان مرحتان من ضاحية وندسور) بسبب شخصية فولسطاف الكوميدية، كما اقترح تمصير النص أى تحويله إلى نص مصرى عربى بمعنى أن تصبح الشخصيات مصرية تتحدث اللغة العربية المصرية لا الفصحى التى هى لغة كتابة لا لغة حديث، وقال إنه يتصور أن يصبح اسم البطل فنطاس باشا مثلاً! وراقتنى الفكرة، فعكفت على النص أترجمه إلى تلك اللغة التى يطلق عليها وصف العامية وإن كانت 'عامية المثقفين' – كما يسميها السعيد بدوى – أو 'العامية الجزلة' كما يسميها محمد مندور. وكانت التجربة طريفة وبالغة الثراء، فلغة النص الكوميدى لدى شيكسبير 'عامية' فى معظمها، والمضاهاة بين لغتى الحديث هنا وهناك شاقة وعسيرة ، خصوصًا عند إعادة صياغة 'الموقف' الدرامى التى قد تستلزم ما يوازى علميًا إعادة الكتابة بمعنى إعادة التأليف! وفى هذه العملية يختلط النقل بالإبداع فى علم الترجمة الحديثة (Translatology) إذ لا يُعقل أن تظل الكلمات كما هى حين تتغير الشخصيات عند التحول من بيئة إلى بيئة، و'فنطاس باشا'، وهو هنا من زعماء المماليك، لن يتحدث اللغة التى يتحدثها فارس من عصر النهضة، وإن كان تراث العصور الوسطى يجمع بينهما، وكان أمامى خياران : إما أن أَصُبَّ شخصية 'فولسطاف' فى شخصية 'فنطاس باشا' فتخرج الشخصية المحلية العربية غير صادقة لبيئتها وتراثها، وإما أن أعطى

الحرية للشخصية الجديدة فى أن تتحرك وفقًا لمقتضياتها الخاصة ، وقد فضّلت الخيار الأول - على ما به من مثالب فنية - لأننى كنت ما زلت كاتبًا مسرحيًا 'جديدًا' ، ولأن الخيار الثانى كان معناه 'اقتباس' المسرحية الأصلية أو استلهامها فى كتابة نص جديد وهذا هو ما يحدث فى الواقع فى كل ترجمة ، وإن كنت لم أدرك ذلك آنذاك ، ولم تكن لدى جرأة نعمان عاشور فى ترجمة عطيل - وهو نص تراجيدى شيكسبيرى - إلى اللغة العربية المصرية (العامية).

وبدأت المشاكل بالعنوان . فكلمة merry تعنى المرح فعلاً، ولكنها هنا تعنى 'الجدعنة' ، على نحو ما نرى فى المصطلح الانجليزى The more, the merrier أى 'البركة فى العدد' أو فى مصطلح the merry men of England أى 'جدعان الانجليز' أو ذوو الشهامة فكلمة merry من الكلمات الانجليزية التراثية ، وإطلاقها على الزوجتين تحمل إلى جانب المرح معانى تمتزج فيها صلابة النفس بالاعتزاز بالشرف ، ولكن المسرحية كانت قد عُرفت بهذا العنوان بالعربية (زوجات وندسور المرحات) ولم تكن هناك فائدة من تحرى الدقة العلمية فى ترجمة هى فى جوهرها إعادة صياغة . وصادفتنى بعد ذلك صعوبات كثيرة عالجتها فى الكثير من كتبى عن الترجمة بالانجليزية والعربية ، منها الوزن والقافية ، إذ أحيانًا ما يكمن فى هذين العاملين سر النص بحيث يتجاوز معناهما معنى الألفاظ ، وهنا كان علىّ أن أحوّل كل أرجوزة إلى مثيل لها أو مقابل عربى ينقل قوة الوزن والقافية ، فعندما يحاول 'فولسطاف' مراودة زوجة السيد 'فورد' (الذى أسميته وردًا فى التمصير) عن نفسها ويرسل لها خطابًا يحاول فيه إثبات شاعريته ، وما هو بشاعر ، يخرج لنا أبياتًا سخيفة نضحك منها ، وذلك أساسًا بسبب اعتسافه طريق الوزن والقافية ، فهو يوقع الخطاب قائلاً :

Thine own true knight
By day or night
Or any kind of light !

وقد ترجمتها على النحو التالى - حفاظًا على روح الفكاهة :

فارسك المختار
بالليل والنهار
وسائر الأنوار !

ولم أجد ما يبرر محاولة نقل المعنى المنثور كأن أقول ، فارسك المخلص الأمين ، مثلا ، بل ضحيت بذلك فى سبيل بحر الرجز والقافية ، فالكاتب ما كان ليكتب السطر الأخير لو كان شاعرًا يحسب حسابًا لكل لفظة ، وقس على ذلك ما جاء فى النص من أغان وأراجيز .

وانتهيت من الترجمة بسرعة ، وأعددت نسخة على الآلة الكاتبة ، وقرأت النص على زوجتى نهاد صليحة أولاً ثم على سمير سرحان وزوجته نهاد جاد فاقترح الجميع تقديمه إلى المسرح الكوميدى ، وكان يرأس الفرقة ممثل ومخرج ذو شعبية كبيرة هو السيد راضى . وزرت السيد راضى فى منزله بالمهندسين ، وعرضت عليه الفكرة وتركت له نسخة من المسرحية ، وسرعان ما حدد موعدًا لبدء التجارب المسرحية (البروفات) فى مسرح الحكيم القديم ، وكان مقره مبنى مسرح محمد فريد الذى ضاع الآن من أيدى وزارة الثقافة ، وعندما ذهبت لحضور البروفة الأولى، مررت بتجربة لا أعتقد أنها تكررت فى حياتى المسرحية بعد ذلك .

اجتمعت الفرقة، وبدأ السيد راضى بتقريع الممثل محمود القلعاوى لكثرة تخلفه عن العمل فى مسرح الدولة وانشغاله بمسرح القطاع الخاص والمسلسلات ، وألقى ما يشبه الخطبة عن ضرورة الالتزام بالواجب الفنى لمسرح الدولة، ثم بدأت الممثلون يقرأون الأدوار ، فاكتشفت أن السيد راضى لم يقرأ النص قبل تلك اللحظة ، وكان الممثلون يعترضون أحيانًا على بعض العبارات فيقول كلامًا يثبت أنه لا يعرف ما سيحدث، وعندما انتهى الفصل الأول (أو الجزء الأول) بوضع فنطاس باشا فى سلة الغسيل ضحك ضحكًا شديدًا وقال لى: 'حلوة دى! ده حتة باوف' (وقد أدركت أن كلمة 'بلوف' قد تكون تحويرًا للإنجليزية bluff ولكن معناها اختلف، فهى لا تعنى 'الخُدعة' بل تعنى حركة مسرحية بارعة تقوم على الخداع). وكانت التجربة المسرحية (البروفة) الأولى فاشلة بكل المقاييس فالممثلون كانوا يقرأون النص لأول مرة ، وكان الشخص الذى أسندت إليه البطولة (واسمه أبو زيد) سخيًا بتعليقاته ضنينًا بفنه ، فكان يكثر من ضرورة وضع إفّيه (من الفرنسية effet بمعنى فكاهة) هنا ، والحديث عما يضمن هنا سوكسيه (من الفرنسية succès بمعنى التصفيق) وكان ثقل ظله دافعًا على الانقباض العظيم .

وبعد البروفة انتحى بى السيد راضى جانبًا وأفهمنى أنه يريد منصبًا مرموقًا لقاء إخراج هذه المسرحية ، وقد خُيّل إليه أننى أستطيع مساعدته فى ذلك ، بسبب الشائعات ، ويبدو أنه كان يريد أن يصبح رئيسًا لهيئة المسرح ، ولقد تحقق له ما أراد بعد نيف وعشرين سنة ، فى

عام ١٩٩٢ ، وأذكر عندما طُرد كرم مطاوع من رئاسة هيئة المسرح بسبب خلافات سوف أعود إليها فى حينها ، وعُيّن السيد راضى رئيسًا للهيئة ، أن قال لى حامد شاكر المدير الإدارى لمسرح الأزبكية إن الهيئة بهذا التبديل تشبه من يطلّق الزوجة ست البيت ليتزوج الخادمة ! ولكن الذى حدث هو أن السيد راضى نجح فى إدارة الهيئة حين تولاها وساعدته الظروف فى تقديم موسم مسرحى ناجح ، ولكن تجربتى الأولى معه كانت محزنة ، فالممثلون مبتدئون ، لا يستطيعون قراءة الكلام المطبوع ، والحس الفكاهى لديهم شبه معدوم ، ولا يتصورون أن الجمهور سوف يضحك إلا على الفكاهات اللفظية أو ما نسميه 'بالتقريع' بالعامية ، ربما من صفة 'القرعاء' حين توصف النكتة بأنها قرعة (بالعامية) .

وأعدت المسرحية إلى درج مكتبى ، ولم أتصل بعد ذلك بالسيد راضى ولم يتصل هو بى، وذات مساء فى صيف ١٩٧٩ ، ونحن نجلس أنا وسمير ونهاد جاد ونهاد صليحة فى حديقة المسرح العائم بجوار كوبرى الجامعة ، وصل حمدى غيث - الممثل والمخرج الشهير - وفتح موضوع المسلسلات ، وجعل يدافع عن اندفاع الفنانين إلى الخارج للتصوير ، قائلاً إنها ظاهرة صحية ، وإن المسرح بصورته القديمة أصبح وهمًا ، وأن زمان إخراج المسرحيات الكبيرة قد انقضى ، وعلى الجميع أن يسايروا التيار ، واحتدم النقاش وكنت قد عدت لتوى من أول مؤتمر دولى يعقد فى أوروبا ، وهو مؤتمر التنمية الريفية والإصلاح الزراعى فى منظمة الأغذية والزراعة (روما) وكان معى مترجمان هما عمرو أحمد عمرو وسعيد مطر ، وقد أوحى لى وجودهما معى وما قصّاه على من قصص بعدة أفكار تدور حول جدلية النفس - إن صح هذا التعبير - كما تعرفت لأول مرة على الأستاذ أسعد حليم ، المترجم العظيم ، وعلى غيره من العاملين الدائمين أو المؤقتين بالمنظمة مثل سمير عفيفى - الذى أكثر من الإشارة إليه فى كتبى عن الترجمة - وعلى حنفى سليمان وعبد الرازق إبراهيم ، وأحمد فؤاد بلبع ، ومحمود يونس (الذى عملت معه فيما بعد فى المنظمة العالمية للأرصاد الجوية فى جنيف) وغيرهم .

أما جدلية النفس فأقصد بها التناقض الكامن فى نفس كل إنسان بين عالمه الخاص بأحلامه ورؤاه وهمومه وبين عالمه العام وهو الدور الاجتماعى الذى يضعه لنفسه ويؤديه مرتديًا قناعًا أو عدة أقنعة، وزادتنى قراءتى لكتابات كارل جوستاف يونج (Jung) عالم النفس النمسوى الشهير، إيمانًا بهذه الجدلية الباطنة، وتصورت أننى لو أخرجت العالم الخاص من نفس الإنسان وألبسته ثوبًا آدميًا (شخصية أخرى) لمواجهة العالم العام أو القناع

الاجتماعى فلابد أن يحدث صدام من نوع ما، ورأيت أن ذلك ما يفعله كبار كتاب الدراما منذ أقدم العصور، ولنا أن نتصور مثلا أن 'ياجو' فى مسرحية عطيل يمثل جانب المخاوف والغيرة الكامن فى نفس عطيل ، وأن شيكسبير يخرجه لنا فى هذه الصورة المجسدة حتى نراه رأى العين ، ويظل عطيل أمامنا – حتى فى أحاديثه الفردية (المناجاة) ممثلا للجانب الواعى فقط من شخصيته ، ومعنى هذا أن ياجو يمثل ما لا يعيه من عدم الثقة فى حب ديدمونة له بسبب لونه أو بسبب تقدمه فى السن مثلاً. وإذن فقد يكون 'الخاص' هو اللاوعى ويكون العام هو 'الوعى' فإذا كانت نتيجة الصدام دامية خرجت لنا المأساة، وإن أمكن التصالح خرجت ملهاة!

وأعدت النظر فى بعض مسرحيات شيكسبير فوجدت أن الوعى واللاوعى قد يتبادلان الأدوار ، بمعنى أن الشخصية التى تمثل اللاوعى قد تقترب كثيرًا من الوعى فتصبح ممثلة له والعكس بالعكس ، ومن هذا المنظور فإن البطل ونقيضه (foil) قد يكونان وجهين لعملة واحدة ، وأمكننى من هذه الزاوية أن أتصور مواقف يُرغم فيها البطل إرغامًا على مواجهة اللاوعى لديه ، مجسدًا فى شخصية أخرى ومن ثم شرعت فى إعادة كتابة مسرحيتى القصيرة السجين والسجان حيث التبادل واضح بين الدورين ، ثم كتابة مسرحية أخرى هى الصديقان – كانت أول وآخر مسرحية تنشر لى فى مجلة المصور القاهرية بعد أن أرسلها سمير سرحان دون أن يستشيرنى إلى صبرى أبو المجد رئيس التحرير الذى قرأها فأعجبته ونشرها فى عددين متواليين ، ولم ألبث أن كتبت مسرحيتين أخريين من نفس المنظور هما البحيرة حيث يتجسد اللاوعى فى امرأة ، والصديقتان ، وفيها تتبادل الشخصيتان دور الوعى واللاوعى ، وكانت هناك شركة للإنتاج التليفزيونى العربى ، مستشارها الفنان كمال الطويل ، ولديها لجنة قراءة من كبار النقاد ، فاقترح سمير تقديم بعض هذه المسرحيات إليها ، كما قدمت نهاد صليحة مسرحيتها الأولى المؤلفة فى ضوء القمر (وكلها من فصل واحد ولا يزيد عدد شخصياتها عن ثلاثة) إليها ، وقام سمير العصفورى بإخراج البحيرة وفى ضوء القمر فى تونس وصورهما التليفزيون وأذاعهما .

وفى خضم انشغالى بهذه المسرحيات القصيرة كان سمير مشغولاً بكتابة نص جديد هو امرأة العزيز ، وكانت الصورة التى تلح على ذهنه فيها (بعد شخصية الحاكم بأمر الله فى ست الملك) هى شخصية الرجل الذى يسعى للمجد فيدوس فى سبيل ذلك أعز أصدقائه وأقرب الناس إليه ، ولكنه كان يستعذب فكرة إغواء امرأة العزيز ليوسف عليه السلام ، فاستوحاها

فى تصوير غواية زوجة الباشا لشاب تبناه ورباه ، ولكن الرقابة فطنت للتشابه وأصر الرقيب على حذف الكثير من المسرحية بل وتغيير عنوانها إلى ررض الفرح . وكان سمير قد كتب مسرحية أخرى قصيرة من فصل واحد للتليفزيون أخرجها كرم مطاوع وصورها فى اليونان . فتوثقت علاقة سمير بكرم وكان من الواضح أنه هو الذى سوف يخرج روض الفرج . ولما كان سمير يدرك كل الإدراك أن النجم (نجم الشباك) أى الممثل ذائع الصيت هو القادرعلى اجتذاب الجماهير ، فقد اقترح أن يقوم فريد شوقى بهذا الدور على المسرح . وفعلاً تلاقى الجميع فى منزل سمير بروكسى ، وسهرنا نناقش المسرحية وأبدى فريد شوقى إعجابه الشديد بالدور ، وانصرفنا ظانين أن المسألة قد حسمت ، كما اقترح كرم مطاوع أن يلعب أحمد زكى (الممثل) دور الشاب ، وتعددت لقاءاتنا معه ، ولكن أجور هيئة المسرح المتواضعة لم تقنع أيهما بالاشتراك فى المسرحية .

وكنا آنذاك فى خضم معركة لم نحسب لها حسابًا وهى معركة وزارة الثقافة نفسها ، إذ كان الوزير منصور حسن - داعية الخصخصة - قد اقترح إلغاء الوزارة وإبدالها بمجلس يمثل قطاعات الثقافة المختلفة ، وهاجمنا تلك الفكرة فى العدد الثانى من مجلة المسرح . كما هاجمها كثيرون ممن ساءهم تردّى الأحوال الثقافية فى المسرح وفى غيره . فكان صلاح عبد الصبور الذى عين رئيسًا للهيئة العامة للكتاب خلفًا للدكتور محمود الشنيطى (الذى تقاعد لبلوغ السن القانونية) يخاف على مستقبل النشر فى مصر ، قائلاً إن الهيئة هى الوحيدة القادرة على نشر الموسوعات والأعمال العلمية الجادة التى لا تستهدف الربح ، ومنها موسوعة الدكتور ثروت عكاشة عن الفن التشكيلى وترجماته لأوفيد وغيره ، وكان الخوف كل الخوف من زوال هيئة المسرح - الملاذ الأخير لهذا الفن العظيم - ومن زوال هيئة الآثار والثقافة الجماهيرية وما إليها من هيئات لا يمكن تعويضها لا من القطاع الخاص ولا بمجلس الثقافة الذى حل محل المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية . ولكن رشاد رشدى أرسل مقالاً نشر فى صفحة الثقافة الوليدة فى الأهرام يقول فيه إن أكاديمية الفنون يمكن أن تحل محل وزارة الثقافة، فرد عليه سمير سرحان بمقال يقول فيه إن الأكاديمية هيئة تعليمية ونطاقها مقصور على فنون معينة ولا يشمل سائر أنشطة وزارة الثقافة .

وقابلت صلاح عبد الصبور ذات يوم عن طريق المصادفة البحته (وكل منا فى سيارته الفيات ١٢٨ فى زحمة مرور أمام كوبرى الجلاء - قبل بناء النفق) وسلمته نص ترجمتى

الانجليزى لمسرحيته مسافر ليل وكانت معى فى السيارة بعد كتابتها على الآلة الكاتبة ، ثم مضت كل سيارة لحال سبيلها ، ومضت أيام قبل أن نتلقى أنا وسمير وفوزى فهمى دعوة لحضور اجتماع يعقده منصور حسن - وزير الإعلام والثقافة وشئون رئاسة الجمهورية - لمناقشة إلغاء الوزارة ! وكان الاجتماع يضم معظم المثقفين العاملين فى هذا المجال ، أو هذه المجالات ، وشاهدت إبراهيم نافع الذى كان ينتظر تأكيد تعيينه رئيسًا لتحرير الأهرام يتابع الحوار باهتمام ، وكان حوارًا ساخنًا تسوده العصبية ، إذ كان المجتمعون ينادون بما يشبه الإجماع بضرورة الحفاظ على الهيئات الثقافية ، فالتحول من الاشتراكية (رغم أن الدستور ينص عليها) إلى الرأسمالية لا يعنى إلغاء إشراف الدولة ومساعدتها للعمل الثقافى ، وقال أحدهم إن أمريكا ليست فيها وزارة للثقافة ورد آخر بأننا لسنا أمريكا ، وقال ثالث إن بريطانيا بها مجلس للفنون وهو ما نريد من المجلس الأعلى للثقافة أن يكونه ، فقلت له إن بها وزيرة للثقافة والفنون اسمها جوديث هارت ، فقال ثروت أباظة ''يعنى لابد من وجود وزير !'' وأخيرًا قال منصور حسن ''وهو كذلك . سيبقى الوزير'' وبعد الاجتماع العاصف جاءنى صلاح عبد الصبور متهللاً وقال إنه قرأ الترجمة وإنها أعجبته كثيرًا وضحك قائلاً إنه يبحث لها عن ناشر ! وضحكت معه ، وخرجنا جميعًا بعد أن وعد الوزير بإعداد صيغة لتشكيل المجلس الأعلى للثقافة بحيث لا تتعارض مع هيئات الوزارة القائمة ومع الإبقاء على منصب الوزير واختصاصاته .



ولم نكن فى ذلك كله بمنأى عن الأحداث المتسارعة من حولنا عربيًا ودوليًا ، فقد كان ختام عام ١٩٧٨ ختامًا أيضًا لحقبة كاملة من تاريخ المنطقة ، لم يكن السعى فيها للسلام ينفصل عن غيره من القضايا الحيوية ، خصوصًا قضية الشعب العربى الفلسطينى ، وكانت الدول العربية تخشى أن يؤدى توقيع المعاهدة المرتقبة للسلام إلى فصل قضية استرداد الأرض المصرية المغتصبة عن القضية الفلسطينية ، على الرغم من إصرار السادات على الربط بين القضيتين وخصوصًا إقامة دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس ، وتجلى ذلك عند إعلان

فوز السادات ومناحم بيجين بجائزة نوبل للسلام ، وإعلان ذلك فى أوائل ديسمبر ١٩٧٨ ، وكانت الثورة على أشدها فى إيران حيث استمرت المظاهرات طيلة ذلك الشهر ضد الشاه ، مما جعله يغادر البلاد ويأتى إلى مصر فى آخر يناير ١٩٧٩ ، كما توفى الرئيس هوارى بومدين فى أواخر ديسمبر ٧٨ ، فبدأ عهد جديد فى الجزائر ما زلنا نشهد آثاره ، وما إن وصل آية الله الخومينى إلى إيران فى فبراير ١٩٧٩ حتى ظن الجميع أن عهدًا جديدًا مشرقًا قد بدأ ، وكانت كل هذه المشاغل موضع اهتمام المثقفين على اختلاف مشاربهم .

وأذكر أننا كنا ذات يوم فى زيارة للفنانة سميحة أيوب فى منزلها ، وكان لديها مجموعة من الفنانين والمثقفين أذكر منهم محمد عودة وفيليب جلاب وفريد شوقى وعزت العلايلى وسمير صبحى (من الأهرام) وزوجته إخلاص (الثقافة الجماهيرية) وسمير سرحان ونهاد جاد وأنا ونهاد صليحة ، وغيرنا من أعضاء نادى المسرح بمناسبة صدور العدد الثالث من المجلة ، ولن أنسى النقاش العنيف الذى دار حول تلك القضايا جميعًا ، وأدهشنى التفاؤل الشديد بالثورة الإيرانية ، وكانت حرب أخرى تدور فى إفريقيا إذ غزت القوات التنزانية (التى يدعمها الغرب) أراضى أوغندا واستطاعت الاستيلاء على العاصمة كمبالا فى أواخر مارس ١٩٧٩ ، واضطر عيدى أمين إلى الفرار منها ، بعد أن تكبد الجيشان خسائر فادحة ، وقد نوقش ذلك كله فى حفل سميحة أيوب ، وإن كانت بؤرة المناقشة هى توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل فى ٢٦ مارس ، واجتماع الدول العربية فى بغداد يوم ٣١ مارس ١٩٧٩ لإعلان مقاطعة مصر ، وبذلك تحققت مخاوف الكثيرين من وقوع غربة ثقافية للكثيرين من أبناء مصر الذين يعتبرون مصر قلب الأمة العربية النابض .

وقال فيليب جلاب إن هذه كارثة ، وانطلق يتحدث عن مغبة تقطيع الوشائج الثقافية بين مصر والعالم العربى ، بينما كان محمد عودة يعرب عن جذله لطرد شاه إيران وإنهاء الحكم الملكى الدكتاتورى وبداية عصر جديد ، وكنا نتبادل الآراء حول هذا وذاك حين سمعنا ضجيجًا فى الغرفة المجاورة للصالة ، وإذا به فريد شوقى ينتقد رشدى أباظة ويصرخ قائلاً إنه ليس فنانًا ، وجعل يردد ''أرونى دورًا واحدًا يدلل على عبقرية فى الأداء !'' وكان عزت العلايلى يهدئ من ثائرته ويطيب خاطره ويقول له أنتما أحباب ، وما بينكما من ود لا يقطعه 'التنافس' ، وما إن سمع فريد شوقى كلمة 'التنافس' حتى عاد لثورته ، وأنكر أن رشدى

أباظة لديه ما ينافسه به ، وتدخل الحاضرون وهدأ الموقف بعد عناء شديد ، ونسينا فى غمرة ذلك كله أن نحتفل بالعدد الثالث والأخير من المجلة !

ومع تباشير الصيف ، ومع دهشتنا لانتخاب مارجريت ثاتشر رئيسة لوزراء بريطانيا، فى أوائل مايو ١٩٧٩، جاءنى عرض للعمل فى روما بمنظمة الأغذية والزراعة (بالترجمة والمراجعة) لمدة شهرين! وقبلت فورًا وما أن انتهت الامتحانات حتى شددت الرحال إلى روما، وكان ذلك فى أوائل يوليو، حيث بدأت سنوات الترحال إلى أوروبا فى الصيف، والتى استمرت حتى هذه الأيام ، وإن حلت عواصم أخرى محل روما ، ولن أنسى فرحتى حين تركت حقيبتى فى الفندق وخرجت أنشق عبير المساء وكان ذلك يوم الأحد أول يوليو ١٩٧٩، وظللت أسير فى شارع تراستيفيرى حتى النهر، ووقفت أنظر نهر التايبر (Tivere = Tiber) بعدما قرأت عنه فى صباى المبكر فى مسرحية أنطونيو وكليوباترا لشيكسبير، وحفظت ترجمة لويس عوض للسطور التى ورد فيها ذلك الاسم ، قبل أكثر من عشرين عامًا

Let Rome in Tiber melt and the wide arch

Of the ranged empire fall ! Here is my space.

ألا فلتذب روما فى نهر التايبر ! وليتهاو صرح الامبراطورية الشامخ ! إن مكانى هنا !

كانت أشجار الأرز الأوروبية تنتظم فى صفوف على جانبى النهر ، والناس يسيرون فرادى وجماعات كأنهم يحتفلون بجمال الصيف ، ومررت فى آخر الشارع بمنزل دانتى (Casa Dante) وقد أصبح مكانًا أثريًا يشهد بعبقرية شاعر إيطاليا القديم ، وظللت أسير حتى غربت الشمس فعدت ونمت وقد نسيت العالم والثقافة وكل شىء !

وشغلت نفسى طوال الصيف بالترجمة نهارًا ، وقراءة المطبوعات المتخصصة فى المساء ، واكتساب المعرفة فى أثناء ذلك بمصطلحات العلوم الزراعية التى هى علوم الحياة ، إذ اكتشفت أن معرفتى باللغة الانجليزية - على طول ما أنفقته فى تعلمها - تفتقر إلى الإحاطة بمصطلحات هذه المعارف الحيوية ، من بيولوجيا وكيمياء وفيزياء ، ولكل منها فروعه المتصلة بالزراعة من قريب أو بعيد ، وكان العلماء المصريون من أوائل من عربوا مصطلحاتها وأشاعوها فأصبحت عربية راسخة ، وأصبحت معرفتها لازمة لمن يريد أن يتابع مسيرة العلم

فى القرن العشرين وتطوره من يوم ليوم ، خصوصًا ونحن بلد زراعى ، ولدينا تراث معرفى خصب حافل فى هذا المجال ، ولكن العلم الحديث قد استحدث الكثير ولا مناص من الإلمام به. واكتشفت أيضًا أن المترجم الذى لا يخوض تلك العلوم المتخصصة سوف يظل عاجزًا عن فهم الكثير مما يقرأ ، حتى فى الصحف الأجنبية والمجلات السيارة ، والترجمة فى المؤتمرات السياسية يكفيها العلم بمصطلحات السياسة والاقتصاد ، فلها رطانة خاصة (jargon) أى عبارات ثابتة تتكرر دائمًا ولا تكاد تزيد من حصيلة المترجم ، والترجمة الأدبية لها أصولها التى تبيح التحرر من الحرفية فى الإشارة إلى دقائق الموضوع ، وأما الترجمة العلمية فهى فن مختلف ، وغايتها هى الدقة والوضوح وإحكام نقل المعنى مهما بدا عسيرًا أو عصىّ المأخذ . ومن ثم أعددت كراسًا لى أدون فيه ما يصادفنى من مصطلحات حتى أحسست فى آخر الصيف أننى قد اجتزت دورة تدريبية مبدئية فى الترجمة العلمية ، وعرفت فى غضون ذلك كيف تنتقل تلك المصطلحات إلى اللغة اليومية ، وكيف تشكل ما يسمى باللغة العامة فى الحديث وفى الكتابة .

لقد كانت 'دورة تدريبية' مكثفة حقًا ، فكان سمير عفيفى رئيس القسم يكلفنا بالعمل أحيانًا فى عطلة نهاية الأسبوع ، ولما كنت أعجز أحيانًا عن استجلاء معنى مصطلح من المصطلحات فقد بدأت التردد على الزملاء من العاملين فى القسم العربى ، وكانوا يمثلون بلدانًا عربية مختلفة ، فكان من بينهم المصرى مثل سمير عفيفى وحنفى سليمان وعبد الرازق إبراهيم ويسرى سلطان ، والسورى مثل لؤى جمعة ومحمد صقر ، واللبنانى مثل حبيب يزبك ، والعراقى (الكردى) زهير عبد الملك ، والجزائرى مثل الأزرق بن عَلُّو ، والسودانى مثل الفاتح أبو سمرة ، والفلسطينى مثل عدنان عَنَبْتاوى ، وانضم فيما بعد مصرى ظل حتى سن التقاعد وهو إبراهيم طه معاذ ، والمصرى (صديق دار السلام) إبراهيم الخضرى الذى استقال هو والمصرى عمرو صالح ، بعد عدة سنوات ، والمصرية ناهد الجمل التى استقالت أيضًا بعد عدة سنوات (وهى والدة هبة صالح التى تعمل فى هيئة الإذاعة البريطانية حاليًا) . وكان العمل فى هذا القسم نموذجًا للتوحيد العربى للمصطلحات العلمية ، وهو هدف لم تنجح جامعة الدول العربية فى تحقيقه ، فكان من المحال على قارئ نص من النصوص أن يستدل على 'القطر العربى' الذى ينتمى إليه المترجم ، فالكل يكتب لغة واحدة هى العربية المعاصرة الموحدة ، أو ما نسميه Modern Standard Arabic والكل يستعمل المصطلحات نفسها ، وكان سمير

عفيفى رئيس القسم قد بذل جهودًا مضنية فى هذا السبيل ، فكان يجتمع بالمتخصصين فى العلوم الزراعية من شتى البلدان العربية ويستقى منهم ما يتفقون عليه من مصطلحات ، والكثيرون منهم يحضرون مؤتمرات المنظمة فى روما ، بل ويعمل بعضهم فيها (فى شتى الأقسام) أو يعمل ممثلاً لها فى بلدان أخرى ، وبعد ذلك تبدأ مرحلة إشاعة المصطلح المتفق عليه فى مطبوعات المنظمة ، حتى إذا استقر ولاقى القبول فى البلدان العربية أُدرج فى معجم مصطلحات خاص بالفرع الذى ينتمى إليه ، وهكذا اعتدنا مصطلح الألياف التخليقية (syn-thetic fibres) بدلاً من الصناعية تحاشيًا للخلط بينها وبين (industrial) والخشب الرقائقى (plywood) الذى نسميه 'أبلكاش' بالعامية ، وقس على ذلك مئات المصطلحات التى تعرضت لها فى كتبى عن الترجمة .

ومن مزايا توحيد المصطلحات أن أصبح العلماء يلتزمون بما اتفقوا عليه نشدانًا للتفاهم الكامل وللتفكير والبحث العلمى المستقل باللغة العربية ، ولذلك نبغ من علمائنا العرب فى الزراعة من ترجمت أعمالهم إلى اللغات الأوروبية بيسر وسهولة ، إذ لا غموض ولا التباس ، وأذكر أننى عملت مع الأستاذ أسعد حليم فى الصيف التالى فى ترجمة موضوع عن الأسماك ، وكانت المشاكل أكبر مما نستطيع التغلب عليه وحدنا ، فتصدى رئيس القسم لجميع المصطلحات الجديدة ، وجعل يعقد اللقاءات المتوالية مع خبراء مصايد الأسماك من البلدان العربية ، إما فى روما أو خارجها ، حتى استطعنا فى آخر الصيف تحقيق مضاهاة شبه كاملة بين مصطلحات اللغتين ، وكان المعجم الصغير الذى صدر فيما بعد ثمرة لهذا الجهد الدائب .

وكان من مصادر مصطلحاتنا كتب اللغة القديمة ، إذ ترك العرب تراثًا حافلاً من المصطلحات العلمية ولو أنه مبثوث دون نظام فى كتب اللغة ، ومعظم الفضل فى اكتشافه يرجع إلى عرب شمال إفريقيا حتى أقصى الغرب ، إذ إنهم حاولوا فى إبان موجة التعريب بعد الاستقلال عن فرنسا إيجاد مرادفات لكثير من مصطلحات العلوم الحديثة ، وقد نجد أن بعض مصطلحاتهم الجديدة طريفة ، أو قد نضحك منها فى لغة السياسة لأننا لم نعتدها فى المشرق ، مثل قول أهل تونس 'بالحسنى' بدلاً من 'سلميًا' (الحل السلمى أو التسوية السلمية = بالحسنى) ولكن بعض مصطلحاتهم العلمية أدق ، مثل التفرقة بين الغرس (plant-ing) والفلاحة (agriculture) والزراعة (farming) وكذلك تفرقتهم بين كلمتين تشتركان فى الكثير وتختلفان فى القليل وهما management و administration فهم يترجمون

الأولى بالتدبير (وما أجملها) والثانية بالإدارة ، ونحن لا نجد سوى الكلمة العربية الأخيرة ترجمة للكلمتين الأجنبيتين ، وأحيانًا ما نضيف بعض الصفات للتمييز بين معنى الأولى والثانية . ولكننا لن نستطيع نقل جمال كلمة 'التدبير' ترجمة للأولى خصوصًا ونحن نقرأ ما طرأ عليها من تطور فى الانجليزية المعاصرة . ولقد تذكرت فضل أهل المغرب العربى علينا حين قرأت كتابًا للدكتور محمود عرفة محمود ، أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة ، عن العرب فى الجاهلية فوجدت معظم أسماء الآلات الزراعية التقليدية التى كنت أبحث عن مقابلات لها بالعربية دون جدوى !

وعندما عدت إلى مصر فى سبتمبر كنت عازمًا على توسيع نطاق معارف الطلاب لدينا باللغة الانجليزية العلمية ، ولكن الجيل القديم من الأساتذة لم يكن يهتم بالترجمة اهتمامى بها ، وكان المبحث الجديد الذى يطلق عليه اسم 'اللغويات' أو علم الألسنة (كما يقول العقاد) يجتاح جامعاتنا فلا يكاد ينجو أحد من الإصابة به ، وكانت الدكتورة فاطمة موسى قد سافرت إلى المملكة العربية السعودية فى إعارة وتركت رئاسة القسم للغوىّ ضليع هو الدكتور سعد جمال الدين ، وكان يطمح فى تكوين قاعدة عريضة من اللغويين المتخصصين ، ولم يكن بين الكبار من يساند دعوتى إلى الاهتمام بالعربية الاهتمام الواجب .

وشُغلت بصدور نص مسرحيتى ميت حلاوة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب فى عام ١٩٧٩، وكان سعر النسخة ٣٥ قرشًا، وقد كتب لها سمير سرحان مقدمة طويلة جعلت فى آخر الكتاب تذييلاً للنص ، وكان الأمل يتضاءل فى أن ترى النور على خشبة المسرح، فقدمت المسرحيات القصيرة الأربع إلى صلاح عبد الصبور (رئيس الهيئة) فوافق على نشرها فى سلسلة المسرح العربى (وظهرت فى العام التالى بعنوان السجين والسجان ومسرحيات أخرى). وما كدنا نبدأ العام الدراسى (١٩٧٩ - ١٩٨٠) حتى تردد فى الأوساط الثقافية نبأ اعتزام الاحتفال بعيد ميلاد طه حسين ، وقرر الدكتور حسين نصار - عميد الكلية - إقامة مؤتمر علمى ومهرجان فنى بالكلية بهذه المناسبة ، ووقع الاختيار علينا أنا وسمير سرحان لكتابة نص مسرحى عن حياة طه حسين يقدمه طلاب الكلية، واختار سمير المخرج فهمى الخولى لإخراج العرض.

وعكفنا أنا وسمير على قراءة طه حسين وما كتب عنه ليلاً ونهارًا ، ثم وضعنا الخطوط الرئيسية للعرض المسرحى ، وقسّمنا العمل فيما بيننا بحيث أركز أنا على المعارك الأدبية مثل معركة كتاب فى الشعر الجاهلى وقضية النحل ، ويركز هو على المعارك الثقافية والسياسية،

كما انفرد بكتابة بعض مشاهد حياته فى القرية وزواجه من سوزان . وكان الجو آنذاك مشحونًا بنشاط الجماعات الدينية التى جعلت همّها إعادة المرأة إلى المنزل ، وتحريم كل شىء عليها ، وكان ظهور هذه الجماعات وانتشارها سرًا غامضًا ، وما زلت عاجزًا عن رصد بدايتها، وقد كتبت عن ذلك فى مقدمتى الانجليزية لترجمة كتاب أحمد بهجت مذكرات صائم ، وما زلت أذكر يومًا فى عام ١٩٦٩ حضرنا فيه أنا ونهاد زوجتى حفلاً أحياه عبد الحليم حافظ فى لندن ، وغنى فيه أغنية عن القدس تحدث فيها عن الله وعن الإيمان ، فسمعت أحد الجالسين من العرب إلى جوارى يقول ''هلاّ عرفتوا الله يا مصريين ؟!'' (أى هل عدتم الآن إلى الإيمان بعد هزيمة ١٩٦٧ ؟) .

واتفقنا أنا وسمير على أن يكون المشهد الأول حيًا (ربما أكثر من اللازم) بأن يبدأ العرض بمشهد من مسرحية أوديب التى ترجمها طه حسين ، فينبرى أحد الطلاب ، الذى كان يشارك بالتمثيل فى العرض ولكنه يجلس بين المتفرجين فى الصالة ، فيتقدم من خشبة المسرح ويقول للممثلين : فلتذهب المرأة إلى المنزل فهى حرام فى حرام ! وهنا يتصدى له طه حسين فيقنعه بالمنطق بخطل رأيه ، ومن ثَمّ تبدأ أحداث المسرحية . وبعد ليلة العرض الأولى ، وكانت تحضرها السيدة جيهان السادات ، طلبنا منها أن ينتقل العرض من مسرح الأزبكية (حيث الاحتفال) إلى الطليعة ويعرض على الجماهير أسبوعين . ووافقت . وأذكر أننى ذهبت (بعد انتقال العرض) إلى منزل الدكتور لويس عوض واصطحبته بالسيارة إلى مسرح الطليعة حتى يراه ، وسُرَّ سرورًا كبيرًا ودُهش وأنا اصطحبه فى نهاية المسرحية إلى المنزل من أننا استطعنا فى ذلك الجو الفنى الخانق أن نقدم هذا العرض التسجيلى الجميل ، ثم ضحك وقال : انتو عاملين سوزان عاشقة رومانسية ؟ دى كانت une femme dragon (قالها بالفرنسية - أى امرأة كالتنّين) ثم قال إنها كانت تشير إلى زوجها بلقب الباشا ، فكان حين يتصل به بالتليفون مثلا تقول له le pacha n'est pas la (الباشا غير موجود !) .

وأذكر ذات يوم عندما بدأ العرض ، وانبرى الطالب الذى يمثل دور المتطرف للممثلين ، أن صدقت إحدى المتفرجات أنه فعلاً من الجمهور وصرخت خائفة على نفسها من الجماعات الدينية ونهضت تجرى حتى أقنعناها بأنه تمثيل فى تمثيل ! وعندما شَاهَدَتْ فريدة النقاش - صديقتى القديمة - ذلك العرض قالت 'كويس خالص .. بس ليه بقى 'مصر للمصريين' ؟'' وسكتتْ، فالواضح أنها تعرف أن ذلك جزء من تاريخ طه حسين ، ولكنها كانت تخشى - مُحقّةً - العزلة العربية التى بدأت بعد توقيع معاهدة السلام .

وفى صباح يوم من أيام السبت زارتنى اعتدال عثمان -- الكاتبة المشهورة وتلميذتى السابقة - فى الجامعة ، وكانت تعمل فى هيئة الكتاب ، وكان صلاح عبد الصبور يحبها ويحترمها فعهد إليها بالإشراف على تجارب طباعة مسرحية مسافر ليل فى ترجمتى الانجليزية ، وراجَعَتْ معى فى الكلية بعض النقاط الخاصة بالتذييل ، وكنا نطبع آنذاك على ورق 'البرومايد' قبل الانتقال إلى الكمبيوتر والكَلْك ، وكان سمير سرحان قد كتب لها مقدمة بالانجليزية ، فراجعت 'التجربة' (البروفة) كلها وسَعِدْتُ بأن المسرحية على وشك الصدور وقد تُرْجمتْ بعد ذلك من الانجليزية إلى عدة لغات أوروبية ، كما أعيد نشر النص الكامل فى أمريكا فى مشروع 'بروتا' الذى تشرف عليه سلمى الخضراء وروجر آلان .

وشُغلت بعد ذلك بمراجعة بروفات النص الذى حققتُه الشاعر وردزورث ، وكتبت له مقدمة طويلة بالانجليزية ، وأسميت الكتاب ''جدلية الذاكرة'' وفيه أطبق فكرة الجدلية الهيجلية على السيرة الذاتية التى كتبها الشاعر فى صورتها الأولى ، وشاهدت فى هيئة الكتاب ، أثناء التصحيح والمراجعة ، الدكتور ثروت عكاشة لأول مرة بعد عودتى من الخارج وكان يشرف على إعداد مجلد جديد من مجلدات تاريخ الفن التشكيلى .



٦

كنت فى عام ١٩٧٩ قد أتممت الأربعين ، وأحسست أن العمر يفلت من يدى دون تحقيق شىء ، فالسنوات العشر التى قضيتها فى انجلترا سنوات تحصيل واستيعاب لثقافة غربية لم يعد أحد يريدها ، وكان أشد ما يقلقنى هو عادة القصد فى التعبير ، وربما كان ذلك راجعًا إلى أسلوب التفكير الذى تعلمته فى أثناء الدراسة ، وأحيانًا ما كانت الفكرة تأتى بالانجليزية فأترجمها ، ومن شأن ذلك أن يجعل كلامى أشبه بأسلوب الترجمة (translationese) وهو أسلوب قبيح ، وإذا كنت قد نشرت ترجمة بالانجليزية تحمل اسمى (كتاب مصطفى محمود) ومسرحية لصلاح عبد الصبورعلى وشك الصدور (هى مسافر ليل) وأخرى لا تحمل اسمى (البحث عن الذات) وكتبت دراسة بالانجليزية عن الشاعر وردزورث هى مفارقة ماثيو أرنولد (أو Arnoldian Paradox) فى مجلة الكلية ، ودراسة بالانجليزية للمخطوط الذى حققته

على وشك الصدور ، فإننى لم أترجم إلى العربية إلا نصوصًا ثلاثة هى العزلة (مسرحية من تأليف هارولد بنتر، والساعة الناطقة (مسرحية قصيرة من تأليف توم ستوبارد) والبيت (مسرحية من تأليف داشيد ستورى) بل إن الأخيرة كانت بالعامية ! كما كانت ميت حلاوة والمسرحيات الأربع (السجين والسجان وغيرها) بل والإعداد الشيكسبيرى لزوجات مرحات كلها بالعامية ! وكان استعراض حصيلة هذه السنوات مخيبًا للآمال ، إذ تعلمت من كتابة نص العمر قضية عن طه حسين مع سمير سرحان أن النجاح فى مجتمع عربى لن يكون إلا بالعربية ، وأن اللغة العربية التى تشربت حبها فى طفولتى تعاتبنى مُرّ العتاب ، إذ إننى ، على اطمئنانى إلى قدرتى على الكتابة بالعربية ، وهو ما أكدته كتاباتى المتوالية فى الأهرام على امتداد عام ١٩٧٩ ، كنت أتردد حين أفاجأ أثناء الكتابة بكلمة عربية لم استعملها منذ سنوات عديدة ، تبرز كأنما من أعماق اللاوعى فأعجب لها وأدهش منها وأتوقف فى حيرة أتساءل إن كانت صحيحة ، ولذلك كنت أكثر من الاختلاف إلى قسم اللغة العربية لأطرح أسئلتى عن الكلمات أو العبارات أو المسائل النحوية على الدكتور يوسف خليف ، العلامة والشاعر المرهف والإنسان الفذ ، ولم يكن يضيق بى مهما تعددت أسئلتى ، وأحسست أن الغياب عن اللغة طيلة هذه الفترة أفقدنى الثقة فى صحة ما أكتب ، وأورثنى الخوف من الاتهام بالتفرنج ، أو ما يتهم به دارسو الآداب الأجنبية من ضعف فى اللغة القومية .

وكان من عادتنا فى تلك الأيام أن نتردد أحيانًا على مطعم فى وسط البلد ، فى شارع متفرع من شارع طلعت حرب اسمه 'ركن الكباب' فنتناول العشاء بعد عمل اليوم الطويل الشاق ، وكان أربعتنا - سمير سرحان ونهاد جاد ، وأنا ونهاد صليحة - النواة الدائمة ، كما كان من بين الصحبة أيضًا محمد جلال الروائى ، وعايدة عبد العزيز الممثلة (وزوجها أحمد عبد الحليم عندما يزور مصر) وكنت فى هذه الجلسات أستمع ولا أُكثر من الكلام ، كما كنا نلتقى كثيرًا فى منزل سمير سرحان فى روكسى ، وكان الحديث يتشعب ويتفرع ، وإن كان يدور فى معظمه حول الفن والأدب ، وسمير سرحان كريم مضياف ، يحب الناس ، سريع البديهة ، قادر على تحويل دفة الحديث إذا تجهمت نبراته إلى ما يسرّى ويخّفف ، أو يسرُّ ويلطّف ، فخياله خصب لا نهاية لخصبه .

وذات يوم كنا نسير أنا ونهاد زوجتى فى وسط البلد حين شاهدنا ديوانًا جديدًا لصلاح عبد الصبور عنوانه الإبحار فى الذاكرة فاشتريناه وانتهى بنا السير إلى مقهى 'لاباس'

القديم الذى شهد بدايات حبنا فى الستينيات ، وجلسنا نتصفحه ، فوجدنا أن قصائده تكاد تترجم نفسها دون مشقة ، وامتد بنا الوقت ونحن نطلب القهوة بعد القهوة ، حتى انتهينا من ترجمة بعض ما فيه ، وعندما عدنا إلى المنزل عكفت عليه فأنجزت جانبًا كبيرًا منه ، وكنا فى عطلة رأس السنة الميلادية ، فكتبت نهاد - متطوعة - بعض القصائد المترجمة على الآلة الكاتبة ، وأحببت أن تكون تلك نواة لمجموعة شعرية كاملة .

ولم تلبث المصادفة أن لعبت دورها ، إذ كان الشاعر الأمريكى ستانلى كونيتز Kunitz فى زيارة لمصر ، فاستضافه صلاح عبد الصبور فى منزله ، ودعانى للمشاركة فى حفل الاستقبال المحدود ، واصطحبت معى القصائد المترجمة ، وقرأتها على الحاضرين ، وكانوا مزيجًا من الأجانب والمصريين ، فسُرُّوا سرورًا عظيمًا ، وكان صلاح عبد الصبور أكثرهم سرورًا بما شعر به من 'حرية' فى النقل (على ما حفلت به الترجمة الانجليزية من الأساليب البريطانية التى علق عليها الشاعر الأمريكى) وعندما رددت الزيارة دعوت الدكتورة أنجيل بطرس والدكتور جرجس الرشيدى (أستاذى القديم وزوج الدكتورة أنجيل) والدكتور مصطفى سويف والدكتورة فاطمة موسى (زوجته) وسمير سرحان طبعًا ونهاد جاد - وعلى رأس المدعوين صلاح عبد الصبور وسميحة غالب (زوجته) . ولم يكن الحفل المحدود فى منزلنا ذا طابع أكاديمى - كما توحى أسماء المدعوين - بل كان ذا طابع أدبى خالص ، وإن لم يخل من مناقشات أكاديمية عند قراءة عبد الصبور لأشعاره وقراءتى لترجماتها .

وساقت المصادفة إلىّ فى مطلع العام الدراسى ٧٩ - ١٩٨٠ الدكتور مختار التهامى ، الذى أصبح عميدًا لكلية الإعلام ، وكان مدرسًا للغة الانجليزية فى مدرستنا (الأورمان النموذجية) عام ٥٤ - ١٩٥٥ حين حصل على الدكتوراه وكان صديقًا للدكتور سعد جمال الدين (رئيس قسمنا) فجاء يطلب منه بعض المتخصصين فى الترجمة ، وأستاذًا لتدريس مادة الفكر العالمى المعاصر بحيث يركز فيها على المسرح بدلاً من التركيز على الأفكار التى كانت الجامعة تنظر إليها بشك وارتياب - أى الفلسفات المعاصرة وتجلياتها الاجتماعية والسياسية ، إذ كان رئيس الجامعة الدكتور حسن حمدى غير سعيد بما سمعه عما يدرّس فى إطار تلك المادة ، وكان الذى يدرسها قبلى هو الدكتور حسن حنفى (من قسم الفلسفة لدينا) فأُلغى انتدابه وجئ بالدكتور عزت قرنى (من قسم الفلسفة بجامعة عين شمس) ولم يكن حظه بأفضل من سلفه ، فانتهى الرأى إلى تعديل اللائحة ، وذلك يقتضى إجراءات مطوّلة ، فقال له الدكتور مختار

''أنا آتيك بمن يدرس المادة مقتصرًا على المسرح دون سواه'' - ولكن الدكتور مختار كلفنى بتدريس الترجمة أيضًا وتدريس الدراما لطلاب شعبة الإذاعة والتليفزيون ، فكان لى فى ذلك العام ما يشبه الجدول الدراسى الكامل باللغة العربية ، وهو ما عوضنى عن البعد عن الأكاديمية .

وفى خضم انشغالى بالتدريس فى قسمنا وفى كلية الإعلام ذكّرنى سمير سرحان بأن موعد ترقيتى يحين فى عام ١٩٨٠ ، وكان قد حصل هو على الأستاذية عام ١٩٧٩ ، وحصل عليها من قبله عبد العزيز حمودة ، وفهمت أن مقصده هو أن أبذل جهدًا أكبر فى الأبحاث الأكاديمية ، ووعدته بذلك لكنه أضاف إن علىّ أن أجمع ما نشرته من ترجمات مع مقدماتها (العربية والانجليزية) فهى مما يحسب لأساتذة اللغة عند الترقى ، وأن أضعها فى كتب مستقلة حتى تجد اللجنة العلمية مادة تقرؤها وتحكم عليها . وفعلاً كتبت دراسة عن الشعراء العرب المعاصرين بالانجليزية أرصد فيها عن طريق المقارنة مع الشعراء الانجليز جوانبهم الرومانسية ومظاهر الحداثة لديهم ، ولم أنته منها إلا فى منتصف عام ١٩٨٠ ، إذ تطلبت ترجمة بعض المعاصرين (إلى جانب صلاح عبد الصبور) مثل أحمد عبد المعطى حجازى وفاروق شوشة ومحمد إبراهيم أبو سنة وفاروق جويدة ووفاء وجدى وصلاح جاهين وملك عبد العزيز وأمل دنقل ونجيب سرور ونصار عبد الله وغيرهم وأصبحت فى يدى مادة تصلح لكتاب (لم ينشر إلا بعد خمس سنوات أو ست) ، وجمع المقالات التى كنت نشرتها فى مجلة فنون ومجلة المسرح والسينما ومجلة نادى المسرح التى توقفت عن الصدور بعد اكتشاف تلاعب مرسى النويشى فى الحسابات وتخريبه للميزانية ، ووضعها معًا فى كتاب اسميته فن الكوميديا ، كما جمعت المسرحيات التى ترجمتها إلى العربية مع مقدماتها ونشرتها فى كتاب مستقل بعنوان ثلاثة نصوص من المسرح الانجليزى ، وصدر الكتابان فى عام ١٩٨٠ .

وفى مطلع العام الدراسى ١٩٨٠ - ١٩٨١ ، وكنت قد عدت لتوى من روما بعد قضاء الصيف مع نهاد زوجتى وابنتى سارة ، ما بين العمل والتسرية ، جاءتنى إحدى طالباتى السابقات من كلية الإعلام (اسمها شويكار) ، وكانت قد التحقت بالعمل فى الإذاعة فى قسم البرامج الموجهة تطلب ترجمات للشعر العربى لإذاعتها (مع مقدمات) . ورحبت بالفكرة وأعددت لها مجموعة من القصائد للشعراء الذين ذكرت أسماءهم مع مقدمات موجزة ، وتوالت إذاعتها فى شتاء عام ١٩٨٠ ، وتوالت الرسائل من أمريكا وكندا وأستراليا والهند

(وهى البلدان التى يستمع أهلها إلى تلك الإذاعات الموجهة) تثنى على البرنامج مما دفع عبد الحكيم فهيم ، رئيس القسم ، (وكان من زملاء دراستى فى الجامعة) إلى طلب رفع أجرى من جنيه ونصف فى الدقيقة إلى جنيهين ، ووافق مدير العقود محمود مصطفى ، فيما يشبه المعجزة، إذ كان معروفًا عنه الحرص على المال العام .

كنت فرحًا بالتقدير الأدبى أولاً ، إذ انفرجت ضائقتى المالية بعد العمل فى منظمة الأمم المتحدة المذكورة ، وكانت التزاماتى فى الكلية تقتصر على التدريس ، فلم يكن لى حق الإشراف على الرسائل أو مناقشتها ، وكان نشاطى الأدبى يكاد ينحصر فى الترجمة ، بعد أن توارى حلم تقديم مسرحياتى على المسرح أو تراجع ، وكان فى الترجمة عوض أى عوض ، وخصوصًا ترجمة الشعر ، فالشعر لغة عالمية ، ونبضه هو نبض الإنسان نفسه ، وموسيقاه تطرب قبل أن تنطق معانيه ، وكنت أومن وما زلت بأن الشعر لا يترجم إلا شعرًا ، ولكن الشعر نشاط فردى شبه خاص ، والمسرح نشاط جماعى جماهيرى يعتمد على التواصل الحى مع البشر ، وكنت وما زلت أتردد بين هذا وذاك ، حتى حين كتبت بعد عدة سنوات أولى مسرحياتى الشعرية ، فالهوة التى تفصلهما كبيرة ، والشعر الغنائى (lyrical) أى الشعر الذى يتحدث فيه الشاعر بصوته مباشرة دون أن يتخفى وراء قناع أو أقنعة ، بعيد كل البعد عن لغة المسرح حيث تتحرك الشخوص وتتحدث فيما بينها وإلى الجمهور حتى ما تكاد ترى المؤلف أو تسمع له حسًا ، ولكن الشعر صعب وطويل سلّمه ، وترجمته أيسر من نظمه !

وفى عام ١٩٨٠ وافق صلاح عبد الصبور على إصدار مجلة تابعة لهيئة الكتاب تعنى بالنقد ومدارسه الحديثة، وعُيّن عز الدين إسماعيل رئيسًا لتحريرها، وذهلت عندما شاهدت العدد الأول إذ كان مجلدًا ضخمًا يضم أشتاتًا من مدارس النقد الحديثة والقديمة، ويحتفل احتفالاً عجيبًا بالبنيوية، وهى المدرسة التى كانت شمسها قد غربت قبل عشر سنوات على الأقل، وكان المتوقع ممن يكتب فيها أن يطيل فيسهب، ويكرر فيطنب، فكانت الدراسات مطولة حافلة بالأسماء الأجنبية التى تخيف القارئ، ولكنها كانت تمثل ولا شك صحوة أدبية مرموقة، وكانت تعتبر – من أحد جوانبها – ردًا على المقاطعة العربية ، كما قال حسن!

"حسن ! أين كنت أيها العفريت ؟" صحت فى رنة فرح صادقة عندما صادفته ذات يوم عند باب مبنى الإذاعة والتليفزيون ، وضحك ضحكته الصافية وقال لى "هنا ما ينفعش ! تعال معى !" واصطحبنى إلى داخل المبنى ، واتجهنا يسارًا إلى مصعد الإذاعة ، وقال لى :

"عندى إذن صرف سريع .. وبعدين نتكلم !" وانتهى من تحصيل المبلغ الذى كان كبيرًا ، ثم عرجنا على المكتب الصحفى فى الدور المسحور ، وسلّم على بعض أصدقائه فيه ، ثم جلسنا فطلب لى القهوة وشرع يحكى لى أنه تحوّل إلى الكتابة الإبداعية والنقد ، ولكنه لا ينشر فى الصحف المصرية بل فى الصحف العربية الأخرى خارج مصر ! وسألته عن المبلغ الذى ناله من الإذاعة المصرية منذ لحظات فقال "ده عمل مشترك ! وسوف أحكى لك !"

كان موجز ما حكاه حسن على امتداد ما يقرب من ساعة كاملة هو أن البلدان العربية الغنية بالبترول انتهزت فرصة تجميد العلاقات مع مصر (وإن كان ذلك شكليًا فقط) وانطلقت تصدر صحفًا ومجلات جديدة ، وهى ترحب كل الترحيب بكتابات المصريين ، وترحب ترحيبًا أشد بمن ينتقد الأحوال فى مصر ، سواء أكانت أحوال الثقافة أم أحوال السياسة ، وسرعان ما فطن المصريون إلى ذلك فانقضوا انقضاض الطيور الجارحة على الموائد الحافلة ، وقال إنه يفضل أن يكتب عن أحوال السينما والمسرح ، حتى لا يغضب السلطات فى مصر إذا كتب عن موضوعات ذات أبعاد سياسية ، وأكد لى أنهم يرحبون بكل من يكتب ، فإذا كان اسمك مسبوقًا بلقب الدكتور ضمنت مكانًا ثابتًا ! وسألته عن شأن الإبداع فقال إن المصريين يتسمون بسعة الحيلة ، فأنشأ بعضهم شركات أو وكالات مشتركة للإنتاج الإذاعى والتليفزيونى ، ومزية هذا اللون من الإبداع هو أنه لا علاقة له بالسياسة من قريب أو بعيد ، وأضاف شارحًا مقصده "لقد انتهيت من كتابة سباعية عن صعصعة محيى الموءودات فى الجاهلية ... وتقاضيت عنها ذلك المبلغ الهائل !" وسألته : ولكنك أخذت المال من الإذاعة المصرية ، فقال حسن" المقاطعة ليست رسمية كما تعرف ، والعرب يهددون بقطع العلاقات إذا وقّعت مصر معاهدة السلام فى إبريل ١٩٨٢ بعد جلاء إسرائيل عن سيناء ، وهذا مستبعد طبعًا !" فقلت له "تقصد قطع العلاقات ؟" فقال بسرعة – "كل شىء يسير على ما يرام !" فسألته إن كان ما زال يمارس التمثيل فأجاب بلهجة من يستنكر السؤال "فى كل مسلسل وكل سهرة !" ولما رأى دهشتى وعجبى أضاف قائلاً : "أجمل شىء فى الإنتاج الجديد هو الذقون ! الإذاعات والتليفزيونات العربية تريد أن تملأ ساعات إرسال والمستشارون يرون أن السلامة فى التاريخ! وخصوصًا لو كان تاريخًا معروفًا ولا خلاف عليه .. وهكذا اتجه الجميع إلى التاريخ المجيد بحجة ظريفة غاية الظرف .. وهى إذكاء الروح القومية وأمجاد العرب الخوالى ! وكل واحد لبس لحية مستعارة وعباية وما إلى ذلك .. وصوّر يا جدع !" فقلت له ولكن أليس فى هذا

سياسة ؟ أليس فيه انتقاد غير مباشر لمصر ؟ وضحك قائلاً "وهل تنكرت مصر للماضى العريق ؟ إننا رسميًا نسير فى نفس الطريق ونقول إن استرداد أرضنا المحتلة انتصار يحيى أمجاد الماضى ! بل إننا نؤكد هذا الاتجاه التاريخى وندعمه ، فنحن لا نتخلى أبدًا عن التاريخ ولا عن العرب والعروبة ! وأنا أكتب الآن مسلسلاً عن عمر بن عبد العزيز - وأرجو ألا يسبقنى إليه أحد ، فهو مطلوب فى إذاعة قَطَر !" ورأى دهشتى الشديدة ، فأخرج من حقيبته عقدًا بمبلغ كبير قائلاً "إنك تضيّع وقتك فى الجامعة !" وأكدت له أننى سعيد بعملى وأننى لا أحتاج إلى مثل هذه المبالغ فضحك وقال "أنت حر !" ثم نهضنا واتجهنا خارجين ، ولاحظت أننا على وشك أن نفترق دون تبادل الأخبار 'الشخصية' فعنّ لى أن أسأله عن الأسرة ، والتفتُّ إليه بعد فترة صمت كأنما لألقى السؤال فإذا به يبادرنى بالرد قبل أن أسأله "أنا رجعت حرًا من جديد !" وتوقفت عن السير فوقف . وبعد ثوان أضاف : شعلة الحب انطفأت وكان لابد من الانفصال ! وسألته عن الطفل فقال "لقد أنجبت بنتا ونحن على اتصال من وقت لآخر !" ولما رأى عبوسى وتجهمى ، قال لى وكنا قد خرجنا من المبنى ونقف على السلم الخارجى "كانت غلطة .. وكل منا يعرف ذلك .. ولن تتكرر !" وأعطانى بطاقة فيها اسمه وعنوانه وأرقام التليفونات ، وألح علىّ قبل أن نفترق أن أتصل به للتفكير فى مشروع فنى كبير!

كنت ولا أزال شديد الإعجاب بقدرة حسن على تطويع نفسه للظروف المتغيرة ، وكنت ولا أزال أحسده على هدوء أعصابه وقدرته على التحكم فى مشاعره ، وكان ينتدب للتدريس فى الأكاديمية أحيانًا فيبهر الطلاب بمعارفه الواسعة ، وإذا ضمته ندوة ثقافية لم يكن أعلى الحاضرين صوتًا بل أثبتهم جنانًا وقدرة على الرد المفحم المقتضب ، ولكنه كان مولعًا بالمواقف الدرامية فى الحياة اليومية ، وقد قال لى بعد ذلك إنه لا يكذب أبدًا فإذا تحتم الكذب لجأ إلى الصمت وتذرع بالصبر . وخصوصًا فى علاقاته مع الجنس الآخر ، وهى التى تشعبت وذاعت أنباؤها . وفى سبتمبر ١٩٨٠ ، ومع نشوب الحرب العراقية الإيرانية ، سمعت أنه سافر إلى العراق منتدبًا للعمل فى إحدى جامعاتها . أما زوجته فقد جمعتنى الظروف بها بعد ذلك عدة مرات .

وفى أكتوبر ١٩٨٠ كُنت فى مكتب الدكتور حسين نصار (العميد) حين قابلت الدكتورة فاطمة موسى ولامتنى على عدم التقدم للترقية !

٧

كثرت لقاءاتى كما قلت مع صلاح عبد الصبور ، وعندما صدرت ترجمتى لمسافر ليل فى عام ١٩٨٠ ازداد اقترابنا ، ولكنها لم تصدر عن الهيئة العامة للكتاب بل عن إدارة العلاقات الثقافية الخارجية بوزارة الثقافة ، وأما كتابى بالانجليزية عن جدلية الذاكرة Dialectic of Memory فقد صدر عن الهيئة فى عام ١٩٨١ ، بعد ميت حلاوة ومجموعة السجين والسجان (١٩٧٩ و ١٩٨٠ على الترتيب) ومن ثم توثقت علاقاتى بالعاملين فى الهيئة أيضًا، وعرفت من بينهم الشاعر سعد درويش الذى تخرج فى قسم اللغة الانجليزية ، وكان فى أواخر الخمسينيات من عمره ، وبالفنان سعد عبد الوهاب (الرسام لا المُغَنىّ) ، وبمجموعة العاملين فى إدارة النشر ، وعلى رأسهم لمعى المطيعى الكاتب المشهور ، وفى شتاء عام ١٩٨٠ - ١٩٨١ كنا نتبادل الزيارات العائلية مع أسرة صلاح عبد الصبور ، وكان سمير سرحان ونهاد جاد كثيرًا ما يزوراننا فى المنزل ، وإن كانت زياراتنا أنا ونهاد لهما أكثر وكان كوبرى ٦ أكتوبر (الكوبرى الجديد) قد اختصر زمن المسافة بيننا وبين روكسى إلى أقل من النصف ، وذات ليلة من ليالى الشتاء تردد فى الأوساط الثقافية أن وزارة الثقافة بصدد إقامة احتفال بذكرى الزعيم الوطنى محمد فريد ، وعُقد اجتماع فى الوزارة اقترح فيه عبد الصبور تقديم عمل مسرحى غنائى أو موسيقى لإحياء تلك الذكرى ، وكان وكيل الوزارة المسئول آنذاك هو فؤاد العرابى (ابن زكى العرابى باشا) واقترح أن يكتب النص سمير سرحان ومحمد عنانى بعد نجاح المسرحية عن طه حسين ، وأن يتولى إخراجها سمير العصفورى ، وسرعان ما بدأنا العمل ، فأحضرنا كل ما كُتب عن محمد فريد من دار الكتب (استعارتها لنا سهير مديرة مكتب صلاح عبد الصبور) واشتريت أنا مذكرات محمد فريد ودرست المقدمة التى كتبها الدكتور رؤوف عباس أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة القاهرة ، كما كان يتردد فى الأوساط الثقافية أن مصر تنتوى إرسال وفد ثقافى إلى أمريكا فى مارس ١٩٨١ للطواف ببعض جامعاتها بغرض التعريف بأحوال مصر الحديثة ، وكأنما كانت تلك مبادرة للتصالح مع العالم قبيل الدخول فى عملية السلام الحقيقية بالجلاء الكامل للقوات الإسرائيلية عن الأراضى المصرية بعد عام تقريبًا .

وعكفنا - أنا وسمير - على العمل ، فانتهينا من النص بسرعة ، وبدأ العصفورى تجاربه المسرحية ، وكنا نحضرها حتى نلبى بعض طلباته ، وكتب الأغانى شاعر يدعى أحمد عفيفى. كان يعمل ممثلاً (موظفًا) فى فرقة المسرح الحديث ، وانشغلنا فى ذلك الشتاء بهذا العمل المسرحى الضخم ، إذ حشد العصفورى له نخبة من كبار الممثلين إلى جانب المجموعات (الكورس) والمغنيات أذكر منهن زينب يونس وإيمان الطوخى وسهير طه حسين ، وكان البطل هو محمد السبع - الممثل الشهير والقدير ، وقد دهشت لرؤية إيمان الطوخى تغنى إذ كانت إحدى طالباتى فى كلية الإعلام ، وكانت مجدة مجتهدة ، وعندما زار المسرح الممثل العظيم محمد الطوخى ليطمئن على ابنته ويشهد جانبًا من البروفة طلب منه العصفورى إلقاء بعض سطور من النص فبهر الحاضرين بصوته الرخيم ، وإذا بمحمد السبع يحتج ويهدد بالانسحاب! وربما لا يعرف الكثيرون أن الممثلين يدخرون جهد الأداء (إذا كانوا كبارًا) حتى يبدأ العرض ، وكان محمد السبع واثقًا من نفسه فلم يبذل جهدًا فى الأداء ريثما ترتفع الستار، وكان سمير العصفورى قلقًا كشأنه دائمًا يريد أن يسمع فيطرب ويطمئن ، ومنذ تلك اللحظة لم يعد محمد السبع يدخر جهدًا فى الأداء حتى يرضى العصفورى - ويبعد شبح منافسة محمد الطوخى !

وكان العصفورى يستعين بمعظم أفراد فرقة مسرح الطليعة مثل زايد فؤاد ومحمد فريد وعادل خلف وأحمد عقل وأحمد راتب وعهدى صادق وغيرهم لأنه كان يريد أن ينسب الإنتاج لفرقة مسرحه، وقد ظل متربعًا على عرشه سنوات طويلة باستثناء فترات محدودة - حتى أصابه الاكتئاب من حال المسرح المصرى فتركه ! وكان ما يسميه العصفورى بالمعمل أو المختبر (اللابوراتوار) هو فى الحقيقة تطوير النص أثناء البروفات بما يلائم مزاجه النفسى ، وهو مبدع خلاق ، فاقترح ذات مساء إضافة شخصية العمدة المصرى لتجسيد بعض ألقيم الأصيلة فى مصر، والغريب أنه كان محقًا فى وجهة نظره ، فقارئ النص قد لا يكتشف الحاجة إلى تلك الشخصية ولكن التجارب المسرحية كشفت عنها ، فسهرنا أنا وسمير وأعدنا كتابة المشهد، وفى ليلة التجربة النهائية حضر فؤاد العرابى بصفته الرسمية فى الوزارة وصلاح عبد الصبور بصفته نائب وزير الثقافة وكانا يمثلان "الرقابة" وصدرت موافقتهما .

وعرضت المسرحية وأذيعت مباشرة على الهواء فى الإذاعة والتليفزيون ، وحضر العرض الرئيس السادات ، وبعد العرض وتحية الجمهور ، جرينا أنا وسمير لمقابلة الرئيس فمنعنا رجال الأمن فإذا بجيهان الصغيرة (نانا) تهرع إلينا وتأخذنا إليه وتقول له ها هما من كتبا

النص فأثنى السادات على العمل وقال ''دراما جميلة ومؤثرة !'' وكان سمير سرحان فى أثناء الاستراحة قد خاطب المسئولين فى وزارة الثقافة فى حضور السيد الرئيس حتى يوافقوا على صرف تكاليف العرض ، لأن أحدهم واسمه جمال حمزة ، وكيل الوزارة للشئون المالية والإدارية، كان يؤمن بأن يعمل العاملون بلا مقابل ، وإذا قبل الاستثناء من ذلك وقرر دفع مبلغ ما فلابد أن يذيق المبدع الأمرّين قبل أن يعطيه حقه .

وبعد أسبوعين تأكد خبر رحلة مصر اليوم ، إلى أمريكا وأنه برنامج ترعاه قرينة الرئيس، وكنت فى منزل صلاح عبد الصبور وكان يوسف إدريس قد انتابته أول أزمة قلبية ، فجعل يحكى لنا ما أحسه وكيف واجهها ، وفاتحت صلاحًا فى أمر سفرنا أنا وسمير ، فقال يا ريت! لكن الوفد اكتمل ! ولما كنا على علاقة طيبة بالوزير فقد خاطبناه فوعد خيرًا ، وقبيل السفر بأيام تشفعت لنا السيدة الأولى فانضممنا إلى الوفد وكان يتكون من سهير القلماوى ومرسى سعد الدين ولويس عوض وفرخندة حسن ومحمد شعلان وأستاذ فى العلوم لا أذكر اسمه وصلاح عبد الصبور وسعد الدين إبراهيم وسمير سرحان وأنا . وسافرنا إلى نيويورك حيث قضينا الليلة ، ولم يكن قد حجز لنا أحد غرفة فى أى مكان فاتصل سمير سرحان تليفونيا بمحمد حقى المستشار الإعلامى الذى تدخل فى اللحظة المناسبة حتى نقيم فى الفندق نفسه فى بروكلين وهو فندق 'هيات' بشارع ٤٢ !

وفى الصباح زارتنا الدكتورة منى نجيب ميخائيل الأستاذة فى قسم اللغة العربية بجامعة نيويورك - وزميلة سمير فى الدراسة بقسم اللغة الانجليزية - ومعها زميلة لها اسمها أَيْتِنْ هيكل (من أسرة هيكل باشا) وكان النشاط يتكون من زيارة للجامعة وعقد ندوات شاركنا جميعًا فيها ، وبعد الظهر ألقى لويس عوض محاضرة ينعى فيها تدهور الأدب العربى فى مصر، ويقول إن هناك اثنين فقط يعتبران معقد الأمل (هما جمال الغيطانى ويوسف القعيد) . ولكن طائرين لا يعنيان مقدم الربيع ! (وهو مثل انجليزى شهير) . وفى المساء بدأت ندوة الشعر فتحدث صلاح عبد الصبور ثم طلب منى إلقاء قصائده بالانجليزية ففعلت وهلّل له الحاضرون من أمريكين وعرب .

وانتقلنا إلى واشنطن بعد ذلك ، وتكرر السيناريو فى مؤسسة سميثونيان ، ثم سافرنا أنا وسمير وصلاح مع الأستاذ جورج عطية (رئيس القسم العربى) فى سيارته إلى جامعة بنسلفانيا فى مدينة فيلادلفيا ، حيث اجتمعنا مع المستشرق روجر آلان وبشاب عربى يدعى

عدنان حيدر ، ثم ألقيت بعضًا من شعر صلاح فقال روجر آلان "إنك رائع مصرى أعرفه يعرف الانجليزية" وكان من الطبيعى أن أشعر بالسعادة لوضعى فى قائمة تضم محمد مصطفى بدوى ولويس عوض ومجدى وهبة ، وأخذ روجر نصوص القصائد منى ونشرها فى مجلة الجامعة Nimrod فى الخريف التالى ، ودعانا إلى منزله حيث قابلنا زاهى حواس (الدكتور) الذى كان يدرس الآثار المصرية فى تلك الجامعة ، وسهرنا ما شاء الله لنا أن نسهر ثم عدنا إلى واشنطن .

وانتقلنا إلى الجنوب – إلى جامعة تكساس فى مدينة أوستن – وتكرر السيناريو ، وقابلنا الأستاذة فدوى ملطى دوجلاس وشاعر أمريكى اسمه جون دافيد لم يصدق أن الشعر الذى قرأته كتب أصلاً بالعربية ، ومن تكساس طرنا إلى لوس أنجيليس وزرنا هوليوود وسرنا فى شوارع بيفرلى هيلز ، واقترح لويس عوض ذات مساء أن نذهب إلى مرقص ، فماذا نخاف ؟ وذهبنا معه أنا وسمير سرحان ، وكان الضجيج رهيبًا والموسيقى تصك الآذان صكًا ، وكان أحد المغنين قد أطلق لحيته وبدا فى ثياب رثة ، فقال لويس عوض "إنه يشبه كارل ماركس ! وهذا يدل على تمرد دفين على قيم المجتمع !" وانصرفنا مبكرين ، وفى اليوم التالى قابلنا عفاف لطفى السيد ودعتنا إلى الغداء فى مطعم الجامعة . وكانت الأيام تمر سراعًا والأمريكيون يحتفون بنا فى كل مكان . وبعد عودتنا إلى مصر كتب لويس عوض مقالاً طويلاً فى الأهرام يصف أحداث 'المهرجان' ، وقدم فاروق شوشة أمسية ثقافية جمعتنى مع صلاح عبد الصبور حيث ذكر تعليق أستاذ أمريكى على ترجمتى قائلاً (Enani's English puts ours to shame) أى إن مستوى لغة الترجمة يجعلنا نخجل من مستوانا ، وقال لى شوشة ذات يوم إنه ما زال يحتفظ بشريط ذلك البرنامج ولم يمسحه .

وكان حلمى فى تقديم مسرحية ميت حلاوة الذى شحبت ألوانه ما فتئ يراودنى. وكان الجو الثقافى مصر غير واضح المعالم، فالمعارضة التى سمح لها السادات بإنشاء صحف وتكوين أحزاب تنقسم إلى يمين ضعيف ويسار قوى، وكان اليمين يتّهم اليسار بأنهم فلول المنتفعين بعهد عبد الناصر، واليسار يتهم اليمين بأنه متفسخ انتهازى بل ولا أخلاقى، وكنت أقرأ كتابات هؤلاء وهؤلاء، وأرى أن الموقف قد بدأت تظهر فيه اتجاهات سلفية مدمرة، ظهرت أول ما ظهرت فى صورة الجماعات الدينية، وكان التقسيم القديم إلى يمين ويسار يبدو 'غير واقعى'، فمجموعة أصدقائنا المقربين تعتبر أقرب إلى اليسار منها إلى اليمين، ولم أكن أشاهد

أحدًا يمكن وصفه بأنه من اليمين الصادق ، ولكننى كنت أرى فى 'ياسر' الطالب بقسم اللغة الانجليزية ما يمكن تسميته 'بالخطاب السلفى' الجديد، الذى كان ساعده يشتد يومًا بعد يوم، وكان يتوسل بالدين، أو بالظواهر المرتبطة بالدين مثل إطلاق اللحية وتربية 'الزبيبة' على الجبهة ، وإمساك السبحة، والحوقلة والبسملة بمناسبة وغير مناسبة، وكان ياسر داعية إعادة المرأة إلى المنزل، وقد أخذ يردد الآيات الوحيدة التى حفظها من القرآن عن الحجاب والاستقرار فى البيوت، وكان لدينا فى الحىّ مسجد صغير (زاوية) يؤمها الكثيرون ممن يستمعون إلى أمير الجماعة 'عزت' (رحمه الله) وهو من كنت تسمع فى خطبه نبرات اليسار واضحة جلية، فى إطار سلفى يتناقض كل التناقض مع تلك النبرات، وكان يجمع فى أحاديثه بين ما لا يمكن الجمع بينه من تحرر وحبس، وانطلاق وانغلاق، وكان سامعوه من الشباب يلتقطون من أحاديثه ما يروق لهم فيجعلونه سُنّة لمستقبل غامض ينذر بأخطر العواقب.

وذات يوم كنت ذاهبًا إلى الجامعة فى الصباح الباكر ، إذ كانت دروسى تبدأ فى الثامنة ، حين أشار إلىّ شخص ذو لحية قصيرة (عرفت فيما بعد أن اسمه فوزى) ، فتوقفت وسألته ما يريد فطلب منى توصيله إلى الجامعة حيث يعمل فى الإدارة ، ولاحظت عينيه الحمراوين فسألته ما الخبر فقال إنه لم ينم طول الليل إذ سهر فى الزاوية المذكورة حتى الصباح فى 'سبيل الله' ، وعندما سألته عن 'سبيل الله' قال إنه كان يقرأ الأوراد ويردد التعاويذ طول الليل ، وقلت له ''ولكنك لن تستطيع التركيز فى عملك بالجامعة .. وربما غفوت أثناءه !'' فقال بسرعة ''ما عند الله خير وأبقى !'' وكان حوارنا طيلة الطريق يسير على هذا النحو ، وفهمت منه عندما وصلنا أنه إذا غفا أثناء العمل فسوف يكون ذلك نعمة وفضلاً من الله وبركة ، لأنه لن يشاهد النساء فى العمل ، ولن يشاهد المجتمع الكافر !

هل يستطيع مثل هذا الشاب أن يستجيب لما كتبته فى ميت حلاوة ؟ وما موقفه من الفن عمومًا ؟ وما آراؤه فى السياسة والاقتصاد ؟ تراه يحسب على اليسار أم اليمين ؟ وماذا عساه أن يقرأ إذا قرأ شيئًا ؟ كان العائدون من الإعارة فى البلدان العربية الشقيقة يحضرون معهم لوازمهم من المعدات الحديثة ، وبعض الأفكار الثابته التى تقهر الفكر اليمينى واليسارى معًا وأهمها 'التواكل' - فغاية الإنسان فى نظر 'مصطفى المهندس' صديقى هى الزواج والتكاثر، إذ قضى معى ساعتين فى الجامعة (وكان يحاول إلحاق ابنه بإحدى الكليات المصرية بعد أن سُدّت منافذ الجامعة فى وجه أبنائه حيث كان يعمل) فى شرح أسباب 'وكستنا' (نكستنا ؟)

وأهمها أننا تركنا الله وأبدلناه بالإنسان، ولكن الذين 'توكلوا' على الله كوفئوا فى الدنيا دون مجهود، وسوف يضاعف الله لهم الأجر فى الآخرة. وقال لى مصطفى إن بناته عابدات قانتات مُحْصَنَات، وسوف يرزقهن الله بأزواج 'من السماء' يحققون لهن السعادة فى الدنيا والآخرة.

ما الذى حدث لمصطفى المهندس ؟ (وهو ليس قريبًا لفؤاد المهندس) لقد قضى فى بلد عربى شقيق خمس عشرة سنة ، ورجع فى حياته إلى مطلع القرن العشرين فى مصر ، حيث أصبح رب البيت المطاع ، وانتفشت ذاته وهو يأمر وينهى بين أفراد أسرته ، ويسمح لنفسه بأى قدر من الحرية يريده ، وكان ناجحًا فى عمله ، بل هو إدارى فذ نال درجته الجامعية فى المحاسبة ثم انتقل إلى الإدارة فنجح ، ولكنه لم يكن يستشعر الزهو الحقيقى إلا حين يمارس سلطته فى البيت ، فرؤساؤه فى العمل يحرمونه من كل سلطة . وعندما كنا نتذاكر أيام لهونا فى الجامعة فى الخمسينيات كان يلين وترق نبراته ويعود فى حضورى مراهقًا بل طفلاً بريئًا ، ولكننا إذا وجهنا دفة الحديث إلى المجتمع أصبح كالصخر قسوة وفظاظة ! ترى هل يستطيع أن يتجاوب مع ما كتبته فى ميت حلاوة ؟

وفى الصيف ناقشنا الموضوع – أنا وسمير سرحان – فاقترح أن نبدأ بإعادة مجلة المسرح ، فهى المجلة القادرة على نشر الثقافة المسرحية ، وإعادة تهيئة الجو لتقبل الأعمال المسرحية الجادة . وتقدمنا بالطلب إلى وزارة الثقافة ، و ووفق عليه ، فى مايو ١٩٨١ (وصدر العدد الأول فى يوليو ١٩٨١) ، وكانت انتصارًا باهرًا ، وكان سمير هو رئيس التحرير وكنت نائبه ، وكان أمير سلامة هو مدير التحرير . أما مجلة نادى المسرح فقد أصبحت من ذكريات الماضى البعيد . وكنت سافرت أثناء إعداد المجلة إلى العراق – لأول وآخر مرة – للعمل مراجعًا للترجمة بمؤتمر تعقده منظمة المؤتمر الإسلامى ، وكنا فى يوم ٧ يونيو ، وكان يوم الأحد ، نجلس فى قاعة الترجمة بمبنى مجلس قيادة الثورة ، حين سمعنا صفارة الإنذار فحسبناها غارة إيرانية وشاهدنا من الشباك المدافع المضادة للطائرات تطلق طلقات كثيرة سريعة ، ولم يكن المساء قد حلّ بعد ، فلم نخف ولم نترك القاعة ، بل وقفنا نرقب المدافع التى لم تكن تبعد كثيرًا عنا ، وكان معى حسين العليمى – المترجم – فقال لى : لا يمكن أن يضرب الإيرانيون منظمة المؤتمر الإسلامى .. فهم أعضاء فيها ! ودخل الغرفة الدكتور عبد الوهاب المسيرى ، وكان يعمل معنا بالترجمة ، فقال : أراهنكم أنها إسرائيل ! وضحكنا . كيف تأتى الطائرات الإسرائيلية من فوق سوريا أو الأردن دون اعتراض لضرب بغداد ؟ وماذا

يفيدها من ضرب منظمة المؤتمر الإسلامى ؟ وبتنا الليلة دون أن نعرف الحقيقة ، ولم نعرف سوى فى الصباح التالى أنها كانت طائرات إسرائيلية وأنها دمرت المفاعل النووى العراقى تمامًا ! وقال لنا زميل عراقى إن الإسرائيليين دمروا المنشآت السطحية فقط ولم يصلوا إلى المفاعل الذى كان خبيئًا تحت الأرض . ولكننا عندما عدنا إلى مصر سمعنا موشى ديان يقول (يوم ٢٤) إنهم ''دمروا كل شىء'' ، وإن لديهم ما أسماه 'المقدرة' أو القدرة النووية (nucle-ar capability) وحدهم فى المنطقة (وقد توفى ديان فى أكتوبر من ذلك العام) .

وبعد صدور مجلة المسرح سافرت إلى روما للعمل بالترجمة والمراجعة فى الأمم المتحدة، ولحقت بى نهاد زوجتى وسارة ابنتى، ثم لحقت بنا عزة وسناء وبرتى أخوات نهاد، وقضين معى عدة أسابيع ، وفى يوم الأربعاء ١٩ أغسطس، دخلت المكتب فى الصباح لأجد المترجم أحمد فؤاد بلبع متجهمًا مع زوجته نجلاء - وعلمت منهما أن صلاح عبد الصبور قد توفى فى اليوم السابق.



كانت وفاة صلاح عبد الصبور ضربة موجعة لى على المستويين الأدبى والنفسى ، وعرفت أنها ستكون كذلك لنهاد فلم أقل لها إلا بعد يومين أو ثلاثة ، وسافرت الأسرة قبلى إلى مصر ، وبقيت فى روما وكنت أواظب على شراء الصحف المصرية حتى جاء يوم قرأت فيه عن انقضاض السادات على معارضيه ، وقرأت قائمة أسماء المغضوب عليهم وأنا ارتجف خوفًا من أن يكون اسمى بينهم ، ولكن ''ربنا ستر'' وقطعت العمل بالترجمة وعدت إلى مصر لأرى الذعر فى وجوه الكثيرين و''عدم الفهم'' فى وجوه العامة ، وقمت بزيارة السيدة جيهان السادات بعد أن حَصَلَتْ على الماجستير وكانت تفكر فى موضوع للدكتوراه وتريد أن تستشيرنى ، وتحدثنا فى كل شىء ما عدا السياسة . ولكن الزيارة بثَّتْ بعض الاطمئنان فى نفسى ، وقال لى سمير سرحان ونحن خارجان من مسرح الطليعة ذات يوم بعد إحدى تجارب مسرحيتى زوجات مرحات إن منصور حسن وعد بتعيينه أمينًا عامًا للمجلس الأعلى للثقافة .

كان محمود الألفى هو الذى يقوم بإخراج المسرحية ، ولم يأت بممثلين من خارج فرقة الطليعة إلا بنادية عزت ، ولكنه كان يعمل بجد ونشاط ، فكلّف جمال سلامة بكتابة الموسيقى

وتلحين الأغانى التى كنت كتبتها بالفصحى وبالعامية طبعًا ، فأبدع وأبهر ، وتوقفت التجارب المسرحية فى مطلع أكتوبر بسبب سفر بعض الممثلين ، وفى يوم ٦ أكتوبر اغتال المتطرفون رئيس الجمهورية ، فأحسست أن عهدًا كاملاً قد انقضى ، لأن الزعامة فى بلادنا ما زالت تقوم على شخصية الزعيم دون غيره .

ولا أستطيع أن أحدد الوقت الذى زالت الجفوة فيه بيننا وبين رشاد رشدى ، ولكنها زالت فجأة مثلما بدأت ، وإن كانت قد خلفت ندوبًا ما لبثت أن تلاشت على مر الزمان ، وكنت مشغولاً إذ ذاك بمحاولة تقديم ميت حلاوة على خشبة مسرح السلام ، وهو مسرح أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا بشارع القصر العينى ، وكان محمود الحدينى قد عُيّن مديرًا عامًا للفرقة ، فاستبشرت به خيرًا خصوصًا بعد أن قرأ النص المطبوع واقترح إعادة كتابة الفصل الثالث برمّته ، واستبدال لغز اختفاء الجمال بلغز اختفاء الأغنام لأنه - كما قال - لا مفر من تفسير ذلك اللغز بأنه يشير إلى المصريين ، والجمل حيوان ''محترم'' وله تاريخه الطويل فى حياة العرب ، وهو نموذج الصبر والتحمل إلى آخر ما قال ، وحاولت أن أبيّن أنه لا توجد رمزية ولكنه قال إن المتفرجين قد اعتادوها ولا مناص من التغيير ! وصدعت بالأمر وأعدت كتابة الفصل الثالث فى أواخر أكتوبر ، وفجأة جاءنا أمر من رئيس هيئة المسرح بإيقاف العمل، وكان الاعتراض يقول إن لجنة القراءة المركزية لم تُجزْها ، ولم أعترض ، إذ كنت مشغولاً بمسرحية زوجات مرحات ، التى بدأ عرضها فى أول نوفمبر ولاقت نجاحًا جماهيريا منقطع النظير ، فاستمر العرض شهرين ، وزارنا أيامها المخرج الأمريكى الكبير جوزيف پاپ الذى تخصص فى إخراج شيكسبير ، وكانت تعرض له آنذاك خمس مسرحيات فى وقت واحد فى شتى أنحاء الولايات المتحدة ، فدعوته لمشاهدة العرض ، الذى قسمه محمود الألفى إلى جزءين، وبعد انتهاء الجزء الأول قال لى إن لديكم ممثلين عباقرة ، وكانت سعادته غامرة ، على الرغم من عدم معرفته باللغة العربية !

وعندما بدأ النقاد يكتبون عن العرض هالتهم ''الروح الشعبية'' المصرية فيه ، فالفكرة السائدة عن شيكسبير هى أنه كاتب مآسٍ متجهم ، يتحدث ''الفصحى'' التراثية ، وهى الفكرة التى أشاعتها ترجمات الشاعر خليل مطران ، ولم يكن يريد أحد أن يطّلع على ملهاوات شيكسبير أو يتجاوب مع روح الفكاهة التى تنافس روح الهزليات لديه ، وكان أقسى هجوم هو هجوم الناقد محمد رفاعى فى مجلة صباح الخير بعنوان 'مقتل كاتب مسرحى !'

وسمحت لى نهاد جاد - زوجة سمير سرحان ومديرة تحرير المجلة - بالرّد عليه فى العدد التالى بمقال عنوانه 'مقتل النقد المسرحى' ، ولكن نقادًا آخرين قبلوا ما قدمته مثل السيدة آمال بكير التى جعلت عنوان مقالها فى الأهرام ''شيكسبير فى قالب كوميدى'' .

وفى أواخر نوفمبر عقدت لجنة القراءة جلسة خاصة لمناقشة ميت حلاوة ، ولما كنت عضوًا فى تلك اللجنة فقد كنت حاضرًا ، ولكن القانون لا يسمح للمؤلف بالحضور إلا فى حالة الخلاف ، فخرجت من الغرفة ، وكان الاجتماع فى المساء فى مقر هيئة المسرح فى شارع عبد الخالق ثروت . وجلست أنتظر الحكم ، وبعد نحو ساعة ، استدعيت للدفاع ، إذ كان عبد الفتاح البارودى أعلى الحاضرين صوتًا ، وكان يصر على رفض المسرحية لأن بها تعريضًا بالرئيس السادات ! وقلت له متحديًا أن يشير إلى أى عبارة تفيد ذلك فقال إنك تجعل أعضاء 'الجمعية' يهتفون قائلين ''فليسقط الخائن !'' وذلك ما لا أرضاه على الزعيم الراحل ! وقلت له كيف تفسر 'الخائن' بأنه الرئيس ؟ إذا كان ذلك رأيك فعبّر عنه كتابةً حتى أرفعه إلى الوزير ! فهاج وماج وقال إنك أصبحت مثل الشيوعيين ! وانفض الاجتماع دون حسم ، فبدأنا الخروج، فعرض علينا المخرج أحمد زكى أن نزوره فى منزله لاستكمال السهرة ، وكان معنا الدكتور أحمد مرسى والدكتور عبد العزيز حمودة (الذى كان مناصرًا للمسرحية) . وجلسنا نتسامر بعض الوقت فى منزل أحمد زكى وزوجته فريال الانجليزية (ولها اسم آخر هو جيرالدين أو جيرى) واقترح الدكتور مرسى فى آخر المساء أن نتجاهل عبد الفتاح البارودى وأن تصدر اللجنة قرارها بالأغلبية لا بالإجماع .

وانتهى العام وقد قرر محمود الحدينى تقديم النص مهما يكن ، فاقترح رشاد عثمان (المخرج) إسناد الدور إلى نوال أبو الفتوح فذهبنا إلى منزلها فى المهندسين وأعطيناها نسخة ، وبعد يومين أعربت عن موافقتها ، وجاءتنا إلى المنزل مع رشاد عثمان، ولكن جلال الشرقاوى، وهو أستاذ جلال توفيق الذى أُسْنِدَتْ إليه مهمة الإخراج لم يكن مؤيدًا لذلك الاقتراح، واقترح الأخير إسناد الدور إلى عايدة عبد العزيز، وهى صديقة قديمة، فكلمناها وقرأت النص ، وقضينا أمسية جميلة فى منزل جلال توفيق بالعجوزة مع الممثل القدير محمد توفيق ، وكان اسمه من بين الأسماء المقترحة ، ولكن لم ينقض أسبوع حتى تلقى محمود الحدينى خطاب اعتذار من عايدة عبد العزيز تقول فيه إنها لا تقبل المشاركة فى مسرحية شيوعية (ولا يزال الحدّينى يحتفظ بذلك الخطاب) . واقترح الحدينى الاستعانة بالممثلة

(.....) **وفعلاً جاءت** مع أحمد بدير وبدأنا بروفة الترابيزة (أى قراءة النص دون 'حركة') **ولكنها طالبت بضعف** الأجر المقرر للدور فوعدناها بمخاطبة الحدينى فى ذلك الشأن .

وذات يوم كنت خارجًا من مبنى التليفزيون حين قابلت إحدى تلميذاتى السابقات فى **قسم اللغة الانجليزية** فرحبت بها ورحبت بى ثم أردفت "أنا زعلانه منك !" "خير ؟" "كيف **تستعين فى مسرحيتك** بزوجة زوجى ؟" ولم أكن أعلم أن الممثلة المشهورة قد تزوجت مذيعًا (رحمه الله) هو زوج تلميذتى ، ومرّت الأيام وصادفت الممثلة المشهورة وتجاهلت الموضوع تمامًا ! وعندما تكررت هذه القصص فى الوسط المسرحى لم أعد أدهش لما يقوله لى 'حسن' ، خصوصًا عندما عرفت أن لهذه الممثلة ابنة من زوج سابق هى حاليًا أستاذة فى الجامعة !

وبعد التعثر فى اختيار الممثلين ، استقر الأمر على سميرة محسن (الدكتورة) ، ومعها سمير حسنى وعبد الحفيظ التطاوى ، ومحمد الشويحى (رحمهما الله) وانتظمت التجارب المسرحية ، وبدأ العرض يوم الخميس ٢٨ يناير ١٩٨٢ ، بعد أن توقف عرض زوجات مرحات فى آخر العام السابق . وبدأ الجمهور يتردد على المسرح الذى كان جديدًا إلى حد ما ، وتوالت المقالات النقدية فى الصحف بعد إقبال الجمهور ، وكان الأسبوع الأول قد شهد ازدحامًا غير متوقع وربما كان ذلك بسبب 'أقاويل' الوسط الفنى ، ولكن الذروة كانت يوم الجمعة ١٢ فبراير ١٩٨٢ إذ حضرت مجموعة القادة الثقافيين (الرواد) من قصر ثقافة مصر الجديدة ، فاضطر محمود الحدينى أن يفتح لهم البلكون بعد أن كانت الصالة قد امتلأت عن آخرها ، وأسعدنى هذا الإقبال الذى كان خير دعاية للمسرحية ، وبدأت المقالات النقدية تتخذ شكلاً معاديًا ، فكتب فؤاد دواره مقالاً ناريًا فى الكواكب يهاجم المسرحية ، فرددت عليه بمقال فى العدد التالى ، وكان حسن إمام عمر هو رئيس التحرير الذى سُرّ سرورًا بالغًا باندلاع 'المعركة' ، وجاء فيليب جلاب صديقى ليشاهد المسرحية فأزعجه ما اعتبره انتقادًا للشيوعية أو الاشتراكية ، وبدلاً من أن يكتب هو أتى بزينب منتصر (من روز اليوسف وهى أخت الفنانة سهير المرشدى) وجلس معها فى الصف الأول يشرح لها خبايا النص وخفاياه ، فكَتَبَتْ مقالاً لا يقل التهابًا عن مقال دواره، ولكن مقال آمال بكير فى الأهرام كان متعاطفًا ، وكذلك كانت مقالات غيرها فى المصور وآخر ساعة والأخبار والجمهورية .

وفى يوم السبت التالى ليوم الجمعة المذكور جاءنى سمير سرحان وقال إنه يريدنى لأمر هام فتركنا المسرح وخرجنا إلى شارع جانبى متفرع من شارع القصر العينى وقال لى : "إيه

رأيك .. لقد عرض عليّ الوزير (محمد عبد الحميد رضوان) وظيفة رئيس الثقافة الجماهيرية فى صباح اليوم !" وأشرت عليه بأن يقبل دون تردد ، وسرنا طويلاً ونحن نقلّب الأمر على وجوهه ثم انتهينا إلى أن ما أشرت به عليه هو الصواب ، وما ضرر التجوال فى ربوع مصر بين القرى والدساكر ؟ وفعلاً ذهب إليه فى صباح الأحد ١٤ فبراير وتسلم صورة القرار الوزارى بانتدابه للعمل بعض الوقت من جامعة القاهرة رئيسًا لهيئة الثقافة الجماهيرية (التى أصبحت حاليًا هيئة قصور الثقافة) .

كان ذلك معناه إلقاء مسئوليات جديدة على عاتقه ، ولكن سمير سرحان لا يخشى المسئولية بل يرحب بها ، وسرعان ما درس الأحوال فى ربيع ذلك العام ، وما إن حل إبريل حتى كان قد قرر بث النشاط فى فرق الأقاليم المسرحية عن طريق تكوين فرق دائمة فى قصور الثقافة وفى بيوت الثقافة من أبناء الأقاليم نفسها ، حتى يجد الشباب فى النشاط المسرحى الذى لا يقتصر على الإخراج والتمثيل بل يتضمن سائر الفنون المسرحية (من موسيقى وفن تشكيلى وتأليف) ما ينمى قدراتهم الإبداعية ويشغلهم عن الاتجاه السلفى الذى بدأ يتسرب بل ويضرب بجذوره فى عقولهم ، ولم يلبث أن قرر تنفيذ مشروع ثقافى موجه إلى الشباب بعنوان مكتبة الشاب ، وكلّف عددًا من أساتذة الجامعة بكتابة كتب مبسطة لتعريف الشباب بأهم المجالات العلمية والأدبية والفنية ، واستجاب على الفور عدد لا بأس به من الأساتذة أذكر منهم عليّ الدين هلال (وزير الشباب الحالى وكان أستاذًا فعميدًا لكلية الاقتصاد والعلوم السياسية) والدكتور محمد محمود الجوهرى ، أستاذ الاجتماع والدكتور أحمد مرسى أستاذ الأدب الشعبى وغيرهم ، فعادت الروح إلى الهيئة .

ولم تمض أيام على بداية عمله فى الثقافة الجماهيرية حتى اتصل بى تليفونيًا فى منزل راوية أباظة الممثلة فى فرقة الطليعة ، وكانت قد دعتنا إلى العشاء مع سمير العصفورى بعد عرض الماتينيه لميت حلاوة ، وكان يومًا مطيرًا ، ولكن المسرح كان غاصًا بالمتفرجين ، وكان سمير سرحان من المدعوين ولكنه اتصل للاعتذار ولإبلاغى أن كرم مطاوع قرر البدء فى إخراج مسرحية روض الفرج وأنه يتدارس النص حاليًا معه ، وأن التجارب المسرحية ستبدأ فى اليوم التالى وهو يوم السبت ٢٠ فبراير ! واختار كرم مطاوع زوجته سهير المرشدى للقيام بالبطولة ، إلى جانب حسن عبد الحميد ، وأمين الهنيدى وسمير حسنى (بطل ميت حلاوة) وعبد الحفيظ التطاوى (الذى كان يعمل فى ميت حلاوة أيضًا) وفعلا بدأت 'بروفات الترابيزة' ولم تستمر سوى أسبوع واحد انتقل بعدها كرم مطاوع إلى الحركة .

وافتتحت المسرحية فى إبريل ١٩٨٢ وحضر حفل الافتتاح الوزير محمد عبد الحميد رضوان ولفيف من كبار الشخصيات مثل الدكتور يوسف شوقى (الموسيقار) وبعض الكُتّاب والنقاد ، وكانت المفاجأة التى لم نحسب لها حسابًا ، وهى تصوير اغتيال الضابط الانجليزى على المسرح بصورة أعادت إلى الحاضرين ذكرى اغتيال السادات ، وكان كرم قد كلف الشاعر سيد حجاب بكتابة بعض الأغانى التى سُجّلت لمصاحبة بعض فقرات العرض ، وكانت الأغنية هنا تتضمن تعريضًا مستترًا بالحكم ، والنص الأصلى يحدد هذا الحكم بأنه حكم الملك فاروق الطاغية ، ولكن الصورة المسرحية جردت النص من التحديد الزمنى وأوحت للمتفرج بأنه قد يكون حكم الطاغية فى أى زمان ومكان ، مما أحزن الوزير ، وأغضب المسئولين الذين صُدموا لمرأى الضابط وهو يصاب بطلقات المسدس ويهوى على الأرض ! وترددت الأقاويل - كما هى العادة - وكثرت الهمسات والتلميحات ، وازداد إقبال الجمهور ، ولكن النقاد كانوا منقسمين بين مؤيد ومعارض ، واقتُرح تغيير المشهد أو تخفيف حدة التشابه بين الحادثة التاريخية أيام الاحتلال والحادثة التى كانت لا تزال حية فى الأذهان ، ولكن كرم مطاوع رفض تعديل أى شىء .

ولم يمض أسبوعان على افتتاح العرض حتى وقع ما لم يدر بخلد أحد إذ شبت النيران فى غرف الملابس بالمسرح ، ولم يستطع أحد مكافحتها فأتت على خشبة المسرح نفسها ، ولم يكن أى منا حاضرًا فى تلك الليلة المشئومة ، وعندما سمع سمير بالخبر أسرع يستطلع الأمر فلم يجد سوى الحطام والرماد ، فقال - على ما فى حلقه من غصة - لقد سطعت المسرحية كالشهاب الذى انطفأ ! وهزتنى تلك النهاية الحزينة ، وقال البعض إن بعض 'عملاء' السادات هم الذين أشعلوا النار عمدًا ، وقال آخرون إن أجهزة الأمن وراء الحريق ، وقال العقلاء إن المسرح لا توجد به وسائل أمن من الحريق ، وإن شدة الحرارة فى ذلك اليوم الخماسينى قد ساعدت على انتشار النار ، وإن بقيت المسألة لغزًا محيرًا حتى اليوم .

وعلى الرغم من كل ما حدث ، لم يفقد سمير سرحان إيمانه بالمسرح باعتباره فن الفنون، وسار فى طريقه فى الثقافة الجماهيرية ، يعقد الاجتماعات فى القاهرة ، أو يسافر يومًا بعد يوم إلى الأقاليم للاتفاق على إنشاء الفرق الثابتة ، وقد صحبته ذات يوم إلى دمياط حيث تكونت فرقتها الخاصة ، وقال لى فى طريق العودة "لقد نجحنا نجاحًا يعتبر بداية لا نهاية.. فما زلنا فى الأربعين وإذا عشنا فسوف نحقق المزيد" .

وتشجعت بعد النجاح الذى لاقته ميت حلاوة على تقديم نص كنت كتبته قبل عام والقيت به يأسًا فى الدرج ، وكنت استوحيته من 'ياسر' تلميذى الذى يقول بأن الحجاب هو جوهر الإسلام (فهو فى رأيه مثل إعلان الشهادتين) ومن 'فوزى' الذى كان يقضى الليل 'فى سبيل الله' يقرأ التعاويذ ، ومن غيرهما ممن اقتربت منهم ، بل ومن أحد زملائى فى المدرسة الثانوية فى رشيد بعد أن قابلته فى العاصمة وقد 'تدروش' وقارب 'الانجذاب'. وأعدت كتابة النص فى الصيف ، بعد أن انتهيت من ترجمة الكتابين الأولين من الفردوس المفقود ، وكنت قد رُقِّيتُ أستاذًا مساعدًا فى مايو ١٩٨١ ، فهدأ بالى بعض الشىء وتفرغت للترجمة والتأليف .

وقدمت نص المجاذيب إلى مسرح الطليعة ، وكان يرأسه محمود الألفى بعد انتقال سمير العصفورى إلى المسرح القومى ، وتركت المسرحية تواجه أقدارها وسافرت إلى روما ، وقد اكتشفت أن الترجمة أصبحت أكثر من مورد رزق لى ، فهى للكاتب ممارسة 'كتابة مزدوجة' أى استيعاب فكر وإعادة صوغه بما يماثله أو يقابله أو يوازيه دون أن يكون مطابقًا له كل الانطباق ، فالاستيعاب كتابة معكوسة لأنه تدريب للوعى - كما يقول أصحاب النظرية الحديثة - على التكيف مع وعى آخر وتطويعه وفقًا لخبرات المترجم وتكوينه النفسى والثقافى، وتعتبر إعادة الصوغ (إلى حد ما) كتابة جديدة لجمهور جديد ! وفى ذلك الجهد المزدوج تتجلى قدرة المترجم على التفاعل ، والتفاعل - تعريفًا - نشاط مزدوج لأنه أخذ وعطاء فى الوقت نفسه ! ولذلك قبلت ترجمة كتاب موسيقى قدماء المصريين للدكتور محمود الحفنى (والد الدكتورة رتيبة) إلى الانجليزية فى أثناء مقامى فى روما ، إلى جانب عمل الأمم المتحدة! وكان الدكتور عز الدين إسماعيل قد كلفنى بترجمته بعد أن أصبح رئيسًا لهيئة الكتاب .

وتوفرت فى روما أيضًا على الانتهاء من كتابة حواشى الفردوس المفقود ومراجعة النص مراجعة دقيقة ، فكنت أقضى وقتى بالعمل صباحًا فى الترجمة العلمية ، ومساء فى قراءة الكتب التى اشتريتها من مكتبة الأمم المتحدة (أو اصطحبتها معى من مصر) وانتقاء الفقرات التى سوف أقتبسها للمقدمة ، ثم أترجمها ، أو ألخص بعض آراء النقاد ، حتى تكونت لدىّ مادة كافية ، فنسختها على الآلة الكاتبة ، واطمأن قلبى إلى صورة النص المترجم بمقدمته وحواشيه ، فتركته حتى أعود إلى مصر .

كنت قد تخطيت الأربعين ، كما قلت ، وبدأت ألبس نظارة طبية للقراءة (طول النظر) وبدأت أعانى من ضغط الدم المرتفع ، وهو ما أثر بعض الشىء على القلب فكان ما يسمى 'بالدقة الناقصة' (missed beat) ولكن ذلك كله لم يؤثر فى خطة عملى ، وكانت أحلامى قبل وفاة صلاح عبد الصبور أن أصدر مجلة انجليزية فصلية تعرض للأدب العربى المترجم ، واخترت لها اسمًا وافق عليه الشاعر الراحل وهو Cairo Literary Review ، ولكن أحداث العام (أو الحول الذى حال) وأدت أحلامى فى هذا المجال ، ولم يعد أمامى إلا أن أسابق العمر فأترجم شيئًا مهما يبقى للأجيال ، ولما كنت قد جرعت الكفاية من كؤوس العذاب فى المسرح، فقد قدمت طلبًا للعمل بجامعات الإمارات ، ورفضنى رئيس القسم الدكتور محسن أبو سعدة ، وهو مصرى متخصص فى اللغويات ، فنصحنى سمير بتقديم طلب إلى جامعة الملك عبد العزيز بالسعودية ، ففعلت ، وكان همىّ أن أبتعد بعض الوقت عن صداع الممثلين وصراعاتهم وأقاصيصهم ، والتفرغ للتأليف والترجمة . وكنت سعيدًا بأننى أترجم الآن أو بأننى عدت إلى الترجمة العربية.

وكانت تجربة ترجمة الفردوس المفقود متعة فريدة ، لأنها أتاحت لى أن أنهل من ثروات اللغة العربية التى كانت تبدو بعيدة المنال قبل سنوات معدودة ، وهى كامنة فى أعماق النفس ، وكان على رأسها ما حفظته طفلاً من القرآن الكريم فى الكُتّاب وما لقّننيه والدى من أشعار العرب صبيًا ، وما توارى منذ اليفوع فى مجاهل النفس ثم آن أوان استعادته القوة والعنفوان ، وكان سبيلى فى ذلك أن أعيد قراءة بعض ما قرأت فى سنىّ حياتى الأولى ، حتى أوقظ ما هجع وأُنبّه ما غفل ، وما أن انتهيت من الترجمة حتى عرضتها على الدكتور مجدى وهبة ، فقرأها هو وكامل المهندس ، وأعادها مع الإشارة إلى ما يحتاج إلى هوامش لإيضاحه (وقد انتهيت من ذلك فى روما) ، وتركها لى فى الكلية مع ورقة يثنى فيها على الجهد ويتحدث عن ''قلم ممتع عذب'' ، فقدمتها بعد عودتى فى سبتمبر إلى الدكتور عز الدين إسماعيل ، فأمر بنشرها على الفور فى سلسلة جديدة أسماها 'الإبداع العالمى' .

وكانت نهاد زوجتى قد حصلت على بعثة لدراسة الدكتوراه فى انجلترا ، وانتهت من الإجراءات اللازمة ، بعد أن رشحها المعهد العالى للنقد الفنى للبعثة ، وكان العميد هو الدكتور سعد المنصورى ، وكان سبتمبر أيضًا شهر الكوارث العربية ، إذ انقضّت إسرائيل على مخيمات الفلسطينيين فى لبنان ، واندلعت معارك طاحنة أدت إلى إجلائهم منها ، كما هيأ مناخم

بيجين وإريل شارون الفرصة لحزب الكتائب اللبنانى للانقضاض على الفلسطينيين فى صبرا وشاتيلا ، فوقعت المذبحة التى جعلتنا جميعًا نضيق بالدنيا وما فيها .

وجاءنى فى سبتمبر نبأ من جامعة الملك عبد العزيز فى جدة بالمملكة العربية السعودية يفيد قبولى للتدريس بها ، فبدأت العمل للانتهاء من إجراءات السفر ، وسافرت نهاد زوجتى مع سارة ابنتى إلى انجلترا يوم الأحد ٣ أكتوبر ١٩٨٢ ، وكان مقررًا أن تبدأ دراستها فى اليوم التالى ، وشغلت أنا بعد ذلك باستخراج تصريح العمل واستخراج جواز سفر جديد وما إلى ذلك ، ورأيت أن الإعارة فرصة سانحة - كما قلت - للابتعاد عن جو العمل المضنى فى مصر فى الجامعة وفى المسرح وإنجاز بعض مشروعاتى الأدبية ، والترجمة ، والحياة فى أرض مباركة.

وتحملت هذه المرة متاعب التعامل مع موظفى الحكومة راضيًا ، وكنت أتردد على المسرح من وقت لآخر لأستطلع أنباء المجاذيب فأدركت أن أمامها شوطًا طويلاً ، وكان رئيس القسم الدكتور سعد جمال قد رفض طلبى للإعارة إلى الأمم المتحدة ، ولم يعد أمامى سوى الإعارة إلى جامعة عربية ، وكان ماهر شفيق فريد قد عاد من انجلترا قبل عامين وسجل للدكتوراه بإشراف الدكتور مجدى وهبة ، ونوقشت رسالته آنذاك ، ففرحت لذلك كل الفرح ، كما كان عبد العزيز حمودة قد عُيّن وكيلاً لكلية الآداب بعد انتخاب الدكتور الجوهرى عميدًا فابتسمت الحياة ، وزاد من بسماتها تقديم مسرحيته الرهائن فى المسرح الحديث الذى شهد عرض ميت حلاوة فى مطلع العام وإعادة عرضها فى يوليو أثناء وجودى فى روما .

وبرحيلى إلى المملكة العربية السعودية بدأ فصل مستقل من حياتى .

الفصل الثالث



وصلت إلى مطار جدة يوم الاثنين ٢٥ أكتوبر ١٩٨٢ فوجدت فى انتظارى شبير شنوى وعزة صليحة زوجته ، وفى اليوم نفسه زارنى عادل سرحان ، أخو سمير ، مع زوجته فاطمة ، وعلمت أنه يعمل مديرًا لمكتب العميد ، وفى صباح اليوم التالى سلّمتُ نفسى للكلية ، وملأت استمارات كثيرة ، وعرفت جدول محاضراتى ومواعيد 'الدوام' أى الحضور فى الكلية كل يوم، وكانت من الثامنة صباحًا حتى الواحدة ظهرًا ، ولكننا كنا نتفرق حالما ننتهى من صلاة الظهر ، وكان الروتين اليومى لى هو الكلية صباحًا ثم العودة للغداء والقيلولة ظهرًا ، فالسهر للقراءة والكتابة والترجمة .

وعدت إلى ما كنت أهملته من كتابة الخطابات والتلهف على وصول ردودها ، فزوجتى وابنتى فى انجلترا وأصدقائى وأحبائى فى مصر ، ولم يلبث أن لحق بى فى السعودية أخى مصطفى فى نوفمبر عندما حصل على الدكتوراه فى إدارة الأعمال من كلية التجارة جامعة القاهرة ، وكان المشرف على رسالته هو الدكتور على السلمى الذى كان زميلاً لسمير سرحان فى جامعة إنديانا بالولايات المتحدة ، وعُيِّن وزيرًا لفترة من الوقت ، وجمعتنى الظروف به فى التسعينيات فى إطار برنامج التعليم المفتوح . ولكننى كنت عازفًا عن الحياة الاجتماعية بعد ضجيج القاهرة وفضلت التركيز على أعمالى الخاصة ، فلدى نصف نهار كامل فى كل يوم ،

ويومان (الخميس والجمعة) للعطلة الأسبوعية . وبعد الاستقرار وشراء سيارة جديدة ، فهى وسيلة المواصلات الأولى ، بدأت أنظم وقتى .

كان مصطفى محمود قد طلب منى ترجمة كتابه ''القرآن الكريم : تفسير عصرى'' ولم يكن لدى من الوقت ما أخصصه لترجمة كتاب من هذا النوع ، فكنت أتلكأ وأراوغ ، وإذا بى أتلقى مكالمة تليفونية منه وأنا فى الكلية من مصر ، وكان صوته يعاتبنى على 'الفرار' من مصر ! فوعدته خيرًا وكان ذلك أول كتاب أنتهى من ترجمته فى شتاء ٨٢ ، وأعطيت النص لناسخ باكستانى فى قسم اللغة الانجليزية اسمه 'بدر الدين' فنسخه دون أخطاء تذكر ، وفى عطلة يناير ١٩٨٣ سافرت إلى انجلترا لقضاء أسبوعين مع زوجتى نهاد وابنتى سارة .

كانت تلك ثانى مرة أزور فيها انجلترا بعد رحيلى النهائى عام ١٩٧٥ ، إذ مررنا بها وقضينا ليلة أنا وسمير سرحان فى طريق عودتنا من أمريكا عام ١٩٨١ ، ولكننا مكثنا فى لندن، أما هذه المرة فقد كنت أقيم مع أسرتى فى بلدة إكسماوث Exmouth القريبة من جامعة إكستر Exeter حيث تدرس للدكتوراه ، وهى بلدة ساحلية يلطف نسيم البحر جوّها ليلاً ، مما خفف بعض الشىء من برد يناير أو زمهريره ، وكانت تلك عطلة الجامعة أيضًا فكنا نخرج للنزهة أو نركب القطار إلى لندن لمشاهدة عرض مسرحى (مثل أيام زمان) أو نتردد على المكتبات لشراء بعض الكتب الجديدة .

كانت موجة النظرية النقدية الجديدة قد امتدت من القارة الأوروبية إلى انجلترا ، وبدأت مصطلحاتها تشيع فى اللغة الانجليزية البريطانية المحافظة ، فاشتريت عددًا من الكتب التى تتناولها تفصيلاً ، إلى جانب بعض الكتب عن الشعر ومجموعة كاملة من دواوين الشعراء الجدد ، وإن لم يكونوا شبانًا ، وكانت نهاد تقص علىّ بعضًا مما تقرأ فى إطار دراستها لمسرحيات اللورد بايرون الشعرية ، فهى تحللها من منطلق مذهب الحداثية (modernism) والوجودية كذلك ! ودعانا الدكتور رشيد العنانى لزيارته فى المنزل ، وكان قد حصل على الدكتوراه فى أدب نجيب محفوظ وعين محاضرًا بقسم الدراسات الشرقية بجامعة إكستر ، وكان ولا يزال متزوجًا من وفاء فايز اسكندر (ابنة الدكتور فايز أستاذنا القديم) كما عرّفنا بالدكتور محمود شعبان رئيس القسم ، وهو مصرى حقق ذيوعًا وشهرة بكتابه بالانجليزية وعنوانه التاريخ الإسلامى : إعادة تفسير .

مـر الأسبـوعـان كالأحـلام وعـدت إلى جـدة برصـيد لا بأس به من الكتب ، وعكفت فى الفصل الدراسى الثانى على كتـابة الكتـاب الذى وعـدت سـميـر سـرحـان بكتـابته عن "الأدب وفنونه" لينشـر فى مكتبـة الشـاب من هيئـة الثقـافـة الجمـاهيـرية ، وكان منهجى فى تأليفه طريفًا، ومـا زلت أنصح بـه زمـلائى ممـا يعـرفون الكثيـر ثم تقـعـد بهم الهمـة عـن الكتابة ، كنت أقول لنفسى بعد أن أنهض من القيلولة أو بعد صلاة العصر : أنت فى امتحان يبدأ فى الرابعة مثلاً ومدته ثلاث سـاعات ، فاكتب ما تعرفه عن القصة القصيرة مثلاً ! وكان معنى هذا أن التزم بالجلوس إلى المكتب ثلاث سـاعات ووضع النقـاط الرئيسية لما تبقى فى ذهنى بعد ربع قرن من قراءة القصص وما كتب عنها من نقد ، فأوضح الفارق بين الحكاية والقصة القصيرة بشكلها الفنى الحديث ، وأحدد عناصرها ، محاولاً التركيز فى صلب الموضوع دون الدخول فى سـرد تاريخى لنشـأتها وتطورها أو لآراء النقاد ودون إيراد أسـماء أجنبية أو عربية . وعلى ضوء هذه النقاط الرئيسية أبدأ فى الشرح مخاطبًا الشباب الذين أتوجه إليهم بهذه المعلومات ، وقد يتطلب ذلك أكثر من ثلاث ساعات - يُسمح فى خلالها بشرب القهوة أو الحركة أو حتى السيـر فى الغرفة دقائق معدودة ، وهنا أقول لقد سمحنا لك بساعة أخرى وراحة لصلاة المغرب قبل تسليم ورقة الإجابة ! كنت 'ألعب دور' المعلّم الذى يريد توصيل النقاط الأساسية للموضوع لا الباحث الذى يؤصل أو يدعو لنظرة أو نظرية جديدة ، فكتاب الشاب هو فرصة مخاطبة غير المتخصص ، ولا شىء يصد غير المتخصص عن القراءة مثل الأسماء الأجنبية والنظريات المتعارضة والمصطلحات الغامضة !

كانت تلك حيلة من حيل 'الصنعة' ، فوضع الهيكل مهم قبل ملئه بالتفاصيل ، أى إن للكاتب بعد ذلك أن يورد أمثلة على ما يقول وأن يدعم ما يذكره بآراء غيره أو باقتباسات من الكتب المتخصصة ، وذلك ما فعلته حين ترجمت قصة قصيرة تتبع المنهج الكلاسيكى الذى أوضحه هـ . أ . بيتس H. E. Bates فى كتابه عن القصة القصيرة ، وحذا رشاد رشدى حذوه دون أن يحيد قيد أنملة ، وهى قصة 'شكرًا يا مدام' للكاتب الأمريكى لانجستون هيوز ، كما ترجمت قصة تمثل المنهج النفسى والأسلوب الشعرى أو الشاعرى للبريطانية ڤيرجينيا وولف ، وهى قصة 'بيت مسكون' ، وحلّلت قصة 'زعبلاوى' لنجيب محفوظ للتدليل على لون القصة الرمزية . وبعد ذلك دعمت ما ذكرته عن ملامح القصة بآراء النقاد والباحثين . وكانت النتيجة أن أصبح الكتاب (الذى طبع عدة طبعات بعد ذلك) مقدمة ميسّرة لغير المتخصص ، وكانت كل طبعة منه تنفد بعد أيام من صدورها .

وكانت تجربة التدريس فى بلد عربى شقيق باللغة الانجليزية ذات فوائد لم تتضح لى إلا بعد أن عدت إلى مصر ، إذ كان التركيز كل التركيز على اللغة فى ذاتها لا على الأدب الأجنبى الذى كان ولا يزال يعتبر وسيلة لتدريس اللغة ، وكان همىّ الأول هو أن أتيح للدارسين الفرصة حتى يسمعوا اللغة الانجليزية السليمة ويلتقطوا مصطلح اللغة (لا مصطلحات العلوم) فيعتادوا التفكير بتلك اللغة وكتابتها بأسلوب سليم بدلاً من الترجمة الحرفية من العربية ، وكانت مادة الترجمة إذن من المواد الأساسية ، لأن الطالب سوف يفكر بالعربية شئنا أم أبينا ، أو – فى أفضل الحالات – بمزيج من العربية المحلية والانجليزية المكتسبة فى مرحلة الدراسة الأولى ، وعلى الأستاذ أن ينبهه إلى 'المقابلات' الأجنبية للعبارات العربية التى يتوسل بها فى تفكيره ، وقد لا تزيد 'عبارة' من هذه العبارات عن كلمة واحدة ، وقد تطول فتصبح جملة كاملة . فالترجمة على مستوياتها الأولى تعنى المضاهاة بين ما نقوله فى بيئتنا المحلية بالعربية مهما يكن مستواها (سواء نطقنا به أم ظل حبيس الذهن) وبين ما يقوله أصحاب اللغة الانجليزية فى بريطانيا أو فى أمريكا .

وإذن فثم حاجة إلى التوسل بالترجمة فى تعليم اللغة ، كما يذهب إلى ذلك البروفسور هيرفورد البريطانى ، ولا ضير إطلاقًا من استخدام اللغة العربية فى دروس تعليم اللغة الانجليزية فى سبيل المضاهاة بين اللغتين ، فالطالب يعرف على أبسط المستويات أن يترجم الكلمة العربية 'مرحبًا' أو 'أهلاً وسهلاً' بمقابلها البريطانى 'hallo !' أو الأمريكى 'high !' وألا يستخدم فى ذلك تعبير 'you're welcome !' الذى يستعمل بالأمريكية (ودخل اللهجة البريطانية فى الآونة الأخيرة) للرد على كلمة شكرًا فأصبح يقابل 'العفو !' أو البريطانية القديمة ('Don't mention it !') والطالب يعرف ذلك فى طفولته أو فى صباه، ويحتاج إلى توسيع نطاق معرفته بطرائق اللغة التى يكتسبها عن طريق المضاهاة الثقافية ، لا بين مفردات وتراكيب لغة الحديث اليومى فحسب بل بين مصطلح اللغة الأصيل فيوازى بين ''هل يوحى لك ذلك بشىء ؟'' وبين (Does it give you any ideas ?) متجنبًا فى ذلك ترجمة الفعل 'يوحى' والاسم منه الذى يحمل دلالات ثقافية عربية غير مقصودة بالانجليزية، كما يتعلم أن هناك مقابلات أخرى تشترك فى المعنى الأصلى وتتفاوت فى دلالاتها الثانوية ، فإذا كان درس الترجمة سوف يعلمه أن يقابل بين 'الأشغال الشاقة' وتعبير (hard labour) فيجب على المدرس أن يوضح للطالب أن هناك مقابلاً لذلك التعبير وهو (penal servitude) الذى يحمل دلالات ثانوية لا يوجد لها مقابل بالعربية !

وعندما كُلِّفت بتدريس الترجمة لطلاب الدراسات العليا وضعت هذه التجربة موضع التطبيق فراعنى الإقبال عليها ، وإن كان الطلاب يفضلون فك طلاسم اللغة الأمريكية الجديدة التى بدأت تسود اللغة الانجليزية فى أجهزة الإعلام الغربية بل وفى الكتب ، فقسمت المنهج إلى فصول تتصل بشتى مجالات المعرفة ، فشعر الطلاب بأهمية الترجمة لا باعتبارها نشاطًا لغويًا صرفًا بل باعتبارها مضاهاة ثقافية مستمرة ، فالتعبيرات التى تنتمى إلى الثقافة العربية قد لا يوجد لها مقابل فى الثقافة الانجليزية والعكس بالعكس ، وهو ما شجعنى على الاهتمام بالترجمة فى تعليم اللغة الانجليزية اهتمامى بها كوسيط ثقافى بل وفكرى ، وهو ما بدأت أفعله فى مصر عند عودتى .

وعكفت فى الفصل الدراسى الثانى على ترجمة مسرحية محاكمة رجل مجهول التى كتبها الدكتور عز الدين إسماعيل شعرًا إلى الانجليزية ، وكنت آتى بما أترجمه منها فأجعله جزءًا من درس الترجمة ، وتدريجيًا أشركت الطلاب معى فى البحث عن المقابلات الانجليزية للتعابير الاصطلاحية العربية ، وكان التجاوب يزيد عما توقعته ، فازداد عدد الطلاب الذين يدرسون الترجمة على هذا المستوى ، وذاعت جدة المنهج الذى أتبعه ، وسُرَّ به الدكتور عادل إلياس رئيس القسم (وهو سعودى) سرورًا عظيمًا ، وعندما اكتملت المسرحية كتبت لها مقدمة وافية وأعطيتها للباكستانى 'بدر الدين' فنسخها على الآلة الكاتبة لقاء دراهم معدودة .

وكانت الخطابات لا تتوقف بينى وبين نهاد فى انجلترا وسمير فى مصر ، فعلمت من نهاد أنها سوف تعود إلى مصر لقضاء أشهر الصيف الثلاثة ، كما أطلعنى سمير على ما يدور فى الحقل الثقافى فى مصر إذ كان قد انتهى من الترجمة العامية لمسرحية حلم ليلة صيف وأن حسين جمعة المخرج يتولى إخراجها لمسرح الشباب ، وأن مسرحيتى المجاذيب تجرى لها التجارب المسرحية على قدم وساق ، وأنها سوف تعرض فى الصيف ، وقص علىّ الحل الذى اهتدى إليه لمشكلة ترجمة وثائق 'جيبوتى' ! وهى مشكلة ذات قصة تشغل حيّزًا كبيرًا من خطاباته . فما هى ؟

كان قد اتصل به فى الصيف أحد المسئولين فى برنامج الأمم المتحدة الإنمائى (UNDP) وأخبره أن لديه وثائق كثيرة عن مشروع يعتزم البرنامج تنفيذه فى جيبوتى ، وأن الموافقة جاءت من مكتب رئيس الجمهورية الجيبوتية ، وأنه إذا وافق فسوف يأتيه مندوب منها

لتوقيع العقد ، ووافق سمير ، وجند كل المترجمين الذين يعرفهم للترجمة من الفرنسية ومن الانجليزية إلى العربية ، وقد وقع العقد وأصبحت لديه نسخة عليها شعار برنامج الأمم المتحدة ورئاسة جيبوتى ، واطمأن قلبه فجعل ينفق من حسابه الخاص على الترجمة ، بل إننى عملت معه أحيانًا فى مراجعة بعض النصوص ، وكان 'محمد' (ابن عبد النور خليل سكرتير تحرير المصور) يده اليمنى فى هذا العمل ، وكان قد تخرج فى قسم اللغة الفرنسية ، فكان يذهب إلى المترجمين فيسلمهم الوثائق ويتسلم الترجمة ويذهب إلى مكتب نسخ يسمى 'الناسخ السريع' للانتهاء من إعداد الوثائق ، وكانت الأسعار المتفق عليها أدنى كثيرًا من الأسعار الدولية ، ولكن سمير وافق لطرافة الموضوع والتحدى المتمثل فيه .

وعندما انتهت الترجمة وسلّم جميع الوثائق إلى مكتب برنامج الأمم المتحدة ، وحان موعد تقاضى الأجر وجد المسؤولين يقولون له إن النقود قد حُوِّلت كلها إلى جيبوتى ، وإن عليه أن يطالب الحكومة الجيبوتية بدفع مستحقاته ، فاتصل بالسفارة فوعدوه خيرًا وظلوا شهورًا يماطلون ، وهو حزين على ما أنفقه فى هذا المشروع وما دفعه للمترجمين من مبالغ وصلت إلى آلاف الجنيهات . وكان الحل الذى توصل إليه عبقريًا ، إذ اشترى تذكرة طائرة إلى جيبوتى ومعه صورة العقد باللغات الفرنسية والانجليزية والعربية ، واتجه إلى وزارة المواصلات المختصة بالإشراف على المشروع ، (فهو مشروع تموله الأمم المتحدة لإنشاء طرق) وطالبهم بحقوقه ! وبعد محاورات ومراوغات اتضح له أن المسؤول الكبير يريد أن يتقاضى 'حلاوة' دفع المستحقات ! فهدده سمير بأن يشكوه إلى رئيس الجمهورية وإلى الأمم المتحدة نفسها ، ولكن المسؤول أفهمه أن ذلك لن يجدى فتيلا ، فلا أحد ينكر حقه ، ولكن الإجراءات اللازمة لإخراج أية أموال من خزانة الدولة بعد دخولها قد تستغرق شهورًا أو أعوامًا – ولكنها (بعد 'الحلاوة') قد تستغرق أيامًا أو ساعات معدودة ! كانت تجربة مريرة ، واضطر سمير إلى أن يتظاهر بالموافقة فقال له المسؤول إنه كان يتصور أو يخاف أن الأستاذ (le professeur ne comprends pas) أى لا يفهم وقال سمير لى فى الخطاب : ''فأفهمته أن البروفسور كله مفهومية !'' ولم يتركه سمير حتى أجبره على دفع حقوقه كاملة !

وذات يوم دخلت مكتب رئيس القسم ، وهو غرفة فيها مكاتب لأساتذة آخرين ، فوجدت فيها شابًا اسمه 'يوسف' قدمه الدكتور محمود حسين إلىّ باعتباره المشرف على البرامج الإذاعية الثقافية باللغة الانجليزية فى الإذاعة السعودية ، وإن لديه برنامجًا جديدًا هو أمهات

الكتب العربية (Arabic Classics) وأنه يودنى أن أكتب له أحاديث أسبوعية ، أجر الحديث ١٥٠ ريالاً ! ووجدت الفرصة سانحة لأعيد قراءة أمهات الكتب العربية ، خصوصًا ما كنت درجت على حبه فى صباى ، والاطلاع على غيرها ، فذهبت فى مساء ذلك اليوم نفسه إلى مكتبة كبيرة واشتريت عددًا من كتب التراث ، إلى جانب كتب أخرى هُيّئ لى بعد أكثر من عشر سنوات أن أقدم مختارات منها (مع سمير سرحان) فى مكتبة الأسرة رافد مهرجان القراءة للجميع فى مصر ! وبدأت بابن المقفع ، فعرضت لكتاب كليلة ودمنة وترجمت منه قصة القرد والغَيْلم (أى ذكر السلحفاة) وأتبعته برحلات ابن بطوطة وبرسائل اخوان الصفا وببدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ، وبالأغانى للأصفهانى (ثلاث حلقات) وهكذا حتى اكتملت ثمانى عشرة حلقة ، وكان الذى يتولى تسجيلها بالانجليزية مجموعة من الانجليزيات والأمريكيات المثقفات من زوجات الطيارين وأضرابهن ، ولم تكن المكافأة كبيرة ، ولكن ذكر اسمى أسبوعيًا فى الإذاعة الانجليزية من راديو المملكة كان فيه تعويض عن الجهد ، وما زلت أحتفظ بتسجيلات هذه البرامج (وقد استمع إليها عند عودتى الدكتور سمير أمين مدرس اللغويات بالقسم وأخذ منها نسخًا إلى أمريكا) .

وانتهى العام الدراسى وعدت فى أواخر يونيو لأجد فى المطار نهاد زوجتى مع سعيد منصور - صديقى القديم - الذى كان متزوجًا من الدكتورة نادية البنهاوى - ومعهما أخبار رائعة عن مسرحية المجاذيب ! لقد لحن الموسيقار على سعد (زوج الممثلة فتحية طنطاوى) الأغانى التى كنت كتبتُها بالعامية فى غضون النص ، وتحدد موعد افتتاح العرض فى أول أغسطس ١٩٨٣ ، وكان سمير سرحان قد أقنع الوزير رضوان بإعداد مسرح صيفى فى حديقة الحرية بأرض المعارض ، وهو مسرح فى الهواء الطلق ، وبدأ عرض مسرحية حلم ليلة صيف فيه فى يوليو !

وسعدنا فى الصيف بافتتاح مسرحية سمير ، ولكن افتتاح المجاذيب تأخر حتى منتصف أغسطس ، وإذا بالجماهير تتزاحم بصورة لم أشهد لها مثيلاً ، وكان المسرح يزدحم كل ليلة ويأتى العمال بمقاعد إضافية ، ورفض محمود الألفى زيادة أسعار التذاكر ، فالهدف هو إسعاد الجمهور لا الربح المادى ، وكان الجميع فى قمة السعادة للأضواء والموسيقى التى أمست توحى بزفة عرس فى صيف القاهرة ١٩٨٣ ، وبدأ النقاد يتوافدون ، وكان أولهم حسن عبد الرسول ومعه أخته سعاد (زميلتى القديمة فى قسم اللغة الانجليزية التى كانت تعمل فى

اليونسكو) وابنتها لبنى إسماعيل (التى كانت طالبة فى قسمنا وحصلت على الدكتوراه فيما بعد (٢٠٠٠) وبعد العرض قال لى حسن عبد الرسول إنه يدرك المعانى الخبيئة التى يزخر بها النص ، فالمجذوب الأكبر يقصد به السادات ، والمجاذيب هى الجماعات الدينية التى سمح لها بالعمل فقضت عليه ! وأنكرت ذلك بشدة مبينًا له أن تلك الشخصيات مستوحاة من الواقع الفعلى ولا توجد فى النص أية إيحاءات سياسية وافترقنا !

وتركت 'العُرْس' و'الزّفة' وعدت إلى السعودية ، وجعلت أترقب الصحف المصرية كل يوم وأتطلع إلى النقد المسرحى فلم أجد كلمة واحدة عن المسرحية ، وكان ذلك درسًا قاسيًا ، فكما قال نبيل بدران - المؤلف والناقد الراسخ - إن دور المؤلف ينتهى فى الغرب بكتابة النص، ولكنه يبدأ عندنا بتقديمه على المسرح ! فعلى المؤلف أن يرعى 'نصه' بمراعاة شيئين الأول هو التقليل من خروج الممثلين عن النص ، فهذه آفة مستأصلة فى الجميع ، إذ ما يكاد الأسبوع الأول ينقضى حتى يكون الممثل قد عرف أو تعرف على المناطق التى تحتمل 'الإضافة' لإضحاك الجمهور وزيادة الوقت الذى يقضيه على المسرح ، والثانى هو متابعة النقاد وإيضاح مقاصده ومراميه ، والإلحاح عليهم بالكتابة ، ولكن المجاذيب عرضت شهرين أو أكثر فلم تحظ بشىء يكتب عنها إلا مقالة نقد مرير كتبتها آمال بكير بعنوان 'معالجة فاترة لقضية ساخنة' ! وقرأت المقال وأنا فى جدة للعام الدراسى الثانى فحزنت حزنًا عميقًا .



ولكن صيف عام ١٩٨٣ كان يحمل نبأ سارًا وهو حصولى على جائزة الدولة التشجيعية فى الترجمة دون أن أتقدم إليها ، إذ فحصت اللجنة (لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة) الأعمال المقدمة إليها فلم تجد فيها ما هو جدير بالجائزة ، فقررت تطبيقًا للقانون اقتراح عمل ما وفحصه ، واقترح الدكتور مجدى وهبه مقرر اللجنة فحص ترجمة الفردوس المفقود ففحصتها اللجنة وقررت بالإجماع منحها الجائزة وهى ألف جنيه وشهادة تقدير ، وكان ذلك دافعًا لى على الاستمرار ، فبدأت العمل فى الجزء الثانى حالما أفقت من صدمة الاستقبال

النقدى للمجاذيب ، وجاءنا فى أكتوبر من يقول إن مشروع ترجمة معانى القرآن قد ووفق عليه، وإن اللجان التى سبق تشكيلها سوف تبدأ العمل على الفور .

وكان المشروع فى بدايته فى أيدى أساتذة كلية الهندسة باعتباره مشروعًا للترجمة بالحاسب الآلى ، وكلية الهندسة لديها قسم للحاسبات ، ولكن أساتذة الهندسة لم يستطيعوا بعد عام كامل إعداد برنامج حاسوبى ، ولم ينجح إلا اليابانيون فى عام ١٩٩٥ فى إعداد برنامج للترجمة العلمية يكاد يقوم كلية على المصطلحات دون الصياغة ، ومن ثم رأت رابطة العالم الإسلامى التى كانت تشارك جامعة الملك عبد العزيز فى المشروع ، بإشراف العام الفاضل دمث الخلق الدكتور عمر نصيف ، تحويله إلى كلية الآداب . وكان منهج الدكتور محمد محمود غالى ، أقدر وأكبر الأساتذة ، هو إعداد بيان كامل بالترجمات السابقة لمعانى القرآن ، وهى أكثر من ثلاثين ، ولا يوجد منها حاليًا إلا ١٩ ، فتقرر إعداد بطاقات تتضمن كل بطاقة الآية العربية ، وإلى جانبها الترجمات التسع عشرة ، ومكان خاص لوضع ترجمة مقترحة تأخذ من الترجمات السابقة حسناتها وتتجنب مثالبها ، وبعد أيام قضيناها فى اجتماعات مع أساتذة الهندسة ، وكان المبلغ المخصص للترجمة قد حُوِّل إليهم فأنفقوه على الحواسب ، وبعد اجتماعات مع بعض علماء التفسير الذين كانوا يقدمون لنا خلاصة آراء كبار المفسرين ، على نحو ما فعل الشيخ محمد على الصابونى ، بدأنا العمل .

كان العمل بالغ النظام والانتظام ، إذ وضع الدكتور غالى تشكيلاً يضم عدة لجان ، تتكون كل لجنة من ثلاثة ، ويكون اجتماعها يوميًا للاتفاق على ترجمة معنى آية أو أكثر ، وترفع مقترحاتها إلى لجنة عليا للنظر فيها ، وإقرارها أو تعديلها ، ولم تحدد لنا أجور ، بل ولم نطالب بأجور ، إذ كان الجميع مقبلين على دراسة كتاب الله ، وكانت لجنتى تتكون منى ومن باكستانى يدعى الدكتور سيد آل نبى ، ومن أستاذ من جنوب إفريقيا يدعى محمد فقير . وكنت أتولى أنا قراءة التفاسير التى يأتينا بها أستاذ التفسير ، وإلقاء الضوء على معانى الآية الظاهرة والباطنة ، والتنبيه إلى تأويلات الشيعة والصوفية ، ثم نشرع فى ترجمة المعنى ، محاذرين مشفقين من الخطل أو الزلل ، فالمسؤولية عظيمة . وكانت هناك لجان أخرى أهمها لجنة الدكتور عبد الله عبد الحافظ متولى ، ولجنة الدكتور على جمال الدين عزت ، ولجنة الدكتور محمود حسين ، وكان فى كل منها باكستانيون وغيرهم ، وكان الدكتور غالى يتابع العمل بدأب وإصرار .

كنا نجتمع فى المكتبة ، فأبدأ بشرح الآية لعضوى اللجنة بالانجليزية مما كان يفتح أبوابًا للصياغة واختيار الكلمات ، وبعد ذلك ننظر فى الترجمات المنشورة للآية ، ونناقشها ترجمة من بعد ترجمة ، فتأكد لى ما كنت أحسه ، وما شهدته فى الهند ، وما أصبح يرتكز الآن على أسس علمية لا تقبل النقض ، وهو أن اللغة العربية لغة لا يدرك أسرارها إلا أبناؤها ، وأن من أهم هذه الأسرار تغير معانى الكلمات بتغير موقعها فى النص أى وفقًا للسياق ، وهو ما يصدق على اللغات الأخرى ، ولكن ذلك يتخذ طابعًا خاصًا فى العربية بسبب وجود المستويات الزمنية الثلاثة للعربية وهى مستويات اللغة التراثية والفصحى المعاصرة و'العامية' أو العربية المحلية التى يتحدث بها أهل كل قطر من أقطار الوطن العربى ، وقد تأكد لى ذلك وأصبحت له قاعدته العلمية عندما قرأت كتاب الدكتور السعيد بدوى عن اللغة العربية ومستوياتها فى مصر الذى كان قد صدر قبل عشرة أعوام ولم أكن قرأته . فمعظم المترجمين يضعون – من باب احترام كتاب الله – لفظة واحدة لكل لفظة عربية ، وهذا هو منهج أربرى – المستشرق البريطانى الشهير – وبعضهم يفسر الكلمات التراثية فى ضوء الفصحى المعاصرة ، وهذا هو منهج بيكتول ، وبعضهم يضيف إلى الآية ألفاظًا بين أقواس ليحصر المعنى فى تفسير واحد قد يكون صوفيًا ، وهو منهج يوسف على . ومن ثم بدأت فى تكوين منهجى الخاص الذى يحسب حساب تغير معنى الكلمة باختلاف زمانها ، وتشكلت فى ذهنى أفكار محددة مستمدة من واقع خبرتى المذكورة ، عرضتها فى عدة كتب بالعربية والانجليزية على امتداد التسعينيات وحتى عام ٢٠٠٠ .

كان أهم ما يتطلبه هذا العمل هو الصبر ، ويكفى أن أقول إننا لم ننجز فى ثلاثة أشهر إلا ترجمة معانى سورة واحدة من القرآن ، وشُغلنا فى يناير ١٩٨٤ بالامتحانات والتفرق فى عطلة نصف العام ، وسفرى إلى انجلترا لزيارة نهاد زوجتى وسارة ابنتى . كنت أشعر بالقوة لوجود النقود فى جيبى فاشتريت التذكرة وحوّلت بعض النقود إلى جنيهات استرلينية ، وانطلقت إلى لندن فقضيت الليلة فى فندق فى محطة بادنجتون ، وهى المحطة التى كنت أركب القطار منها إلى أوكسفورد أو إلى ردنج ، وفى الصباح الباكر ركبت القطار إلى إكستر ومنها إلى إكسماوث فوصلت إلى منزل أسرتى فى الوقت الذى كنت حددته لهما فى خطابى الأخير، وفى مساء اليوم نفسه وكان يبدأ آنذاك فى الرابعة (فالشمس تغرب فى نحو ذلك الوقت) سرنا على شاطئ النهر حتى مصبه فى البحر ، واشترينا مشروبات ساخنة فى مقهى

صغير ، وهناك قالت لى نهاد إنها تمضى قُدمًا فى كتابة الرسالة وتتوقع الانتهاء منها بحلول الصيف ! وكدت أطير فرحًا ، إذ سنعود إلى مصر ، وسيلتئم شمل الأسرة من جديد ، وفى الأيام التالية ترددنا على المكتبات وذهبنا إلى لندن وشاهدنا بعض المسرحيات ، وانقضت أيام العطلة وعدت إلى جدة وليس فى ذهنى سوى تلقى الإشارة المرتقبة من نهاد حتى نعود إلى مصر بعد تقديم الاستقالة !

وفى شهور الفصل الدراسى الثانى قطعنا مرحلة لا بأس بها فى ترجمة معانى القرآن ، فاكتمل لنا جزءان ، وأعلنت اعتزامى على الاستقالة فتقبل الزملاء الخبر بالوجوم والتكذيب ، إذ يندر أن يقطع 'المعار' إعارته ويترك المال رمز القوة ووسيلتها ، ولكننى كنت أحمل ما أنجزته فى ترجمة الفردوس المفقود (أربعة كتب) وحصادًا وفيرًا من كتب التراث التى امتلأت بها ثلاث حقائب ، وذات يوم من أيام مايو ١٩٨٤ جاءنى خطاب من نهاد يؤكد أنها انتهت من الرسالة ، وأن مناقشتها وشيكة فأهرعت إلى مكتب العميد وقدمت استقالتى ! واستدعانى العميد الدكتور سليمان غنام - وكانت فيه شهامة البدو وصراحتهم - وقال لى'' إحنا زعلناك فى شىء ؟'' فأكدت له أن أسبابى عائلية محضة ، ولكنه رفض توقيع الاستقالة وقال لى سنناقشها فى الأسبوع المقبل . وأحسست أن ثمة جهودًا تبذل لإقناعى بالعدول عن الاستقالة ولكننى كنت قد صممت واستخرت الله ، وقال لى الدكتور عادل إلياس : أفلن تنتظر مكافأة ترجمة معانى القرآن ؟ وقلت له بثقة : إن كانت هناك مكافأة مادية فسوف تأتينى أينما أكن ، ولكن مكافأتى الحقيقية هى دراسة هذه الترجمات التسع عشرة وما تعلمته من التفسير ! (وتسلمت المكافأة نقدًا بعد عام كامل وأنا فى مصر) وجاءتنى مكالمة تليفونية من روما فاتصلت بهم فقالوا هل يمكن أن تأتى فى الصيف شهرين ؟ ووافقت على الفور .

وفى أواخر يونيو ١٩٨٤ ، وكنا فى رمضان ، حزمت حقائبى التى كانت ثقيلة وتنذر بدفع غرامة لزيادة الوزن ، ولكننى لم أكن مستعدًا للتخلى عن أى كتاب ، وفى المطار وقفت أحدس كم ستكون الغرامة ، ولكن الموظف المسؤول رحب بى وقال لقد كنت من طلابك ! وقلت له إننى قطعت الإعارة فأبدى الأسف وقال : ''ترجع لنا إن شاء الله !'' ورفض أن يفرض علىّ أى غرامة . وعند وصولى فتح 'كشّاف' الجمرك الحقيبة الكبرى فرأى الكتب متراصة ، ولاحظ أن عدة مجلدات تحمل عنوان تفسير ابن كثير فقال لى ''لديك نسخ متعددة من هذا الكتاب .. هل تتنازل لى عن إحداها ؟'' فأجبته بأنها أجزاء لكتاب واحد ، إن شاء أخذها

كلها أو تركها كلها ، وفى المساء أعددت سيارتى الفيات (١٣٢) شبه الجديدة للعمل ، إذ كنت اشتريتها قبل السفر مباشرة ، وكنت قد بعت فى جدة سيارتى اليابانية إلى فاروق (أخى شبير زوج عزة) ، واتصلت تليفونيا بالأسرة ، أسرتى وأسرة نهاد ، ثم بسمير سرحان الذى أخبرنى أنه ترجم ''على كيفك !'' إلى العامية وهى مسرحية شيكسبير التى عادة ما يترجم عنوانها إلى 'كما تهواه'' وبالفصحى ، مع أنها كوميديا فاقعة ، ولا تصلح لها إلاّ العامية ، وأنه أسماها زى ما تحب وأنه أسند إخراجها إلى حسين جمعة . وحادثت ماهر شفيق فريد ومررت عليه فى الصباح وخرجنا نسير فأخبرنى بوفاة والده .

كان ذلك يوم الخميس ٢١ يونيو ١٩٨٤ ، وسرنا أنا وماهر على الأقدام حتى وصلنا إلى الجامعة ، فتسلمت العمل رسميا (أى أنهيت إعارتى) وطلبت إذنًا بالسفر فقيل لى أنت فى عطلة وهذا من حقك فحصلت على 'الورقة الصفراء' وجلست أنا وماهر قليلاً مع عبد العزيز حمودة الذى كان سعيدًا بعودتى ، فقال إنه قد انتهى من كتابة مسرحية الظاهر بيبرس (التى قدمت فيما بعد باسم ابن البلد) وإنه ينتظر الفرصة المواتية لعرضها على المسرح ، بعد نجاح الرهائن نجاحًا منقطع النظير ، وخرجنا وسرنا عائدين إلى القسم فوجدنا الدكتور سعد جمال يلعن الزمن لأنه بلغ سن التقاعد وعليه أن يترك رئاسة القسم مرغمًا ، فسألناه عمن عساه يخلفه، فقال لا يوجد أساتذة عاملون إلا سمير سرحان ، فالدكتور فخرى قسطندى يصغر سعدًا بعام وبضعة أشهر ولكنه أستاذ مساعد ، والدكتورة أنجيل بطرس سمعان تجاوزت السن (فهى من مواليد ١٩٢٣ - أطال الله عمرها) وفاطمة موسى قضت سنوات الرئاسة الست ، وهى سعيدة فى السعودية ، ثم أردف قائلاً : ولكن سمير سرحان مشغول بالثقافة الجماهيرية !

ورغم حرارة الجو عدنا أنا وماهر سيرًا على الأقدام إلى منازلنا ، وتجاذبنا أطراف الحديث فأطلعته على كل ما فعلته ، وأطلعنى على مشروعاته ، وتحدثنا عن أحوال الحياة الأدبية ، وقلت له صادقًا إننى أصبحت زاهدًا فى الضجيج الإعلامى وإن هدفى هو أن أخلف شيئًا ينفع جمهور القراء العرب ، إذ لن يلتفت إلينا أحد - نحن دارسى الآداب الأجنبية - وسيظل أهل العربية نجوم المجتمع الأدبى ، وحادثته عما رأيت وسمعت فى السعودية ، وقلت له إن الناس سريعة النسيان ، فإذا لم يملك الفرد منبرًا أدبيًا يحادثهم منه أمسى عاجزًا عن التواصل معهم ، وكنت علمت بوفاة الدكتور رشاد رشدى قبل عام وأنا فى جدة ، وبوفاة

الدكتور أمين روفائيل من قبله ، فقررنا فى قيظ ذلك اليوم إعداد كتب نصوص فى الشعر والنقد تحل محل كتبهما التى غدت أضخم مما يحتاجه المدرسون .

وفى يومى السبت والأحد شُغلت بالاستعداد للسفر ، وفى يوم الاثنين سمعت فى الإذاعة البريطانية بوفاة الفيلسوف الفرنسى ميشيل فوكوه ، وقررت إعداد برنامج عنه للإذاعة ، وعرضت الفكرة على ماهر ولكنه قال إن صديقه محمد إبراهيم أبو سنة يتوقع منى برنامجًا عن الشاعر تيد هيوز ! وأعدت كتب فوكوه إلى مواقعها على الرف ، وعكفت على هيوز فقرأت كتابًا عنه من تأليف ساجار ، ثم ترجمت بعض القطع من متتابعته الطويلة 'بروميثيوس فوق الصخرة' ، وكان موعد سفرى يقترب فأسرعت بتقديم الجزء الثانى من الفردوس المفقود (الكتب الأربعة من ٣ - ٦) مع الحواشى الوافية إلى المطبعة ، وتعهد الشاعر سعد درويش بمراجعة التجارب الطباعية ، فسافرت إلى روما مطمئنًا .

ولم تعد نهاد وسارة إلى مصر إلا فى الرابع من أغسطس ، وكنت أحادثهما تليفونيًا بصفة مستمرة ، وأتمنى لو كنت معهما ، ولكن إغراء روما كان غلابًا ، فشغلت نفسى بقراءة الشعر الانجليزى الحديث إذ كنت أخشى أن انقطع إلى القدماء فأعجز عن تذوق المحدثين ، وأعددت مذكراتى الخاصة بخمسة شعراء يمثلون مذاهب مختلفة وإن كانت الحداثة تجمع بينهم، وبعد أن شبعت حداثة خطرت لى فكرة مستوحاة من أحد كتب التراث التى كنت قرأتها فى السعودية ، وهى فكرة المجاعة التى وقعت فى أيام المستنصر بالله ، ورأيت أن تصوير المجاعة على المسرح موضوع ملتهب ، وذكرت ذلك عرضًا على مائدة الغداء للسورى لؤى جمعة (وهو من دير الزور - ريفى الطبع وعنيد وشهم !) والعراقى (الكردى) زهير عبد الملك ، فقالا إن ذلك مشهور فى تاريخ المنطقة وليس مقصورًا على مصر ، ثم أهدانى زهير كتابًا صغيرًا للمقريزى هو إغاثة الأمة بكشف الغمة عن تاريخ المجاعات فى مصر ! وبدأت التخطيط لمسرحية الغربان (وأطلقت اسم زهير على بطل المسرحية) ، وإن كانت الشخصيات التى استوحيتها معاصرة ، ووجدت أننى أكتب فقرات منظومة ، بل وحوارًا شبه منظوم ، فقررت أن أستخدم قالب النظم فى الكتابة هذه المرة ... وبالفصحى !

وتعرفت آنذاك على شخص نادر يدعى إسماعيل أبو زيد ، أصبح من أقرب أصدقائى ، وكان يعمل فى قسم التحرير بالمنظمة ، وقصصت عليه عَرَضًا فكرة الغربان فتحمس للفكرة ، واصطحبنى فى السيارة بعد أن انتهينا من العمل فى الخامسة إلى مقهى على شاطئ البحر ،

وجلس يقص علىّ طرفًا من معاناة الفلاحين فى قريته بالدقهلية فى أيام الملكية من عنت الإقطاعيين وجبروتهم ، وكيف انتهى به ذلك إلى الإيمان بالناصرية بعد الاشتراكية ، وكانت نهاد زوجتى - عندما تعرفت عليه فى العام التالى وتوثقت العلاقة بيننا - تطلق عليه لقب ''آخر الناصريين المحترمين'' لصغر سنه !

كان حديث إسماعيل أبو زيد يتسم بالصدق والجد ، وهما صفتان كانتا قد بدأتا فى التوارى من مجتمع السبعينيات ، وجعلت أستمع إليه وأنا لا أريد الرحيل حتى غربت الشمس فعدنا وقد اتضحت لى صورة ما أريد أن أفعل فى الغربان . وعندما 'فتحت' التليفزيون لأشاهد الأخبار فى الثامنة سمعت وشاهدت مظاهرات الآلاف فى الفلبين ضد الرئيس ماركوس، وكنت قد بدأت فى تحسين لغتى الإيطالية ، فأدركت أن المظاهرة التى نظمت فى ٢١ أغسطس كانت لإحياء ذكرى أكينو (بنينيو أكينو) زعيم المعارضة الذى اغتالته الحكومة قبل عام ، وفى اليوم التالى سمعت عن اشتداد حدّة المجاعة فى إثيوبيا تحت حكم منجستو ، فكأنما كنت أشهد أحداث مسرحية فعلية أليمة ! وعندما عدت إلى مصر يوم السبت أول سبتمبر كتبت فى مفكرتى ''قراءة تاريخ الدولة الفاطمية'' .

وشغلنا عند وصولى بالتقديم لسارة ابنتى فى مدرستها القديمة بعد قضاء سنتين فى مدرسة انجليزية ، وتمت الإجراءات بسهولة ، ثم افتتحت مسرحية زى ما تحب فى مسرح الهواء الطلق بحديقة الحرية ، وألقى سعد أردش خطابًا عن المسرح بمناسبة انتهاء عمله رسميًا رئيسًا لهيئة المسرح (لبلوغه سن التقاعد) ثم بدأ حفل الافتتاح الذى حضره الوزير رضوان ، وحضره لفيف من أعضاء هيئة التدريس بقسم اللغة الانجليزية ، واصطحبنى سمير سرحان لتهنئة الممثلين على المسرح فرأيت بينهم زوجة 'حسن' ، وإن لم ألمحها تشارك فى العرض ! وكدت أن أسألها عن 'حسن' ، وربما لمحت السؤال فى عينى فقالت بلهجة صافية (ويالها من ممثلة بارعة) ''ده حسن فى مصر وبيدور عليك !'' وابتسمت وشكرتها ! وفى صباح اليوم التالى اتصل بى حسن تليفونيا واتفقنا على اللقاء بعد أيام !

أصـرت نهـاد زوجتى بعـد عـودتنا إلى إعـادة طلاء الشـقـة قـائلة إنهـا لا يمكن أن تسـتقبل الشـتـاء بهـذه الجـدران الـكالحـة ، وكـانت مـحـقـة تمامًـا ولكننى كنت أخشى القلقلة وقد بدأت العمل بقراءة كتاب العقاد عن الفاطميين (واستعرته من الأستاذ أحمد السودة) ثم بقراءة عدد من الكتب المدرسيـة (ولا أقـول 'الأكـاديميـة') مـثل كـتـاب حـسـن إبراهيم حـسن عن تاريخ الإسـلام ، وكـان الواضـح (حتى من الأسلوب) أنه ينقل عن مصـادر أجنبيـة ، ثم قـرأت أحـمـد أمين ، وأخيرًا استعنت بالدكتور حسنين ربيع ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى وصديقى القديم، فـأعطانى قائمة ممتازة ، واخترت منها ما وجدته مفيدًا (وحـاضرًا) ومـا أن حل الشتاء حتى عثرت على ضـالتى لا فى تاريخ الدولة الفـاطمية بل بعدها بكثيـر ، ولم أجدها فى تلك الكتب بل فى خطط المقريزى !

كان سـمـيـر سرحان قد عُيّن رئيسًا للقسم فى مطلع العام الدراسى ، وقـام بجهد مشكور فى حفـز الدكتور فخرى قسطندى (الكسول) على التقدم للترقية لدرجة أستاذ ، حتى أنه كان يتابع عمله أحيانًا ، ودفعه آخر الأمر إلى طبع كتابين عن برنارد شو وعن مسرحية قروسطية هى كل إنسـان ، وكان الواضح أن سـمـيـرًا يخطط لتـرك رئاسـة القـسم له ، إذ كـان عـز الدين إسمـاعيل مرشـحًا لرئاسة أكاديمية الفنون فى العـام التالى ، وكانت رئاسـة هيئة الكتاب تنتظر شخصية أدبية مرموقة مثله ، خصوصًا بعد أن أبلى بلاءً حسنًا فى الثقافة الجماهيرية ، ولقد حضـرت اجتمـاعًا له مع مندوب الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) انتهى بحصول هيئة الثقـافة الجمـاهيرية على دعم كبيـر لأنشطتها ، وكـان نجاحـه محط أنظار الجميع الذين رأوا فى خيـاله الخصب وذهنه المائج بالأفكار الجديدة ما يمكن أن ينهض بهيئة الكتاب نهضة حقـيقـيـة ، وذلك بعد أن حوّلهـا عـز الدين إسـمـاعيل إلى دار صـحـفـيـة ، تصـدر (إلى جـانب فصول) مجلة القاهرة (برئاسة عبد الرحـمن فهمى) ومجلة إبداع (برئاسـة عبد القـادر القط) ، وإذا كـانت فـصـول فـصليـة ويمكن اعـتـبـارهـا كـتـابًا دوريًـا ، وإذا كـانت إبداع شـهـرية لا تسـتنفـد الكثيـر من الورق ، فإن القـاهرة كانت أسبوعية وتكاد تلتهم الميزانية التهامًا .

وعندما تغيـرت الوزارة وجاء الدكتور أحمد هيكل وزيرًا للثقافة وكنت أعرفه من الجـامعة وأحبه وأحترمه ، بعد أن ناقشنا مسرحية فاروق جويدة الوزير العاشق فى صـورتها الأولى فى

برنامج أمسية ثقافية ، أحسست أن الأوان قد آن لأن أكتب الغريان شعرًا ، ولكن حسين جمعة كان يلح علىّ أن أقدم له مسرحية مترجمة ، وحبذا لو كانت غنائية ، وحبذا لو كانت جماهيرية إلخ ففكرت فى إعادة صياغة ترجمتى المنثورة القديمة لمسرحية روميو وجوليت لشيكسبير ، فعكفت على النص القديم تعديلاً وحذفًا وإضافة ,وجعلت فيه مواقف شعرية كاملة ، مثل مشهد الشرفة الشهير ، كما 'تبحبحت' فى الإعداد فقسمت العرض إلى قسمين، وما إن حل الربيع حتى كان النص قد اكتمل ، وعندها حمدت عمل الشتاء مثلما يحمد القوم السرى عند الصباح ! كان حسين جمعة سعيدًا بإخراجه نصيّن بالعامية لشيكسبير من ترجمة سمير سرحان ، وكان يتوق إلى الاستمرار بتقديم نص شعرى غنائى فى موقع مماثل ، بعد إغلاق مسرح حديقة الحرية ، فاقترح على 'مسرح الشباب' الذى كان يرأسه رشاد عثمان التقدم بطلب إلى الوزارة بإنشاء 'مسرح النهر' فى الزمالك فى مواجهة نادى الجزيرة ، وما كان أشد سرورنا حين جاءت الموافقة من الوزارة ومن المحافظة ! وبدأ العمل فى إنشاء حديقة على شاطئ النيل فى إبريل حتى تكون جاهزة بمسرح كبير من خلفه الأشجار الباسقة لتقديم العرض فى الصيف .

وريثما يتم ذلك بدأ حسين جمعة تجاربه المسرحية فى مكان أعده خصيصًا بجوار المسرح العائم بجوار كوبرى الجامعة ، واختار عزة بلبع للقيام بدور جوليت وأشرف سيف (ابن وحيد سيف) للقيام بدور روميو ، وكان تصوره أن يكون العرض غنائيًا وموسيقيًا ، ولم نجد خيرًا من جمال سلامة لوضع الألحان والموسيقى ، وحسين جمعة شعلة من نشاط ، وأذكر أننى كنت مع سمير سرحان فى منزلى وحدنا حين جاءتنى مكالمة تليفونية منه يطلب فيها حضورى فورًا إلى منزل جمال سلامة فى الزمالك ، وكنت مشغولاً مع سمير فى ضبط جهاز التليفزيون الملون الذى دخل منزلنا لأول مرة ، فاعتذرت لسمير وتركته 'يلعب' مع الجهاز وأهرعت إلى الزمالك.

وجلس ثلاثتنا حول النص نرى ما يصلح فيه للغناء الفردى ، وما يصلح للإلقاء مع خلفية موسيقية (روستاتيف) فانتهينا إلى أن عشرين مقطوعة تصلح للغناء ، بعد تعديل النظم فى بعضها حتى تصبح كوبليهات ليسهل تلحينها ، وترك الباقى للإلقاء الروستاتيف . وسألنى جمال عن ألوان الأنغام التى أتصورها وألوان الإيقاعات ، وكان يعرف أننى درست الموسيقى ، فتناقشنا وشربنا الشاى وأكلنا الحلوى (فجمال مغرم بالحلويات ولا يكاد يتناول سواها فى

عمله أو فراغه) حتى انتصف الليل أو كاد ، وكان حسين جمعة لا يكف عن الكلام حتى أثناء 'دندنتنا' بالألحان ! وجمال عبقرية نادرة ، يتفجر ألحانًا ويتحدث بالعبارات الموسيقية مثلما نتحدث نحن باللغة ! وتفاءلت ونحن خارجيّن ، ولكننا كنا ما نزال ننتظر بناء المسرح الذى سوف يقدم عليه النص !

ولكن تفاؤلى أسلمنى إلى 'العذاب' وهو صحبة حسين جمعة ، فكلما طرأ طارئ فى إعداد المسرح ، أو تأخر أحد المقاولين فى عمله ، حادثنى بالتليفون ونسب التعطيل إلى مؤامرات 'الشيوعيين' ، والمشكلة هى أنه لم يكن يستطيع التوقف أثناء الحديث لالتقاط النفس (ولا يزال) فهو 'يسرق النَّفَس' كما نقول فى مجال الغناء أثناء الحديث ، ويواصل ربط العبارات بأسلوب جدير بالتحليل اللغوى الحديث ، ولم أكن أستطيع أن أنهى المكالمة بسهولة، فكان وجع الرأس الذى استمر طيلة شهر مايو ، حتى بعد أن اكتملت لديه الموسيقى ، وبدأ بروفات الحركة ، وانتهى تصميم الملابس ، فتوقعت افتتاح المسرحية فى يوليو ، أو فى أغسطس على أقصى تقدير ، وشغلت نفسى بإعداد دراسة بالانجليزية عن التورية الساخرة أو المفارقة الدرامية (irony) فى الشعر الانجليزى الحديث ، وحاولت عبثًا أن أنسى عذاب حسين جمعة !

وجاء الفرج عندما اتصلوا بى فى روما ودعونى للعمل فى الصيف ، وكان سمير سرحان قد قرر الانتقال إلى هيئة الكتاب وترك رئاسة القسم للدكتور فخرى الذى كان قد تقدم للترقية، فى اللحظة الأخيرة، فهو من مواليد عام ١٩٢٥ أى إنه كان لابد من الترقية حالاً قبل بلوغه سن التقاعد (المعاش) وكان عبد العزيز حمودة قد انتخب عميدًا للكلية، وسافرنا أنا ونهاد وسارة إلى روما، وقضينا الصيف فى حوار مسرحى ، وكانت الدكتورة سمحة الخولى رئيسة أكاديمية الفنون قد وافقت أخيرًا على تعيينها فى هيئة التدريس بالمعهد العالى للنقد الفنى بعد حصولها على الدكتوراه، وكان حديثى يدور دائمًا عن الغربان، وإن كنت أقضى الوقت فى التسرية بقراءة روايات جراهام جرين التى اشتريتها من مكتبة الأمم المتحدة، وعدنا فى أول أغسطس لنجد أن حسين جمعة ما زال يجرى التجارب المسرحية فى المسرح الجديد!

وعندما كنت أتعجل حسين جمعة كان يقول لى ''أنا لا أخسر شيئًا ! فأنا من مواطنى الاسكندرية ، وأتقاضى يوميًا بدل سفر قدره ثلاثون جنيهًا ! ولا يضيرنى إذا تأخر افتتاح العرض !'' وكنت متخوفًا من التأخر لأن الخريف على الأبواب ، وشاطئ النهر بارد لا يشجع

الجمهور على الصمود ، خصوصًا بسبب طول النص ، وكان هذا هو العيب الأساسى الذى أَعُدُّ نفسى مسؤولاً عنه فى المقام الأول !

طول النص ؟ الحق أننى أخطأت - على نحو ما ذكر عبد العزيز حمودة فى تحليله للعرض فى برنامج المسرح التليفزيونى الذى تقدمه سميحة غالب (أرملة صلاح عبد الصبور - رحمهما الله) أخطأت حين قدمت مسرحية غنائية ومسرحية درامية فى آن واحد ! كان علىّ إذا اخترت الصورة الأولى أن أحذف الكثير من تفاصيل الحبكة ، بل وأن أضغط النص ضغطًا لا يسمح بالتفريعات أو الحبكات الثانوية ، وأما إذا اخترت الصورة الثانية فلا بأس من تقديم كل شىء دون موسيقى وغناء ! كانت التجربة مفيدة فالكاتب لا يتعلم إلا من واقع العرض المسرحى ، وهذا هو ما أفادنى فيما كتبته بعد ذلك من مسرحيات (الغربان ، وجاسوس فى قصر السلطان ، والدرويش والغازية) .

وحل سبتمبر واستعد الناس لدخول المدارس ، وبدأت الرطوبة تشيع فى المساء على شاطئ النهر ، وحسين جمعة يجرى تجاربه المسرحية ، وكنت فى أثناء ذلك ألح على سمير سرحان فى أن يسمح بإصدار (أو إعادة إصدار) مجلة المسرح من هيئة الكتاب ، وكنت عندما عرضت الفكرة على الدكتور عز الدين إسماعيل اقترح إصدارها بالمشاركة مع هيئة المسرح ، ولكننا كنا الآن نحاول تحقيق أحلام أكبر ، إذ عادت فكرة نشر الأدب العربى المترجم إلى الانجليزية تلح على ذهنى ، وكان سمير متحمسًا لها ، بل كان قد طلب من نهاد صليحة ترجمة محاكمة فى منتصف الليل للروائى محمد جلال ، وانتهت منها فعلاً ، وكتب لها المقدمة الانجليزية بنفسه ! كنت طموحًا فى حركة أدبية شاملة لا مسرحية فقط ، ولكن سمير كان لا يزال يدرس أحوال الهيئة ، بما اكتسبه من خبرة فى الإدارة فى الثقافة الجماهيرية ، وكان أهم ما اكتشفه أن مدير الشئون المالية والإدارية يتحكم مع أعوانه فى مسار الهيئة ونشاطها إما بحبس المال عنها بطرائق ملتوية تخصص فيها أو بتقديم المال بشروط ، وهو ما لم يكن غير سمير قادرًا على اكتشافه ، ذلك أنه أغرق نفسه فى دراسة هذه 'الشئون' حتى يعرف كل شىء ، وهو عمل مضن شاق ، وانتهى به الأمر إلى أن تخلص من ذلك الموظف الكبير بعد كشف حيله ، وهكذا لم يبدأ عام ١٩٨٦ إلا وسمير يعرف ماذا يجرى من أمامه ومن ورائه !

ولم ترفع الستار عن روميو وجوليت إلا فى يوم الخميس ١٩ سبتمبر ١٩٨٥ والخريف على مبعدة يومين ، ومع ذلك فقد امتلأ المسرح يوم الافتتاح وكان الدكتور أحمد هيكل وزير

الثقافة حاضرًا مع نخبة من الأدباء والفنانين كان من بينهم أنيس منصور ، وفاروق جويدة الذى قال لسمير سرحان ''محمد عامل شغل كويس رغم أن الشعر لا يترجم !'' وجلست بجوارى عبلة الروينى ناقدة الأخبار التى كتبت مقالاً جميلاً عن العرض اختصره حسن عبد الرسول ، كما كتبت آمال بكير مقالاً مُطوّلاً ، وسرعان ما جاء التليفزيون لتصوير المسرحية وقامت بإخراجها للتليفزيون إقبال الشارونى (زوجة سمير عوض) وكانت آلات التصوير تتعطل أحيانًا فيضطر الممثلون إلى إعادة المشهد ، وسهرنا ليلتها حتى الرابعة صباحًا ! وكان من بين الذين واظبوا على الحضور - فحضرت أكثر من مرة - طالبة مجتهدة لدينا فى قسم اللغة الانجليزية خضراء العينين ، عرفت فيما بعد أنها ميس النقاش ابنة رجاء ، وذات مساء فى أواخر سبتمبر لمحت فريقًا من لابسى الجلابيب البيضاء و'الغترة' (وهى لباس الرأس السعودى) وعجبت من إقبالهم على مشاهدة عرض بالفصحى ، ولكن أحدهم تعرّف علىّ وجاءنى متهلّلاً وقال لى إنه أحد طلابى السابقين ! وانتهى العرض فى ٢١ أكتوبر !

وصدر العدد الأول أو الكتاب الأول فى سلسلة الأدب العربى المعاصر بالانجليزية فى يناير ١٩٨٦ ، وهو ترجمة رواية محاكمة فى منتصف الليل لمحمد جلال ، وجاءنا خطاب من المستشار الثقافى فى المجلس البريطانى يثنى على الرواية وعلى الترجمة ويعترض على حجم الكتاب إذ كان من القطع الكبير ، ودعانى جمال الغيطانى إلى مكتبه بعد أن تولى الإشراف على الصفحة الأدبية فى جريدة الأخبار ، وأعطانى صورة تصلح لغلاف روايته وقائع حارة الزعفرانى التى كان قد ترجمها أمريكى يدعى ''بيتر أُو دانييل'' فى نحو عشر سنوات ، وكتبتُ لها مقدمة طويلة بعد أن راجعت النص وعدّلت ما تعذر عليه فهمه من عبارات كتبت بالفصحى وإن كانت أصولها عامية مثل ''ممكن خمسة ؟'' فقد حيره هذا التعبير ولم يعرف الخمسة ''المقصودين'' ، بل أشار إلى ذلك فى الهامش ، وصدرت الترجمة فى إبريل ، فتشجعتُ وأعددت مجموعة الشعر العربى المعاصر التى ترجمتها ، وقدمت لها بمقدمة طويلة تتضمن مقارنات مستفيضة بين الشعر العربى 'الجديد' فى مصر والشعر الانجليزى الحديث، وصدر الكتاب ، وهو الثالث فى السلسلة فى يونيو ١٩٨٦ .

وفى الصيف سافرت إلى روما ، وكان قد صدر لى كتاب **Varieties of Irony** أى أنواع من التورية الساخرة ، كما صدر لى عن دار غريب للنشر كتاب دراسات فى الشعر والمسرح ، والجزء الثانى من الفردوس المفقود بحواشيه الضافية ، فاجتمع لدى من الدراسات

والترجمات بالعربية والانجليزية ما يكفى للتقدم للترقية ، فتقدمت بالطلب مشفوعًا بما يسمى 'النشاط الثقافى' وسافرت مطمئنًا ، واستطعت التركيز فى روما على الغربان ، وكان إسماعيل أبو زيد يقرأ ما أكتبه أولاً بأول ، فما انتهى الصيف حتى كنت قد رقيت أستاذًا وكتبتُ المسرحية فى صورتها الأولى . وعرضتها على نهاد فأبدت اعتراضات كثيرة دفعتنى إلى إجراء ما اقترَحَتْهُ من تعديلات ، وأعددت النص بالآلة الكاتبة ، وقرأته على ماهر شفيق فريد والأستاذ أحمد السودة فأبديا عدة ملاحظات قررت تأجيل النظر فيها .

ونشرت المسرحية فى هذه الصورة الأولى بمجلة إبداع (فبراير ١٩٨٦) ، وتقبلها النقاد بقبول حسن ، وهو ما شجعنى على تقديمها إلى المسرح الحديث ، وقرأها محمود الحدينى وناقشها معى ، وكان يرى أن كفة الشعر فيها ترجح كفة الدراما ، وجلسنا نبحث ذلك تفصيلاً ووجدت كلامه مقنعًا فعدت إلى النص حتى أزيد فيه من هوة التصادم بين الفلاحين وبين السلطة المملوكية ، وأكاد أعيد صياغة النص طلبا لتعميق الصراع الذى هو جوهر الدراما ، ولكن القالب ''التجريبى'' الذى يتضمن الراوى كان لا يزال قائمًا ، مما جعلنى أقدمها إلى سمير العصفورى فى مسرح الطليعة ، وقرأها ورحب بها ، واختطفها من يده مخرج نابه هو ماهر عبد الحميد ووجدته يتصل بى تليفونيًا ويقول لى ''إيه البونبوناية دى !'' وكان يقصد بذلك أنها ''صغيرة وحلوة'' وقال سمير العصفورى إنه موافق على تقديمها فى الموسم الجديد ، ولكن ماهرًا حصل فى تلك الآونة على عقد للعمل بإحدى دول الخليج وسافر فجأة وربيع ١٩٨٧ لم يكد يبدأ .

كنا فى مارس ، وكان والدى قد أصابه ارتفاع ضغط الدم بالفالج ، إذ كان لا يؤمن بالأطباء ولا بالأدوية ، وكانت تلك هى المرة الثالثة ، وكانت الأولى فى ١٩٧٢ والثانية فى ١٩٧٧ ، وكان عنيدًا لا يصغى لنصح أحد ، وبدا أنه ملّ الحياة بعد تقلبات الدهر التى تحدثت عنها من قبل ، وكنت آنذاك فى الكويت أعمل فى إحدى دورات منظمة المؤتمر الإسلامى ، وعندما عدت فوجئت بحالته المؤسفة ، وأحضرنا له أنا وأخى مصطفى بعض الأطباء الذين بينوا له خطورة الحالة ووصفوا له بعض الأدوية ، وكانت والدتى تؤدى فريضة الحج للمرة الثالثة ، وعندما عادت لم يكن ثم بد من نقله إلى المستشفى ، ولكن حالته تدهورت بسرعة وتوفى فى ٢٧ مارس ١٩٧٨ . وكنت ما زلت أكتب فى الأهرام ولكن فى عدد الجمعة فى عمود أسبوعيات ، وكتبت له رثاء بعنوان عاد إلى الطيور .

وعندما كنت فى الكويت احتفل بنا أنا والدكتورة سامية أسعد (من القسم الفرنسى) أعضاء هيئة التدريس فى كلية الآداب ، واتفق معى الدكتور سامى أنور رئيس قسم اللغة الانجليزية على الالتحاق بالقسم فى العام التالى ، وقدمنى الدكتور جابر عصفور ، الذى كان وكيلاً للكلية لشئون الدراسات العليا والبحوث ، إلى العميد الدكتور خلدون النقيب ، وبات فى حكم المؤكد أن أغادر القاهرة فى العام الدراسى التالى . ولا زلت أذكر مائدة الغداء التى أقامتها الكلية احتفالاً بنا (أنا وسامية) وأحاديثنا مع الأساتذة ، وكان أكثر ما راعنا هو كثرة الأساتذة المصريين الذين لا نعرف عنهم شيئًا فى مصر ، بعضهم تقدم به العمر وبعضهم ما زال فى ريعانه ، ولكنهم جميعًا مجهولون لنا ، فهم لا يكتبون ولا يترجمون ، ولكن يعيشون قانعين بالحياة الرخيّة ، بعيدًا عن أعين الحساد والطامعين ! ودعانا الدكتور سامى أنور أنا والدكتور زكى عبد الله إلى الخروج إلى وسط البلد لشراء مستلزماتنا ، ثم إلى منزله ، كما دعانا (أنا وسامية) الدكتور عزت عبد الموجود إلى منزله ، وهو طباخ ماهر ، فقضينا معه سهرة ممتعة ، وقال لنا جابر عصفور فى تلك السهرة إن جامعة الكويت منحت جائزة التفوق العلمى للدكتور فؤاد زكريا لأنه ترجم ٢٥ كتابًا .

كانت أصداء رحلة الكويت لا تزال ترن فى أذنى ونحن فى رحلة العودة من رشيد حيث دفن والدى رحمه الله فى مقابر الأسرة ، وكنت أتأمل مصر طيلة الرحلة ، وأنظر فى حسرة إلى يد الخراب التى امتدت إلى حديقة والدى فأحالتها باسم العمران إلى أرض للبناء ، وتطلعت دامع العينين إلى أطلال ذلك البستان الذى بذل فيه والدى جهدًا جهيدًا ، فغرس الأشجار حتى أصبح قبلة أنظار الطيور الأوروبية المهاجرة ، وعدت كأننى دفنت حياة أو قل دنيا كاملة ، عالم كامل كان يتوارى وأنا أنظر كسير القلب عاجزًا عن فعل شىء . وأحسست آنذاك أننا جميعًا لا نملك من أمرنا شيئًا فكأن الغربة قدر ، وكأن التغير يُحدث من الغربة فى الداخل ما تتجاوز آثاره غربة البدن .

وعدت إلى المسرحية أحاول أن أجد فى تقديمها السلوى وكنت أطمع فى أن يقدمها أحد المخرجين الشبان ممن أثق فى قدراتهم مثل عصام السيد أو مراد منير ، ولكن الجميع كانوا مشغولين بمشروعاتهم الخاصة ، وفى مطلع الصيف اتصل بى الدكتور هانى مطاوع وقابلته وأعطيته النّص وقابلته فى محل 'الويمبى' فى المهندسين ، وقال لى إنها 'ليبرتو' رائع (أى مسرحية شعرية غنائية) ، وهو على استعداد لإخراجها ، بشرط إيجاد المسرح المناسب ،

وقررت أن أذهب إلى سمير العصفورى وأقنعه بهانى مطاوع ، ولكن سميرًا كان كعهدى به ماكرًا فلم يقدم لى إجابة نهائية ، وجعل يتكلم ويتكلم دون أن أدرى مقصده ، وكنت إذ ذاك ما زلت فى الأربعينيات وأتناول دواء ضغط الدم يوميًا فتحملت حديثه الذى طال فأمعن فى الطول وانصرفت دون إجابة حاسمة.

وعند باب المسرح قابلت صديقى الجوّال 'حسن' !



تحدث حسن طويلاً عن حياته فى الخليج قائلاً إن الحرب قد خلقت روابط متينة بين عرب الخليج، إذ شعروا - ربما لأول مرة - أنهم يواجهون خطرًا مشتركًا، وإن العراق، رغم ظروف الحرب، تعيش أيامًا مجيدة، فالأموال متوافرة، والعمل المسرحى والدراما الإذاعية فى أوج الازدهار، وإنه يحاول إنشاء معهد للفنون المسرحية فى إحدى دول الخليج، وهو الآن يدرس - على الطبيعة - إمكان الاستعانة بالأساتذة المصريين من داخل الأكاديمية وخارجها، وأدركت ما يرمى إليه فقلت له إننى أكثر اطمئنانًا إلى اللغة الانجليزية والأدب الانجليزى، وإن ثَمَّ احتمالاً هو ذهابى إلى الكويت! فقال بسرعة: "وما العراق والكويت ؟ إنهما واحد!" وقلت له إنه واهم فالفارق شاسع، فجعل يحدثنى عن تحرر المجتمع العراقى قائلاً إنه مثل قاهرة الخمسينيات والستينيات، وإن حب العراقيين للمصريين لا يماثله حب شعب آخر، وكنت فى غمار ذلك أتحيّن لحظة صمت لعرض الغربان عليه، ووجدت الفرصة سانحة عندما وصلنا إلى سيارتينا فوضعت فى يده النص ، وقلت له أن يقرأه ويقول لى رأيه . وافترقنا .

وفى إبريل اتصل بى المستشار الثقافى فى المجلس البريطانى وعرض علىّ المشاركة فى مؤتمر الأدب الحديث فى كيمبريدج بانجلترا ، فى يوليو ، ووافقت وذهبت إليه وقابلته وشرحت له أننى فقير ولا أستطيع تحمل ثمن تذكرة الطائرة فوافق على أن يتحملها المجلس ، وأحضرت إليه بعد ذلك جواز السفر حتى يتولى المجلس استخراج التأشيرة لى . وشغلت بعد ذلك بالامتحانات ، وبالشئون الجامعية ، إذ كان الدكتور فخرى قد تولى رئاسة القسم عامًا واحدًا ، وتولت بعده الدكتورة هدى جندى صديقتى القديمة ، ولم تكن قد تسلمت الرئاسة

رسميًا ، لأننا كنا ما نزال نعيش فى ظل العام المنصرم ، ولكن التغيير المحتوم كان يتطلب الحضور المنتظم إلى الجامعة ، وذات يوم أثناء درس الترجمة الأدبية لطلاب الدبلوم - وكانت آخر محاضرة - أتى إلى طالبٌ بترجمة لفقرة من مسرحية تاجر البندقية لشيكسبير أبدعها الشاعر الكبير خليل مطران ، فقررت أن أجعلها موضوع الدرس ، مثلما كان شكرى عياد يفعل عندما كنا نخصص بعض الدروس (فى عام ١٩٥٧) لدراسة ترجمات لويس عوض لمسرحيات الشاعر الانجليزى الأشهر . وعندما عدت إلى المنزل فى ذلك المساء كنت قررت أن أترجم ذلك النص نظمًا .

كانت ترجمة شيكسبير (شعرًا أو نثرًا) تتطلب ما يسمى بمعايشة النص معايشة كاملة ، ومقارنة الشروح والتعليقات فى الطبعات المختلفة بعضها بالبعض ، وقد وجدت فى ذلك متعة أى متعة ، وانكببت على العمل بحماس ، حتى انتهيت أو كدت أنتهى من النص قبل السفر إلى كيمبريدج ! كان إيقاع النظم ساحرًا ، خصوصًا حين يتغير البحر بصورة شبه تلقائية بتغير الموقف ونبرة المتحدث وشخصيته ، وسرّنى سرورًا عظيمًا أن أستطيع استخدام البحور المركبة (كالخفيف مثلاً) وعدم الاقتصار على البحور الصافية ، مثل الكامل والرجز (والرمل والهزج) والمتقارب والخبب ، وكنت أذعن تمامًا لموسيقى الشعر بعد أن أيقظت تجربة الفردوس المفقود وروميو وجوليت ما كان قد أغفى ، أو ضرب الله على آذانه فى كهف نفسى من كلم العرب سنين عددًا ، وكانت متعة العمل بترجمة الشعر تفوق كل ما عداها ولو كان التأليف المسرحى نفسه .

أما مؤتمر كيمبريدج فكان مناسبة فريدة للالتقاء ببعض كبار الأساتذة والأدباء الانجليز مثل جورج شتاينر ، وداڤيد لودج ، وداميان جرانت ، وكريستوفر بيجسبى ، ومارجريت درابل، وتيرنس هوكس ، وأنتونى ثويت ، وفان ويلدون ، وجاياترى سبيڤاك ، وبعض أساتذة اللغة الانجليزية الأجانب (من إيطاليا واليونان وبولندا إلخ) ولكن أهم ملامحه كان تعرفى بأستاذ عراقى فى اللغويات ، وأستاذ سعودى فى الأدب هو الدكتور عزت خطّاب ، خريج جامعة القاهرة ، الذى كان ملازمًا لى كظلّى ، فقد كنت المتحدث باسم العرب فى المؤتمر ، وقررت إدارة المؤتمر عقد جلسة خاصة قرأت فيها ترجماتى للشعراء العرب من الكتاب الذى سبقت الإشارة إليه ، وكان الحفل الختامى قد سبقته جلسة حول تقديم شيكسبير باللغات المختلفة ، فقلت ما فتح الله به علىّ ، وقدمت لهم نماذج من إيقاع الشعر العربى ، فكانوا به فرحين. وقد

كتبت أربعة مقالات فى عمود أسبوعيات بالأهرام عن هذا المؤتمر بعد عودتى ، جمعتها فى كتاب صدر عام ١٩٩٣ بعنوان مقالات فى الأدب والحياة ولذلك فلن أفيض فى الحديث عنه .

وصل فى الصيف إلى القاهرة الدكتور فاروق عبد الوهاب صديق الصبا وزميلنا القديم ، واستأجر شقة مفروشة فى شارع أحمد عرابى ، لا تبعد إلا دقائق بالسيارة عن منزلنا فى المهندسين ، وكان قد حصل على مهمة علمية من جامعة شيكاغو لجمع ونشر الأعمال المسرحية الكاملة لميخائيل رومان ، وكان قد أنجز إنجازًا باهرًا هو ترجمة الزينى بركات لجمال الغيطانى إلى اللغة الانجليزية ، وبدأنا نتزاور ونكثر من الخروج إلى المسرح ، وسرعان ما حل الخريف وأطلعته على نشاطنا فى الترجمة ، ولكنه رفض الإطلاع على ترجمة جمال الغيطانى (الزعفرانى) لأنه كان قد ترجمها ولم تنشر بعد ويريد أن يقسم أنه لم يطّلع على ترجمتنا لها، ودهشت لذلك ، وكنت قد بدأت تشجيع بعض أعضاء هيئة التدريس فى القسم لدينا على المشاركة فى هذا المشروع ، فترجمت الدكتورة مارى تيريز عبد المسيح رواية أخبار من عزبة المنيسى ليوسف القعيد ، وكتبت لها مقدمة ، وهى الآن أستاذة فى القسم لدينا ، وترجمت الدكتورة هدى عياد (ابنة الدكتور شكرى عياد رحمه الله) رواية حادث النصف متر لصبرى موسى ، كما دعوت المترجمين من خارج قسمنا ، أجانب وعربًا ، إلى المشاركة فى الترجمة ، على الرغم من ضآلة المكافأة إذ كنا ولا نزال مقيدين بالقرار الجمهورى الذى أشرت إليه لعام ١٩٧٨ وهو ستة مليمات للكلمة ، وبحد أقصى هو ألف جنيه للكتاب الواحد مهما يبلغ حجمه ، فنشرت ترجمة بعد أن يموت الملك لصلاح عبد الصبور التى أبدعتها نهاد زوجتى، وكتب عنها الدكتور فاروق عبد الوهاب مقالاً يمتدحها فيه ويؤكد روعة الترجمة فى الأهرام، كما نشرت ترجمات لبعض المستشرقين مثل ترجمة رواية أيام الإنسان السبعة لعبد الحكيم قاسم التى ترجمها أحد المستشرقين (وهو Joseph Norment Bell) ومسرحية كوبرى الناموس لسعد الدين وهبة التى ترجمتها شارلوت شبراوى الأستاذة بالجامعة الأمريكية (وزوجة الدكتور صبرى شبراوى) وكتبت لها المقدمة بنفسى ، وبدأ الناس يشعرون بأهمية المشروع دون أن يدركوا الصعوبات التى نكابدها فى سبيله ، كما أتى لى مجيد طوبيا بقصص قصيرة ترجمتها ابنة يوسف جوهر التى تقيم فى أمريكا وعنوانها فوستوك يصل إلى القمر ، وأحسست بجدوى المشروع حين أرسلت الدكتورة نازك الدفراوى (المصرية) الأستاذة بكلية كورنيل فى أمريكا طلبًا لإرسال مجموعة من كتب السلسلة لتدريسها فى أمريكا

للأمريكيين ، وكلما أرسلنا إليها مجموعة طلبت المزيد، وذات مساء دعانا الملحق الثقافى الأمريكى جون شيرمان إلى سهرة فى منزله مع بعض كبار المثقفين الأمريكيين والأجانب الدارسين والمدرسين بالجامعة الأمريكية لمناقشة رواية محمد جلال محاكمة فى منتصف الليل وأثنى الحاضرون على الرواية والترجمة جميعًا ، وكانت زوجته نانسى من أشد المعجبين باللغة الانجليزية (البريطانية) التى تستخدمها نهاد صليحة .

كان تصورنا الأول للمشروع هو ترجمة الأدب العربى 'بعد نجيب محفوظ' أى تقديم الجيل أو الجيلين من الكتاب الذين نشروا إبداعهم فى الربع الأخير من القرن العشرين ، ولكننا قدمنا أيضًا أعمالاً لمحمود تيمور ويوسف إدريس وألفريد فرج وغيرهم ممن لمع نجمهم وسطع قبل عام ١٩٧٥ ، أى إننا فتحنا الباب بعد نجاح المشروع استجابة لطلب زبائننا فى الغرب ، وفى العام نفسه ، كانت مجلة المسرح الفصلية قد حققت نجاحًا كبيرًا منذ أن عادت للظهور عام ١٩٨٦، إذ رحب بها جميع العاملين بالحقل المسرحى ، فكانت وما زالت مجلة المسرح الأولى فى العالم العربى ، فغيرها يظهر ويختفى ، أو هو إصدارات غير دورية ، ولكننا عمقنا من 'التغطية' التحليلية النقدية ووسعنا نطاقها فأصبحت تنشر للعرب من شرق الوطن العربى وغربه ، وكما يقولون فإن النشاط يزيد من النشاط والنوم يزيد من النوم ! ويصدق هذا المثل العامى على أعمالنا فى تلك الفترة ، وكان من المحتوم أن يكون ثم رد فعل ، ولم أدرك مدى رد الفعل المذكور إلا فى يناير ١٩٨٨ .

كنت قد وطّنت النفس على عدم الرحيل من مصر فى إعارة جديدة بعد أن جاءنى رفض الطلب فى أكتوبر ١٩٨٧ ، وكانت لجنة التعاقد الكويتية قد زارت مصر آنذاك ووافقت على إعارة الدكتورة عفاف المنوفى (رحمها الله) وذلك - وفقًا لما قالته - لأنهم يريدون المتخصص فى اللغة لا فى الأدب ، ومنذ ظهور 'اللغويات' أصبحت الجامعات العربية تطلب المتخصصين فى 'علم اللغة' ، وكان المفترض أن مثل ذلك المتخصص يتخصص فى اللغة الانجليزية ، ولا يدرى الكثيرون أن معظم هؤلاء 'المتخصصين فى اللغة' يكتبون رسائلهم للماجستير والدكتوراه فى اللغة العربية العامية أو اللهجة المحلية للغة العربية ! فالدراسة تتمثل فى تطبيق إحدى النظريات اللغوية مثل بناء الجملة أو استعمال الأفعال وما إلى ذلك على اللغة العربية المحلية لا على اللغة الانجليزية . ولذلك جذور ترجع إلى أوائل الستينيات حينما أنشأ الأمريكيون مدرسة (أى كلية) اللغويات فى تكساس ، وكان القصد منها تعليم اللهجات المحلية فى كل

بلدان العالم للأمريكيين الذين يقومون بمهام خاصة بوزارة الخارجية الأمريكية (أو يعملون بها) أو بوزارة الدفاع أو بالاستخبارات الأمريكية ، وتوطيدًا لمكانتها كان الأمريكيون يدعون أبناء البلدان المختلفة من أقصى الأرض إلى أقصاها لتدريس لغاتهم المحلية إلى الأمريكيين فى مقابل الحصول على الماجستير أو الدكتوراه إذا توافرت للدارس/ المدرس معرفة لا بأس بها بالانجليزية، وأما الدراسات فى اللغة الانجليزية فلا يتولاها إلا أهل الانجليزية وأبناؤها بأنفسهم . ولكن الشهادة التى يحصلها عليها الأجنبى كانت تحمل عنوان 'اللغويات' وحسب ، فازدهر السوق وراجت البضاعة !

ولذلك كان الخطاب الذى يتضمن رفض طلبى من الكويت يقول إنهم ليسوا فى حاجة إلى 'تخصصى' (وهو الشعر) وإن كنت علمت من الدكتور داود السيد ، مد الله فى عمره، فهو شاهد فى قيد الحياة، أن مجلس القسم رفض الطلب بناءً على ما قاله شخص يدعى نايف خرما من أن تعيين أستاذ نشيط مثلى لن يأتى بعواقب مستحبة للقسم، ولم يستطع جابر عصفور أن يقنع العميد بخطل ذلك الرأى، وعندما جاء العميد إلى القاهرة غداة الغزو العراقى مع الدكتور عصفور لنشر كتاب فى هيئة الكتاب وأنهيت له الإجراءات اللازمة فى دقائق صارحنى بما أكد قول الدكتور داود، وكذلك كان الخطاب الذى أتانى من السعودية يحمل رفض الدكتور عزت خطاب (والقسم) لطلبى - التخصص غير مطلوب! وقد يكونون على حق فى رفض تخصصى فى الشعر، ولكن اللغة الانجليزية لا تقوى بدراسة اللهجات العربية المحلية، ولا حياة لها دون استيعاب النصوص الانجليزية الحية، أدبية كانت أم غير أدبية!

ولم أحاول بعد ذلك أن أترك مصر ، بل زدت من إخلاصى فى العمل وإفناء نفسى فيه ، وما زلت أذكر تعليقًا كتبه ضياء الدين بَيبرس فى مجلة الكواكب عام ١٩٨٥ تعليقًا على ترجمة روميو وجوليت بعنوان 'الاستمرار أهم من العبقرية' يقول فيه إنه أجدى لنا أن نواصل السعى برغم العقبات من أن نركن إلى عبقرية فردية فنستظل بظلها ونهنأ بنعيمها ! 'العمل يا سونيا !' كما يقول ڤوينتسكى (ڤانيا) فى ختام مسرحية الخال ڤانيا لتشيكوف ! لقد مضى عهد الإرتكان إلى الموهبة ، وبدأ عصر الجد والاجتهاد فى عالم أصبح فيه أبرز الأدباء من أعلم العلماء ! وكتبت عن ذلك مقالاً فى أسبوعيات الأهرام رحب به الزملاء والطلاب .

واتصل بى سمير العصفورى ذات يوم وقال لى إنه يقترح أن يتولى مسرحيتى مخرج جديد هو كمال الدين حسين ، وهو طبيب أسنان درس فى معاهد الأكاديمية (وحصل أخيرًا على الدكتوراه) . وتحضرنى هنا فكاهة : قال المريض وهو على مائدة التخدير للجرّاح "دى

أول عملية باعملها يا دكتور !'' فرد الجرّاح قائلاً ''وانا كمان !'' ماذا كان عساى أن أقول له ؟ **إننا فى مطلع عام** ١٩٨٨ وقد يستغرق إعداد المسرحية للعرض شهورًا ، بفضل البيروقراطية **والتعطيل المعهود** ، **فلا** ترى النور إلا فى نهاية الموسم ، والطلاب يستعدون للامتحانات ، والبيوت **المصرية مشغولة** بالدروس الخصوصية ! وصح ما توقعته من المخرج ومن الإدارة ، إذ **جعل المخرج يقترح** أسماء نجوم والإدارة تعترض بسبب قيود الميزانية ، وانتهى الأمر بإسناد **البطولة إلى وجه جديد** هى 'لبنى الشيخ' ابنة أحد الفنانين ، وأعضاء فرقة الطليعة ، ولم تفتح الستار عنها إلا فى آخر الموسم فكان الإقبال الجماهيرى شبه معدوم !

وعلى الرغم من الحملة الدعائية فى الصحف والمجلات كانت المقاعد خالية ، ورفض سمير العصفورى (بصورة غير مباشرة) أن تشارك فيها سهير طه حسين بالغناء ، وأتى لى بمطربة مغمورة اسمها إجلال ومنحها هو لقب 'المنيلاوى' ، وكانت ذات صوت عريض رائع ، ولكن اسمها لم يكن فى عداد أسماء النجوم ، وكان الأبطال هم عثمان محمد على (والد سلوى) وأحمد عقل ورشوان سعيد وعادل خلف ولبنى الشيخ ، وكان مجدى عبد الرازق هو الملحن الذى وضع الألحان وأتى بفرقة من الموسيقيين لا يزيد عددها عن ثلاثة ، ومعهم مغن كان ماهرًا فى عزف العود اسمه سامى شريف وكان طالبًا منتسبًا بقسم التاريخ فى كليتنا ! وتضافرت نهاية الموسم ودخول شهر رمضان على إقصاء المتفرجين تمامًا على المسرح ، بل إن المسارح كلها أغلقت أبوابها ، وأذكر ليلة من تلك الليالى وقفت فيها على باب المسرح الذى غمره الظلام والصمت ، (على عكس أيام المجاذيب حيث غمر محمود الألفى باب المسرح بالضياء وأدار شريطًا موسيقيًا صاخبًا) وجعلت أتأمل الناس وهى تتجمع فى محطة الأتوبيس فى ميدان الخازندار ، والحشود وهى تتجمع حول باعة الملابس الشعبية والمشروبات المثلجة وحمص الشام ، وجعلت أتساءل تساؤلاً ما يزال يلح على ذهنى حتى الآن : ما الذى يأتى بالناس إلى المسرح ؟

كان من وراء ذلك السؤال سؤال أكبر وأعرض عن طبيعة العلاقة بين الكاتب والجمهور - ما الذى يربط الكاتب بجمهوره ؟ ما أيسر الإجابة على ذلك إذا كنا نتحدث عن كتابة الرواية والشعر مثلاً ، وما أعسرها إذا كنا نتحدث عن المسرح ! قد يكتب الكاتب كتابًا يمس فيه عصبًا عاريًا لدى الجمهور فيقبل الناس على شراء الكتاب ، وقد يكتب كتابًا عميقًا أو متخصصًا فلا يشتريه أحد ، ثم يظل هذا الكتاب مرجعًا معتمدًا فى تخصصه بل قد يكتب له الخلود ! أما فى المسرح فلابد من الوجود المادى للبشر فى القاعة ، ولابد من التفاعل المباشر

بين الممثلين وبين المتفرجين ، وذلك ما كان كمال يس يعنيه بعبارته الشهيرة إن المخرج الناجح لابد أن تكون "يده فى الصالة !" أى إن عليه أن يحسب حسابًا لكل إنسان وأن يوجه كل شىء إلى البشر الذين يشاهدون النص ، وقد لا يجمع بينهم سوى أنهم بشر ، أى قد تختلف مشاربهم وأذواقهم وثقافتهم ومستويات تعليمهم بل وأعمارهم ، وهم مع ذلك حشد يبدو واحدًا وهو شتى ! قد يتفق الجمهور فى الغاية التى أتى من أجلها إلى المسرح - للتسرية ، أو لمشاهدة نجومه المفضلة ، أو للتفريج عن شحنة غضب من 'الأحوال' ، أو للاستمتاع بالفن الراقى - ولكن هذه الغاية لا تكون أبدًا واحدة ، ولابد للمخرج أن يلجأ إلى تقديم شىء عن طريق شىء ، كأن يتوسل فى تقديم الفن الراقى بنجم شباك يجتذب الجمهور أولاً ، وهو ما يقولونه عن "تلبيس طاقية هذا لذاك" ، وقد يتوسل فى سبيل ذلك بفنون التسرية عن موسيقى (جميلة) أو رقصات (مُحْكمة) أو فكاهات (محسوبة) أو مواقف محبوكة تشد المتفرجين شدًا، ولكنه يجب أن يحدد لنفسه أولاً ما يريده والجمهور الذى يتوجه إليه بالعمل .

وهذه من الموضوعات التى ندرسها فى مجال الثقافة الجماهيرية (mass culture) ، لا الهيئة بل العلم وهو من أهم علوم الاتصال (communication sciences) فأسرع وسيلة للتواصل هى الإمساك بالقواسم المشتركة للجمهور ، فالقاسم المشترك الأعظم للجميع هو العلاقة بين الجنسين ، والمواجهة بين الرجل والمرأة تضمن لك أكبر مشاركة ، سواء كانت مواجهة معقدة تتضمن أعماقًا فكرية أو نفسية أو اجتماعية (سترندبرج/ تشيكوف/ إبسن) أو مواجهة ساذجة أو فجة مثلما يحدث فى مسلسلات التليفزيون ، وقد يكون الجنس عنصرًا من هذه العناصر سواء كان من المستوى الرفيع أو الفظ ، وتأتى بعد هذا القاسم المشترك الأعظم قواسم مشتركة كثيرة ، منها الفردى ومنها الاجتماعى ، مثل تيمات الضحية البريئة ، أو الشرير الصريح ، أو الحاكم الظالم وما إلى ذلك من تيمات يسهل رصدها فى الأدب العالمى ، ولكن تقديم مسرحية تصور كفاح الفلاحين وانتصارهم عن طريق الخداع والمكر - شعرًا - فلا يكاد يتضمن تيمة من هذه التيمات !

والقاعدة فى العرض المسرحى هو التبسيط عن طريق التحليل والتركيب ، فالمتفرج لا يملك الوقت اللازم للغوص فى أعماق فكرة قد تتضمنها رواية ، وعلى المؤلف أن يحلل الفكرة إلى عناصرها ثم يضم بعضها إلى بعض تدريجيًا مع "تلبيس طاقية هذا لذاك" ، وكان هذا درسًا جديدًا لى ، شغلنى فيما شغلنى من أسباب الفشل الجماهيرى للغربان . كانت فى حلقى غصة بعد أن ذقت حلاوة النجاح ، وكنت أعجب لكثرة المقالات النقدية التى كتبت عن الغربان

تمتدحها كيف لم تجتذب إليها الجمهور بل ولم تجتذب النقاد ! ومع ذلك فقد وافقت رقابة التليفزيون على النص وتم التصوير وُوعدنا بإذاعتها يومًا ما فى القناة الثانية ! وفى يوم العيد، أضيئت أضواء المسرح ، وحضر جمهور كبير ينشد التسرية ، وجاءت أربع فتيات وكنت واقفًا لدى الشباك أتمنى امتلاء الصالة ، فقطعن التذاكر ، وبعد لحظات عادت إحداهن بالتذاكر إلى الشباك وهى تقول "لا نريد هذه المسرحية .. سمعنا أنها 'بالعربى' !" ولمحت شابًا خبيثًا يقف عند الشباك ويقول للمقبلين عليه إنها بالفصحى ، فيهرب الناس . واتجهت إليه شبه غاضب ففر مسرعًا وقد أحس بالذنب ! ثم عجبت فى نفسى هل أصبحت اللغة العربية طاردة للجمهور ؟

ولكن فشل الغربان لم يثنى عما اعتزمته من كتابة المسرح الشعرى ، فلقد عدت إلى الفصحى وعادت لى ، وكانت ترجمة تاجر البندقية هى الترجمة التى قالت صفحة الأدب فى الأخبار إنها أفضل ترجمة لعام ١٩٨٨ ، رغم الحملة المنظمة التى أجريت لانتخاب ترجمة سونيتات شيكسبير نثرًا بقلم الشاعر بدر توفيق . ومن ثم شرعت فى كتابة جاسوس فى قصر السلطان .



فى يوم ١٣ أكتوبر ١٩٨٨ ، وكان يوم الخميس ، رن جرس التليفون فى نحو الواحدة ظهرًا، وكان المتحدث هو صديقى الروائى البارز مجيد طوبيا الذى قال عبارة واحدة مبروك.. نجيب محفوظ فاز بجائزة نوبل ! وانتهت المكالمة ! ولم أتمالك نفسى من الفرحة ، فاتصلت تليفونيا بمن أعرفهم ، وعندما حل المساء كان الجميع قد سمعوا وفرحوا ! وفى يوم السبت التالى عقدنا اجتماعًا لمجلس قسم اللغة الانجليزية ، واقترحت نشر كتاب بالانجليزية يتضمن آراء النقاد المصريين فى هذا الكتاب الذى أصبح عالميًا ، واقترحت الدكتورة ملك هاشم الاستعانة بما نشر عنه فى المجلات والكتب المصرية ، وكان لديها عدد خاص من مجلة الهلال يدور حول نجيب محفوظ ، كما كانت هناك دراسات بأقلام بعض زملائنا فى القسم مثل رسالة الدكتوراه التى كتبتها الدكتورة نيڤين غراب عن المؤثرات الأجنبية فى أدبه ، وبدأنا

العمل على الفور ، فوُزِّعَتْ المقالات على المتطوعين للعمل ، وعَرَضْتُ الفكرة على سمير سرحان فوافق على نشر الكتاب واقترح عنوانًا له هو :

Naguib Mahfouz : Nobel 1988 : Egyptian Perspectives

وأسهمت الدكتورة سلوى كامل الأستاذة بالقسم بمقال عن أسلوب نجيب محفوظ ، ونهاد صليحة بدراسة عن مسرحياته القصيرة ، وملك هاشم بمقال نقدى ، وكانت هذه هى الدراسات التى كتبت خصيصًا للكتاب ، أما الباقى فكان يتكون من ترجمات لمقالات ودراسات توليت مراجعتها بنفسى ، ومراجعة تجاربها الطباعية ، وصدر الكتاب مع تصدير بقلم سمير سرحان وببليوغرافيا كاملة عن كل ما ترجم من نجيب محفوظ أو كتب عنه بالانجليزية أعدها الدكتور ماهرشفيق فريد إعدادًا علميًا فذًا ، فى يناير ١٩٨٩ ، فكان إنجازًا غير مسبوق ، وأصابت الدهشة زوار معرض القاهرة الدولى من ثراء المادة ، والمستوى اللغوى الرفيع الذى كتبت به ، والسرعة التى صدر بها الكتاب .

كان فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل نقطة تحول فى مسيرة الأدب العربى ، وقررنا تنويع الأنواع الأدبية المنشورة فى السلسلة ، فنشرنا قصصًا قصيرة لمحمود السعدنى مع مقدمة كتبتها بنفسى (وقد أعاد طباعتها كما هى فى لندن بعد ذلك) وعلمت أن إحدى تلميذاتى السابقات فى دبلوم الترجمة ترجمت يوميات صائم لأحمد بهجت وهى نيرمين عبد الفتاح حسن (أخت الصحفية مها عبد الفتاح بدار أخبار اليوم ، وأخت نيرفانا عبد الفتاح المترجمة الفورية وزوجة عمر صبرى المترجم الضليع الذى سبق أن أشرت إليه) فسعيت إليها فى منزلها وحصلت على النسخة وراجعتها على الأصل وكتبت لها مقدمة بنفسى ونشرتها ، كما قررت العودة إلى ترجمة الشعر فترجمت مختارات من ديوان فاروق شوشة بعنوان لغة من دم العاشقين وكتبت لها مقدمة ، وشرعت ملك هاشم فى ترجمة رواية يوم قتل الزعيم لنجيب محفوظ ، وترجمت الدكتورة أنجيل بطرس سمعان مسرحيتين قصيرتين لنهاد جاد بعنوان محطة الأتوبيس وعديلة ، وأقبل دارسو الأدب المقارن على السلسلة يدرسونها فى إطار دراساتهم الانجليزية ، وازدادت طلبات شراء السلسلة من الجامعات والمعاهد فى الخارج ، وقد أنسانى ذلك تمامًا مأساة الغربان !

ولكن الحزن كان يخيم - إلى حد ما - على حياة دائرتنا الضيقة بسبب اكتشاف إصابة نهاد جاد - زوجة سمير سرحان - بالمرض اللعين ، وكنا نتابع جهوده الجبارة فى توفير العلاج لها ، فى مصر وفى الخارج ، وإن كان الأطباء البريطانيون لا يخفون عنه أن الأمل ضعيف ،

ولكنه كان يكافح بكل ما أوتى من قوة لقهر ذلك الشيطان اللعين ، الذى انتصر آخر الأمر ، فترك فى حياتنا هوة تفغر فاها حتى اليوم .

وقررنا فى قسم اللغة الانجليزية أن نعقد مؤتمرًا دوليًا عن الأدب المقارن مرة كل عامين وكان الموضوع الذى اخترناه لمؤتمر ١٩٨٩ هو صورة مصر فى الأدب الحديث ، عالميًا وعربيًا ، واجتهد الجميع فى الدرس والبحث ، وجاءتنا دراسات من انجلترا وأمريكا ، وشغلت الدكتورة هدى جندى بالإعداد للمؤتمر ، وكنت أعمل بالتعاون الوثيق معها ، فكان كلانا فى الخمسين ويعمل بروح الشباب الأول ! وعندما سافرتُ للترجمة فى قبرص ، اصطحبت معى مسودات جاسوس فى قصر السلطان وعلى امتداد المؤتمر الذى استمر أسبوعين كتبت معظم المشاهد الرئيسية شعرًا ، وكان معى من المترجمين الدكتور عبد الفتاح عوض ، رئيس قسم اللغة الاسبانية حاليًا ، وكان يقرأ ما أكتب أولاً بأول ويناقشنى فيه ، وما إن عدت إلى مصر حتى كانت المسرحية قد اكتملت .

كانت المسرحية تقوم على حادثة أوردتها كتب التاريخ عن العلاقات بين التتار الذين كانوا يحتلون فلسطين وأحد السلاطين فى مصر ، ورأيت تشابها مزعجًا بين أحداث الماضى وأحداث الحاضر ، فجمعت كل ما استطعت من المادة التاريخية المناسبة ، وأعددت حبكة يقبلها الجمهور ، وكنت أكتب لا وفقًا لأحداث التاريخ وحدها بل وفقًا لمعناها فى حياتنا الحاضرة ، فالتتار لا يؤمنون إلا بالقوة والبطش ، وكان المماليك حكامًا عسكريين لا يقلون عنهم عسفًا وبطشًا ، يعيشون حياة عسكرية منعزلة عن الشعب المصرى تمامًا ، ولكننى وجدت فى كتب التاريخ حادثة تجسس طريفة استندت إليها فى إعداد توليفة مسرحية أجمع فيها بين تراث العصور الوسطى وبين ما يجرى فى القرن العشرين ، فكتبت المشاهد الرئيسية وتركت الروابط والنقلات لوقت لاحق .

وعندما عدت إلى مصر تفرغت تمامًا لوضع المسرحية فى صورتها النهائية ، وما إن حل عام ١٩٩٠ ، حتى كانت المسرحية شبه جاهزة . وبدأت أفكر فى تقديمها على المسرح ، وكنت أنتوى اتخاذ تلك الخطوة بكل ما تتطلبه من جهد ، حين اتصل بى سناء شافع المخرج وطلب منى ترجمة يوليوس قيصر ، لشيكسبير ! وكان متحمسًا لإخراجها إلى درجة تحديد موعد نهائى لتسلم النص منى ، وكان يلاحقنى تليفونيًا ويجعل الممثلين الذين وعدهم بالعمل فيها يستنهضون همتى ، فتركت الجاسوس وتوفرت على نص شيكسبير فانتهيت منه قبل بداية العام الدراسى ونسخته على الآلة الكاتبة وتركته له فى المعهد ! وبعد أحد عشر عامًا كان

النص لا يزال فى درج مكتبه ، ولا يزال سناء يقسم إنه سوف يقدمه على المسرح ! (وقد قدمت صورة مختصرة من الترجمة فى مسرح الطليعة بعد ذلك بنحو تسع سنوات من إخراج الفنان محمد جابر) .

وكان مما تعلمته فى الكتابة وفى الترجمة وجود اللغة الجديدة التى أسميتها العربية المعاصرة الموحدة ، وكانت كتاباتى فى أسبوعيات الأهرام منذ ١٩٨٦ وحتى ١٩٩٠ تدريبًا كافيًا على مخاطبة الجمهور بلغة مبسطة ، وحفزنى نجاح روميو وجوليت فنيًا على إعادة النظر فى ترجمتها القديمة (١٩٦٥) المنشورة ، وفى ترجمة حلم ليلة صيف (١٩٦٤) المنشورة ، وأن أعيد صياغة كل منهما شعرًا مبسطًا معاصرًا حتى يتاح إخراج أيهما لمن يريد ، وبدأت بالأخيرة فنظمت ما فيها من أغان وأناشيد ، ثم نظمت أجزاء أطول ، وتركت بعض مقاطع الحوار منثورة ، فهى مكتوبة باللغة الانجليزية الدارجة وغير المنظومة ، ونشرت النص فى مجلة المسرح ، فأقبل الفنانون عليه مثلما كانوا قد أقبلوا على الصورة النثرية ، ومن ثم قررت البدء فى ترجمة روميو وجوليت ترجمة جديدة .

واقترح علىّ الدكتور ماهر شفيق فريد أن أنشر ما كتبته وترجمته دون انتظار لتقديمه على المسرح ، فدفعت إلى المطبعة بجاسوس فى قصر السلطان وبحلم ليلة صيف وبيوليوس قيصر فصدرت الواحدة بعد الأخرى ، وقد تضاءل الأمل فى تقديم أيها على المسرح .

وكنت أواصل كتاباتى فى أسبوعيات الأهرام يوم الجمعة ، حتى حل يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠ ، وكان يوم خميس حار ، حين فتحت عينى فى السادسة إلا دقائق وأدرت مؤشر الراديو لأستمع إلى الإذاعة البريطانية ، وكانت الموجة نفسها تذيع بالانجليزية بعض الفترات وبالعربية فترات أخرى ، فسمعت الموسيقى المعتادة فى النشرة العربية ، وقبل أن أتعجب للتغيير سمعت المذيع 'على أسعد' يقول فى عناوين الأخبار ''غزت العراق أراضى الكويت'' . وهببت فزعًا وركزت كل حواسى فى تفاصيل النبأ العجيب . كنا آنذاك نحضر مؤتمرًا من مؤتمرات وزراء خارجية منظمة المؤتمر الإسلامى بالقاهرة ، فى قاعة المؤتمرات بمدينة نصر ، وبعد أن انتهيت من واجباتى الصباحية خرجت إلى العمل قبل 'الواردية' فقد كانت التفاصيل قليلة ، والغموض يحيط بكل شىء ، وحادثتنى نهاد زوجتى من تونس أثناء حضورها مهرجانًا مسرحيًا كأنما لتستوثق من تصديق ما لا يصدق ! يا لله ! أوروبا تتحّد، وألمانيا أصبحت دولة واحدة ، والاتحاد السوفييتى فى تصالح مع أمريكا ، والعالم فى 'وفاق' غير مسبوق ، والعرب يقتلون بعضهم بعضًا ! لقد انتهت الحرب العراقية الإيرانية قبل عامين ، وتوفى الخمينى بعد

ذلك بشهور ، وآن للعرب أن ينفقوا أموالهم الطائلة فى تحقيق النهضة - إن لم يكن فى الاستعداد لاسترجاع الحقوق المشروعة للشعب العربى الفلسطينى الذى وهب أرواح أبنائه فى الانتفاضة الباسلة ! والآن تاريخ الجاهلية قد عاد ليكشر عن أنيابه ، ووجدت أن الانفصال عما يجرى حولنا من أحداث مستحيل ، ولكن الصدمة كانت أكبر مما أحتمل ، فتوقفت عن الكتابة فى الأهرام - بل وعن التأليف ، وأفرغت طاقتى فى الترجمة .

وفى خضم الصدمة قابلت آخر من كنت أتوقع أن أراه - 'حسن' المخرج ! لقد ظهر فجأة مثلما اختفى فجأة آخر مرة ، ولم أصدق عينىّ ، إذ كان واقفًا على باب هيئة الكتاب يقدم العزاء لسمير سرحان فى وفاة زوجته نهاد جاد ، وكان سمير لا يحب العزاء ولا يحب التذكير بالمصائب فتقبل كلامه باقتضاب وأهرع داخلاً إلى الهيئة وتركنى على السُّلم مع 'حسن' . كان 'حسن' قد عاد من العراق بعد غزو الكويت بأيام معدودة، خشية أن يرتبط اسمه بالعدوان، ودعانى إلى الجلوس على شاطئ النيل فى مقهى الشجرة (الذى كان كازينو الشجرة القديم) فقبلت بل كنت متلهفًا على سماع الأنباء من مصدرها الأساسى ، فاتخذنا أماكننا وانطلق يتحدث عن تفاصيل عمله بالعراق فقال إنهم عرضوا عليه الجنسية العراقية ولكنه رفض، فاستفسرت عن مزايا تلك الجنسية فقال لى إن مزاياها لا تعد ولا تحصى ! ولما قلت له إن المال ليس غاية الحياة قال إن المزايا قد تنتهى بالمال ولكنها لا تبدأ به ، ولم أدرك مرماه فبدأ يلخص المزايا قائلاً إنهم عندما أقنعوا جبرا إبراهيم جبرا بقبول الجنسية العراقية وهو ما ترفض أن نفعله فى مصر مع الفلسطينيين ، كانوا يفتحون له طريق المجد ، إذ أنشأوا له مؤسسة كاملة يعيّن فيها من يشاء ويفصل من يشاء ، وهى دار المترجم للنشر ، وسمحوا له بإصدار مجلة خاصة يفعل بها ما يشاء ، وأموال العراقيين كثيرة - صدقنى - ولديهم من الإباء العربى الأصيل والشهامة البدوية ما يستعصى على أفهامنا ، فلقد تعودنا فى مصر على التحايل والتلاعب بإزاء الحكم الأجنبى الذى لم نكد نتخلص منه حتى رُزئنا بكوارث وأهوال ! ولله درّ يوسف إدريس الذى أرجع الطابع الراهن للشخصية المصرية إلى 'القهر' الذى جعلنا نتقبل ما لا نرضاه باعتباره قَدَرًا لا فكاك منه ، فسلمنا أمرنا إلى الله ونعينا مصائبنا وضحكنا من كوارثنا فى فنوننا الشعبية ، فاختلطت لدينا الدموع بالضحكات وأصبحنا نتصور أن سنة الحياة ألا يملك الإنسان من أمر نفسه شيئًا ، واعترضت قائلاً إن العصر الحديث قد شهد ثورات شعبية تدل على حيوية وحساسية وتنطق برفض الضّيم وبالإباء والشمم ، وانظر إلى عرابى زعيم الفلاحين ! وكان ذلك عنوان مسرحية عبد الرحمن الشرقاوى المعروفة فإذا به يضحك ويقول :

'' ذلك تزييف للتاريخ من أجل بث الروح الوطنية ، وأما الواقع فهو أن أحمد عرابى كان رجلاً عسكريًا - ألم يكن وزيرًا للدفاع ؟ - وكان يطمع فى الحكم ، ولا تقل لى إنه كان يحاول تحرير مصر من الاحتلال فلم يكن الاحتلال قد حدث بل ربما يكون هو السبب فيه ، ولا تقل إنه كان يحاول تخليص مصر من الحكم التركى ، فلم تكن الدولة العثمانية تمثل إلا سلطة الخلافة منذ استقلال مصر وفقًا لمعاهدة لندن فى عهد محمد على عام ١٨٤٠ ، أى إنها كانت تمثل القدر والمكتوب من وجهة نظر دينية ، وأما ما يكتبه الكتاب من أعمال أدبية تمثل البطولات الشعبية فهو أدب خيالى يدخل فى نطاق التصور والتخيل !''

واعترضت بشدة على هذا المفهوم الذى رأيته خاطئًا ومجحفًا ، وقلت له ما ذكرته بعد ذلك فى مقدمة الغربان عن الثورات الشعبية ، وكررت ما ذكره عبد الرحمن الرافعى وفصّل القول فيه محمد رفعت من بعده عن الحركة الوطنية والروح القومية ، ولكنه كان كأنما تنكر لمصريته ، مما ساءنى وأفزعنى ، فضربت له مثلاً أخيرًا من مسرحية الغربان نفسها فصمت لحظة ثم قال : إنها تؤكد ما أقول ، فالفلاحون يتحايلون على الواقع المر من أجل البقاء ، ولكنهم لا يَتَحَدُّون سلطة الحاكم ، لا بل ولا سلطة الوالى إلا فى حدود ما يهدد بقاءهم ! فقلت له ولكن روح الثورة حية فى نفس كل منهم ، تدفعهم إلى المواجهة والمجالدة فأسرع يقول : فيما يمس بقاءهم ! ثم اعتدل فى جلسته وطلب كوبًا آخر من الشاى وقال :

''إننا ما زلنا نعيش فى مصر فى ظل العالم الآخر ، ونعلى من فضيلة الصبر حتى يبرر لنا تقاعسنا ! وسوف أضرب لك مثلاً مما يحدث الآن فى الساحة العربية على امتدادها . لقد رحل فى يوم من الأيام - من نحو عشر سنوات - عدد كبير من الفلاحين المصريين قيل إنهم ٥٠٠ أسرة وكانوا فى الواقع آلافًا مؤلفة للعمل فى الحقول العراقية أى بالزراعة التى يهملها العراقيون إهمالاً شبه تام ، ورحلت من بعدهم آلاف أخرى - فماذا حدث لهم ؟ لقد ذابوا فى خضم العاملين الفقراء ، وانقطعت صلتهم أو كادت بالوطن الأصلى ، ولم يعد يحس أحد لهم وجودًا ! صدقنى ! لقد قابلت الكثيرين منهم ممن اقتضت أعمالهم الوجود فى المدن ، سواء منها المدن الريفية أو الحضرية ، ورأيت انعزالهم التام عن مجريات الأمور !''

وقلت له إن هؤلاء مغتربون ، مثل المعارين فى بلدان الخليج الأخرى وفى السعودية بصفة خاصة ، وهم ممنوعون بحكم الغربة عن الانشغال بأمور الدولة المضيفة ! فرد بسرعة قائلاً ''ولكن الكثيرين يرجعون إلى مصر وقد رسخ فى نفوسهم مبدأ 'عدم الانشغال' الذى تحكى

عنه ، أى إن قوانين الإعارة ومبادئها تصبح عادة تقترب من الطبيعة الثانية ! ولقد تكاثرت أعداد هؤلاء وازدادت ، ولم يعد أحد منهم يتكلم إلا فى المال ، على نحو ما كنت تفعل منذ هنيهة ! أنا لا أقلل من شأن المال أو أستهين به ، ولكن هذا الاهتمام الزائد بتكوين الثروات ، وهو الذى بدأ فى عهد السادات ، ما زال قائمًا ، وأدى إلى نشأة مجتمع استهلاكى يستغل الناس فيه بعضهم بعضًا وتُطحن فيه الطبقات الفقيرة طحنًا !"

وتحولت من الدفاع إلى الهجوم فقلت له أنت إذن توافق على إيجابية صدام حسين ؟ هل توافق على هجوم العرب على العرب بدلاً من إسرائيل ؟ وقال بنبرة خفيفة : إنها مغامرة محسوبة ، فجيشه عاطل منذ عامين (أى منذ توقف الحرب العراقية الإيرانية) وقد فتح له باب العمل وشغله بشىء ! فقلت له أنت إذن تدين العراق مثلما تدين الشعب المصرى ؟ فقال أنا عائد إلى العراق ، سواء نجحت المغامرة أم فشلت ، إذ لم يعد لى مستقبل فى مصر ! هل تتصور أن أقضى بقية عمرى أكتب الدراما العائلية للتليفزيون أو أخرجها أو أمثل فيها ؟ إننى أتمتع بموقع فريد لأننى فنان ، ولن أشارك فى الهروب من الواقع أو من التاريخ على نحو ما تفعل فى مسرحياتك ، أو فى تزييف هذا أو ذاك ! ووجدتُها فرصة سانحة لذكر مسرحيتى الجديدة جاسوس فى قصر السلطان وطلبت منه أن يقرأها فوافق ولو أنه أردف قائلاً "قطعًا ستحاول إبراز بطولة زائفة للشعب المصرى !" فقلت له أن يقرأها أولاً ، ونهضنا خارجين وقد حان أذان العصر ، فوجدتنى أسأله بصورة تلقائية : وهل تترك أسرتك هنا ؟ فرد قائلاً : هذه غيبيات ! وافترقنا .



صدرت ترجمتى ليوليوس قيصر ولمسرحية شيكسبيرية أخرى مزجت الشعر فيها بالنثر هى حلم ليلة صيف بعد الترجمة الشعرية الكاملة لتاجر البندقية فأحسست أننى يجب أن أنتهى من روميو وجوليت بأقصى سرعة ، وكان عملى بالترجمة يتضمن قدرًا من الهروب ، فالتأليف يتضمن الاشتباك مع القضايا الاجتماعية والسياسية ، مهما حاول المؤلف إبعاد نفسه عنها ، وأما الترجمة فتتضمن ابتعادًا ثلاثيًا فى الزمن ، وهو ما تتحدث عنه مدرسة

التاريخية الجديدة ، أى ما تبين مثالبه وضرورة الوعى به ، وأقصد بالابتعاد الثلاثى هو أن المسرحية الشيكسبيرية عادة ما تتناول فترة زمنية سابقة لعصر الشاعر ، فهو يبتعد عن الحاضر فيها بمسافة تتفاوت قصرًا وطولاً من مسرحية إلى مسرحية ، وهذا هو البعد الأول، وأنا حين أترجمها أقدمها إلى القارئ العربى فى القرن العشرين الذى يدرك أنها تتناول موضوعًا سابقًا للعصر الذى كتبت فيه ، فهو يدرك ابتعاده عن الزمنين - زمن الأحداث وزمن العرض - وهذا هو البعد الثانى ، وأنا أترجمها إلى الفصحى التى لا يتكلمها الناس ، فأقيم مسافة بين الحاضر - حاضر اللغة المحلية - وحاضر الفصحى التى تنتمى إلى زمان سالف ، وهذا هو البعد الثالث . وكنت حاولت مضاهاة عامية شيكسبير بالعامية المصرية فى ترجمة مشهد من حلم ليلة صيف ، وهو مشهد العمال الذين يمثلون أو يحاولون تمثيل مسرحية كلاسيكية ، وترجمت المشهد بالعامية فعلاً، ففشل فشلاً ذريعًا ! كنت أشعر أن الكلام 'سايط' ، لا طعم له ولا لون ، ولم أكن أدرك سر ذلك إلا عندما قرأت بعض كتب التاريخية الجديدة والمادية الثقافية ، واكتشفت أن تذوق عالم شيكسبير يقتضى هذا 'الإبعاد' الزمنى ، أساسًا عن طريق الفصحى !

وبدأ عام ١٩٩١ بداية ملتهبة ، ففى صباح يوم الأحد ١٧ يناير صحونا على أنباء الهجوم الشامل على العراق ، بقيادة الولايات المتحدة ، ومشاركة بعض الدول الغربية والعربية، فيما عرف باسم حرب الصحراء أو عاصفة الصحراء ، وأطلقنا عليها نحن حرب تحرير الكويت ، وبحثت عن 'حسن' فى كل مكان فلم أجده وخفت أن يكون قد عاد إلى العراق ، وكان أخى الأصغر 'حسن' (عاشت الأسامى !) يعمل قنصلاً عامًا فى سفارة مصر فى بغداد حين وقع الغزو ، وقد عاد أفراد السفارة كلهم ، وأتى لى أخى بمجموعة نادرة من كتب التراث العربى ، أصبحت من عمد مكتبتى إلى جانب ما ورثته عن والدى رحمه الله ، وأذكر أن 'الضرب' بدأ أثناء معرض الكتاب ، وأننى قابلت سامى خشبة ، الناقد والمفكر العظيم ، فى المعرض فى نحو الحادية عشرة من صباح الإثنين فقص علىّ ما تقوله وكالات الأنباء وحيرة الصحف فيما تنشره بسبب كثرته ! وروى لى سمير سرحان قصة الكاتبة الكويتية (.......) التى تعرضت لحادثة فريدة أثناء الغزو ، أحب أن أوجزها نقلاً عن روايته عنها : قالت له إنها فوجئت صبيحة الغزو فى أغسطس بجندى عراقى يطرق بابها صباحًا وبيده بندقية (وربما كانت مدفعًا رشاشًا) وكان شابًا يتطلع بشوق إلى ما يبدو أنه قد حرم منه ، فكانت عينه تنتقل

بشراهة بين السيارة الأمريكية الفارهة الواقفة خارج المنزل (الفيلا) وبين ابنة الكاتبة التى لم تكن قد تعدت الثامنة عشرة ، وبين قطع الأثاث والطنافس فى المنزل ، وأدركت الأم بفطنة المرأة وحس الكاتبة ما يمكن أن تصبو إليه نفس الشاب ، وأصابها الذعر والفزع ، ولكنها تمالكت نفسها واستجمعت شجاعتها ورحبت به مؤكدة أننا جميعًا عرب وإخوة ، وتدريجيًا تمكنت من تهدئته وسألته عما يريد ، ولابد أن مهارتها فى الحديث وموهبتها القصصية ساعداها (إلى جانب غريزة الأم التى تدافع عن شرف الأسرة) فى إدارة حوار ودود امتص غضب الجندى ، ولاحظت أنه قد انفصل عن فرقته مثل الكثيرين الذين توغلوا فى المناطق السكنية ينهبون ما تصل إليه أيديهم ، فقدمت إليه طعامًا وشرابًا ، إذ كان الجوع قد هدّه ، وكان يبدو عليه الإرهاق منذ أن دخل الجيش الكويت فى الرابعة صباحًا ، وبعد أن شبع قال إنه يريد ابنتها ! وانخلع قلب الأم ، ولكنها قررت فى لحظة إلهام أن تلعب دور الأم الحانية فتظاهرت بالتعاطف مع رغبته وأبدت الشفقة عليه وقالت له إن ذلك - وإن كان من حق الغالب - ليس من خُلق العربى ، والقوة ليست السبيل للظفر بقلب المرأة ، وعرضت عليه ببسمات ونبرات حانية إحلال الود محل العنف ، وعندها لن يتعذر عليه نوال مراده ، واقترحت عليه أن يستولى مبدئيًا على السيارة الفخمة ، وأن يعود بها إلى أهله إلى جانب ما يريد من كل ما خف حمله وغلا ثمنه ، وأن يحفظ عنوان المنزل ، ثم يعود للزيارة وقتما يشاء "فنحن أهل وبابنا مفتوح" ، وعندها سوف تقدر له هذا الصنيع ، فينال بالود ما هو أهل لنواله وما هو جدير بالنخوة والشهامة العربية الأصيلة .

لم تكن تتصور أنه سوف يصدق ما تقول ، وربما كان إغراء السيارة وحده هو الذى أقنعه بالعدول عما كان يعتزمه ، وربما لم يكن قد خاض مثل تلك التجربة من قبل ويفتقر إلى الخبرة ، بل ربما كان فى قرارة نفسه كريمًا وكان 'يجرب حظه' فحسب ، ولكن الذى حدث هو أنه كتب العنوان لديه وأخذ بعض الأشياء (التافهة فى الواقع) ، وانطلق بالسيارة يسابق الريح ! وفى الحال انطلقت الأم مع ابنتها إلى بغداد ، تسابق الريح هى الأخرى فى سيارة الأسرة القديمة (اليابانية) وأهرعت إلى القنصلية المصرية حيث أظهرت وثائق شخصية تثبت أنها متزوجة من مصرى ، وهناك استخرج لها المسؤول بالقنصلية وثيقة سفر باسم زوجها المصرى وزوجته وابنته ، واستطاعت بالوثيقة أن تعبر الحدود إلى الأردن ، ولم تتوقف فى الطريق إلا لتملأ خزان السيارة بالبنزين حتى دخلت الحدود المصرية !

كان أخطر ما هزّني آنذاك - وطيلة أيام الغزو العراقى بل وأثناء القصف الجوى الذى استمر ستة أسابيع تقريبًا ، والعمليات العسكرية البرية التى لم تستغرق سوى أربعة أيام (مائة ساعة كما يقولون) أن الدماء العربية كانت تسيل أنهارًا ، وأننا كنا نشهد شماتة الغرب فى مذلة الجنود العرب ومهانتهم ، ولم أكن من الذين ينحون باللائمة على هؤلاء الجنود ، فما هم إلا قطع شطرنج فى أيدى قوى أكبر منهم ، سواء أكانت قوى النظم الحاكمة أم قوى عالمية لا نستطيع إدراك كنهها ، وإن كثرت التفسيرات وتعددت التحليلات ، وما هم إلا ضحايا - مثلهم فى ذلك مثل الجندى الذى حاول أن 'يلعب دور' المغتصب ، فانتهى به الأمر إلى أن ظفر بسيارة ربما كانت حلم حياته (وما أتفهه من حلم !) وقنع من الحرب بالغنائم ! كنت أبكى انتصار العراق على إيران الذى ضاع وأتى بجيوش المستعمر سافرة إلى المياه العربية ، وتذكرت قول 'حسن' المخرج عن سلبية المصريين ، وقلت فى نفسى ما أصعب أن يواجه الشعب الأعزل حكامًا يملكون ما يسميه' انتونى جيدنز' Anthony Giddens بوسائل العنف Means of Violence (الجيش والشرطة) ولو أن أحداث العالم فى أواخر القرن جعلتنى أعيد النظر فى هذه النظرية ، وكان أولدوس هكسلى هو أول من وضعها فى بواكير القرن !

ما عسى أن يكتب الكاتب إزاء هذا العالم الذى يتلاعب فيه الكبار بأقدار الصغار ؟ وما عساه أن يكون من شأن مسرحيتى جاسوس فى قصر السلطان فى هذه السماء الملبدة بالغيوم؟ وفوجئنا ذات يوم بتقديم مسرحية ماكبث لشيكسبير على خشبة المسرح القومى ، وكان بعض القائمين بها ممن نزحوا إلى مصر فى أعقاب الغزو ، فالمخرج أحمد عبد الحليم كان قد عاد من الكويت مرغمًا ، وفاروق الدمرداش - المخرج والممثل وصديقى القديم - جاء من لندن خصيصًا، وسَرَتْ فى الوسط الفنى شائعة مفادها أن ماكبث يرمز إلى الرئيس العراقى صدام حسين ، وأن تقديم المسرحية فى تلك الآونة بالذات مقصود ، بل إن بعثة من التليفزيون البريطانى جاءت لتصوير مشاهد منها ، وسألتنا فيمن سألت عن دلالة تقديم هذا العرض ، وتكلم الجميع ، وأذيع البرنامج !

كان الأهرام قد بدأ فى عام ١٩٩٠ فى نشر صحيفة أسبوعية بالانجليزية هى الأهرام ويكلى ودعانا أحد المسؤولين أنا ونهاد والدكتور سعد جمال إلى لقاء فى الهيلتون لمناقشة احتمال المساهمة بمقالات أسبوعية ، وكان معنا تلميذى القديم أشرف كمال الذى يعمل مترجمًا فوريًا بالأمم المتحدة فى نيويورك ، وتكلم الأستاذ بهجت بديع طويلاً عن فكرة هذه

الصحيفة ، وكيف أنها ستعتمد اعتمادًا شبه كامل على الترجمة ، أى ترجمة ما يكتبه كتاب الأهرام إلى الانجليزية ، وانفض الاجتماع ، ووجدت نهاد فى صفحة الثقافة مجالاً لكتابة النقد المسرحى ، لا الترجمة ، وسرعان ما أصبحت الناقدة المسرحية للصحيفة . أما أنا فلم أكن أكتب إلا لمامًا ، وبناءً على ما يطلبه (نايجيل رايان) محرر الصفحات الثقافية ، وكنت أريد أن أنشر ترجمات للشعر العربى ، بناءً على طلب الدكتور مرسى سعد الدين ، ولكن إصراره على نشر النص العربى إلى جانب الانجليزى جعلنى أحجم ، فأنا لا أحب أن تخضع ترجمة الشعر للترجمة الوثائقية ، وإن كان غيرى قد نشر ترجماته ، ولم تلق التجربة نجاحًا فتوقفت.

وكانت سارة ابنتى طالبة فى قسم اللغة الانجليزية لدينا ، ولكنها كانت تعشق الغناء الأوبرالى عشقًا ، فالتحقت بالكونسرفاتوار أى معهد الموسيقى والغناء الغربى بأكاديمية الفنون، وانتهت من المرحلة الأولى (٣ سنوات) وانتقلت إلى المرحلة العالية ، وكانت تتلقى دروسًا خاصة فى مادة البيانو على يد فاروق المصرى ، وهو أستاذ فى الأكاديمية وزميلى فى كلية الآداب (قسم اللغة الفرنسية) وكان ذلك هو السبب الذى حدا بى إلى تغيير البيانو القديم الذى كنت اشتريته قبل سنوات عديدة من صلاح رجب ، وشراء بيانو قائم (Upright) من أحد المعارف وهو الفنان عادل حنا ، وأصبح منزلنا يجمع بين العود الذى أعزفه والبيانو الذى تعزفه ابنتى . وعندما سافرت فى الصيف للعمل فى منظمة الأغذية والزراعة (الأمم المتحدة) لحقت بى سارة واصطحبتها لمشاهدة أوبرا إيطالية ذات ليلة مقمرة كانت من أمتع سهرات حياتى .

وجاءنى نبأ محزن وأنا فى إيطاليا وهو وفاة يوسف إدريس فى أغسطس ١٩٩١ ، فكتبت رثاء قصيرًا بالانجليزية وأرسلته بالفاكس إلى الأهرام ويكلى بناء على طلب الانجليزى نايجيل رايان ، وكنت ما أزال أجتر أحزانى لوفاة محمد عبد الوهاب (فى إبريل) وكان ذلك يوازى فقد الشباب أو فقد الأمل ، لأنه كان رمز الجد فى الفن والحياة ، وأنا أومن بكفاحه وجده إيمانى بعبقريته وفنه ، وجاءت صدمة وفاة يوسف إدريس فدارت بى الأرض . وأذكر أننى خرجت ذات يوم من العمل بالمنظمة فى روما وأنا شارد اللّب ، وسرت فى الحديقة المقابلة لمبنى المنظمة وأنا أتأمل شمس الأصيل وحر ذلك اليوم الخانق ، وإن كانت قد انكسرت حدته بعد أن تجاوزت الساعة الخامسة والنصف ، وترددت فى ركوب الترام ، مفضلا السير إلى الفندق ولم أكد أعبر الطريق حتى وجدت من ينادى علىّ ، وكان محمود يونس صديقى القديم .

وفرحت بالصحبة ، إذ كان يريد السير هو أيضًا ، فسألنى عن همى فقصصت عليه القصص ، فقال لا تحزن ، فالعالم يتغير رغم أنفك ، وسألنى عن أخبارى فرويت له ما أفعل فى مصر ، وقلت له إننى أتولى الترجمة لبعض الهيئات الدولية مقابل مكافآت مادية مجزية ، وذلك منذ أول ١٩٩٠ و فى ١٩٩١ ، وحتى الآن ، إلى جانب العمل فى المؤتمرات الدولية ، فقال إن ذلك تبديد للجهد ، والأفضل أن أعمل شهرين أو ثلاثًا فى العام فى إحدى وكالات الأمم المتحدة المتخصصة أو فى مقر الأمم المتحدة نفسها فى جنيف حيث يقيم ، وقال إنه يعمل بصفة شبه دائمة فى المنظمة العالمية للأرصاد الجوية ، وإن أجورها مجزية ، ثم قص على طرفًا من حياته العائلية فعرفت أن لديه ابنًا يكتب الشعر الموزون المقفى اسمه ياسر ، وأنه مقيم مع أخيه هشام فى الاسكندرية ، وأما حاتم الابن الأصغر فيقيم معهما هو وزوجته زينب فى جنيف ، ثم انطلق يقص علىّ كيف كافح كفاح المستميت حتى يحقق لنفسه ما كان يصبو إليه من الحياة بصفة دائمة فى أوروبا ، وكانت قصصه نماذج رائعة لكفاح المصرى الطموح ، وكثيرًا ما كنت أتذكر كلمات المخرج ' حسن ' وأتمنى لو كان معنا يسمع ويرى ، وشغلتنى قصصه عن أحزانى حتى وجدت أننا قد طوينا الطريق طيا ووصلنا إلى الفندق . ولكننى كنت أريد أن أسمع المزيد فجلسنا فى مقهى على الرصيف ، وظل يتكلم وأنا أجرع كلماته كأنها الزلال الصافى حتى غربت الشمس ، وهبت نسائم المساء ، فهب واقفًا وقال إن زوجته معه الآن هى وحاتم فى روما وهما ينتظرانه ، وقبل أن ينصرف عرض علىّ أن أعمل معه فى جنيف فأحسست كأن حلما قديمًا أوشك أن يتحقق - سويسرا ! جنة الله فى أرضه ! ترى هل هى أحلى من زيمبابوى ؟

كنت قد زرت هرارى عاصمة زيمبابوى لأول مرة قبل عامين - فى عام ١٩٨٩ - فى فريق الترجمة التابع لوزارة الخارجية برئاسة السفير عصمت نجيب ، وكانت تجربة لا تنسى . كنت عندما تسلمت تذكرة الطائرة من منى هنداوى سكرتيرة إدارة المؤتمرات بوزارة الخارجية أتصور أن التاريخ المكتوب عليها يشير إلى يوم الجمعة ٢٨ لأنها كانت تقول (أى التذكرة) - إن الموعد هو (28 - 00.30) فتصورت أنه يوم الجمعة ولكن المقصود كان الثانية عشرة والنصف صباحًا أى بعد منتصف ليلة الخميس ٢٧ من الشهر ! ولم أنتبه لذلك إلا صباح الجمعة فانطلقت إلى شركة مصر للطيران ولكن الرحلة التالية كانت يوم الأحد ، وعندما وصلت وجدت أننا فى الجنة ! حديقة غناء شاسعة ، جوّها معتدل طول العام ، وكان يرافقنى فى

الرحلة الطويلة زميلى المترجم زين الجعفرى البسطويسى ، وكانت طائرة الجمعة (أو الخميس!) قد فاتته بسبب حادثة سيارة ، وهناك نزلنا فى فندق يسمى بيت الحديقة The Garden House بعد خلاف مع المترجمين الفوريين بقيادة محمد عبد العظيم جعلنى أكره الحرفة ومحترفيها ، وكان معنا فى ذلك الفندق صديق من فريق الترجمة التحريرى هو زين سليط (رافقنى بعد ذلك بشهور إلى واشنطن ونيويورك فى مهمة تابعة لمنظمة الوحدة الإفريقية) وعشنا فى ذلك الفندق أيامًا رائعة ولا أذكر أننا ركبنا أى سيارة طيلة الأسابيع الثلاثة ، فالبلد كلها حديقة غناء ، والسير فيها يعدل السير فى بستان ، وأهلها طيبون فقراء ، وما زالت الأقلية البيضاء تتمتع بامتيازاتها دون إعلان عنها ، وكل ما فيها جميل . ولكن الأستاذ أسعد حليم الذى كان يسافر بانتظام إلى جنيف للعمل بالأمم المتحدة كان يقول إن جنيف 'رقم واحد' ! ولذلك كدت أطير فرحًا عندما عرض علىّ محمود يونس ذلك العرض .

كان ذهنى مشغولاً آنذاك بالعرض المسرحى الذى كنت كتبته أنا وسمير سرحان قبل عام تقريبًا ، بعنوان رحلة التنوير ، وذلك بتكليف من وزارة الثقافة لإحياء ذكرى أربعة من كبار أعلامنا وهم طه حسين والعقاد والمازنى وعبد الرحمن الرافعى ، وكان التكليف قد صدر متأخرًا - فى آخر عام ١٩٨٩ - عام الذكرى المئوية لمولد الأربعة ، وقدم لنا الأستاذ سامح كريّم مجموعة مقالات عنهم باعتبارها 'المادة العلمية' ، وقد استقينا منها بعض المعلومات إلى جانب ما نعرفه عن هؤلاء ، وما استعنت به شخصيًا من شعر العقاد والمازنى ، وما كان سمير سرحان قد قرأه عن طه حسين قبل عشر سنوات ، فوضعنا الخطوط الرئيسية للعرض المسرحى ، وكان كل منا يقترح شيئًا فيعترض عليه الآخر ، حتى استقر الأمر على إعداد عرض موسيقى يتناول بعض القضايا الراهنة التى تدل على أهمية تياراتهم الفكرية لأحوالنا المعاصرة ، وظلت مشكلة الربط بين الأربعة الكبار مشكلة تشغلنا فى الشتاء حتى كان صيف ١٩٩٠ ، وتمكن سمير سرحان ، إلى حد ما ، من التغلب على صدمة فقدان زوجته نهاد جاد فى أواخر ١٩٨٩، بعد أن هدّها المرض رحمها الله ، وعانت على مدى عامين مر المعاناة ، وكنا نعانى معها ونكابد العجز عن فعل شىء ، حتى نفذت إرادة الله . أقول عندما جاء صيف ١٩٩٠ كان لدى كل منا مشاهد متفرقة ، لكل منها منطقه الدرامى ، وبكل منها نقاط انطلاق إلى مشاهد أخرى ، وكان لابد من أن نتفرغ نحن الاثنين للعمل ، وألا ننشغل بأى شىء حتى يخرج النص متكاملاً ، لا يركز على أحد الأربعة تركيزًا يُخلُّ بالوحدة الفنية للعرض المسرحى ، فاقترحت نهاد زوجتى أن نسافر أنا وسمير إلى الاسكندرية فنتفرغ لذلك العمل أيامًا أو

أسابيع ، وفعلاً ، سافرنا إلى منزله فى العجمى ، وجعلنا نعمل طول النهار وشطرًا من الليل ، ومناقشاتنا لا تنتهى حتى اكتملت صورة النص وتسلمه حسين جمعة .

وكتب الأغانى شاعر شاب موهوب هو محمد بهجت (ابن الكاتب أحمد بهجت) وبدأت البروفات ، ولكن حسين جمعة - كعهدنا به - لا ينتهى من أى عمل فى موعده ، فاستمرت البروفات حتى وقع الغزو العراقى ، فتوقفت البروفات ، ثم استؤنفت بعد تحرير الكويت ، وتحدد أكتوبر ١٩٩١ موعدًا للعرض المسرحى ، ولكن حسين جمعة عاد فأجل الموعد، ولم تفتح الستار عنه إلا فى نوفمبر ١٩٩١ ، وكتب عنه ألفريد فرج مقالاً رائعًا فى مجلة المصور وكذلك فعل أحمد عبد المعطى حجازى فى الأهرام ، وتدفق الجمهور ، وخصوصًا طلابى السابقين فى الجامعة ، وبعض الفرق الدراسية من كلية الإعلام التى كانت تدرس الدراما الوثائقية ، ولكن سامح كريّم الذى كتب 'المادة العلمية' نشر مقالاً موجزًا فى الأهرام يقول فيه إن كاتب 'المادة العلمية' هو المؤلف الحقيقى ، وإن الذى يتولى تحويلها إلى عرض مسرحى هو 'دراماتورج' أو 'حرفى مسرحى' وحسب ، فرد عليه سمير فى العدد التالى قائلاً إن 'المادة العلمية' لا تصنع نصًا مسرحيًا ، فهى معلومات متاحة لمن يطلبها فى الكتب ، والعبرة فى المسرح بالتشكيل الدرامى لتلك المادة .

وكنت عندما عدت إلى القاهرة فى سبتمبر ١٩٩١ قد فجعت بنبأ وفاة صديقى ، ورفيق أحلام الصبا وأنغامه ، بليغ حمدى ، وهو أخو الدكتور مرسى سعد الدين ، فكتبت عنه مقالاً فى الأهرام ويكلى بعنوان (Major Music, Minor Keys) كما أصدرت مجلة شموع (لوتس عبد الكريم) عددًا خاصًا عنه ، وكتبتُ فيه مقالاً أو قل دراسة لمنهجه فى التأليف الموسيقى ، وما زلت أشعر أننى مقصرٌ فى حقه ، وأن المجتمع العربى لم يوفه حقه من التكريم . وكانت الصدمات المتوالية كفيلة بزعزعة كيانى لولا أننى علمت بتعيين كرم مطاوع رئيسًا لهيئة المسرح ، ومحمود الحدينى مديرًا للمسرح القومى ، فتشجعت وذهبت يومًا (وكان يوم السبت) إلى مكتب كرم ، وقدمت له نسخة من النص المطبوع لجاسوس فى قصر السلطان .

كنا فى أكتوبر ١٩٩١ ، والموسم المسرحى لم يكد يبدأ ، وكنت أعرف عن كرم أنه مغرم بتعديل نص المؤلف أى بطلب تعديلات كثيرة من المؤلف فقلت فى نفسى ''فليكن !'' لقد صبرنا وسوف نصبر فالمسرح يحتاج لطول الباع ! ولكننى تلقيت اتصالاً تليفونيًا فى اليوم التالى من صفوت شعلان مدير مكتب كرم مطاوع يقول لى ''موعد البروفة يوم الثلاثاء !'' .



لم أصدق أذنى واستفسرت منه - عن أى بروفة يتكلم ؟ وأكد لى أنه يتكلم عن بروفات **الجاسوس ! وتساءلت** : هكذا ؟ دون تعديلات ؟ ما الذى حدث لكرم ؟ وقلت فى نفسى لقد **اقترب موعد تحقيق** حلم آخر وهو العرض فى المسرح القومى ، وكان قد سبقنى إليه سمير سرحان وفوزى فهمى وعبد العزيز حمودة ! وذهبت إلى ما يسمى بالبروفة ، وكانت اجتماعًا مع أعضاء الفرقة ، حضره مدير المسرح محمود الحدينى ومعظم الأعضاء ، وذكر الحدينى عرض ميت حلاوة الناجح ، وكيف تجمعنى به الظروف (وقد جمعتنا للمرة الثالثة فى عام ٢٠٠٠ عند تقديم الدرويش والغازية بعد أن أصبح رئيسًا للهيئة) وقال كرم إنه سوف يلتزم تمامًا بلوائح الدولة ، ولن يستعين بنجوم من خارج الفرقة ، فالفرقة هى - أو المفروض أن تكون - أفضل الفرق العاملة ، وبها جميع العناصر إلى آخر ما قال ، وكان كرم مطاوع يتمتع إلى جانب طاقته الفنية النادرة بمزيج من الزهو والثقة والاحترام العميق لفن المسرح ، مما أكسبه هيبة لم يسبقه إليها - فى تجربتى الشخصية - سوى يوسف وهبى (وكنت قد حضرت بعض الاجتماعات معه فى لجنة المسرح القديمة بوزارة الثقافة) .

وقام كرم مطاوع بتوزيع الأدوار ، وكان النص قد طبع (أى نسخ على الآلة الكاتبة) فى الهيئة فى غضون الأربع والعشرين ساعة المنصرمة ، وأُرسِلَتْ النسخ الثلاث إلى الرقابة ، وكان أحمد الشابورى ، الملحنّ ، يجلس إلى جوار كرم ، فعرفت أنه سيعهد إليه بوضع الموسيقى وتلحين بعض أجزاء النص الشعرى . واختتم كرم حديثه بأن طلب من الممثلين قراءة النص كله وعدم الاكتفاء بأدوارهم الفردية ، مما أدى إلى تململ واضح حول المنضدة التى جلسنا إليها ، إذ قال أحدهم "طبيعى طبيعى" وتذمر الآخر مما اعتبره سوء ظن بالفنانين ، ولكن كرمًا كان يعرف أفضل من غيره أن الممثل لا يعرف إلا دوره ، وهو ينقله فى مفكرة صغيرة وقد يحفظه إذا كان لديه الوقت ، وإن كان الغالبية ممن يشتد الطلب عليهم وتكثر أعمالهم لا يحفظون أدوارهم إلا أثناء التجارب المسرحية ، ويقرأون وهم على المسرح أثناءها من 'النوتة' . وقال لى شكرى عبد الوهاب الذى حصل على الماجستير فى فنون الإضاءة المسرحية (وعرفته على مدى ما يقرب من أربعين عامًا منذ مطلع الستينيات) إن أعظم الممثلين هم من يحفظون بسرعة وينسون بسرعة ! وكانت المسلسلات قد ازدهرت فى التليفزيون وأصبح سوقها رائجًا ،

خصوصًا بعد عودة العلاقات الكاملة مع مصر ، رغم مسيرة السلام و 'تطبيع' العلاقات مع إسرائيل ، فأصبح وقت الممثل من ذهب ، وكان شكرى عبد الوهاب يضرب المثل بالفنان صلاح السعدنى فى سرعة الحفظ ، إذ تكفيه نظرة واحدة إلى النوتة لاستيعاب كلماته ودخول الأستوديو أو البلاتوه أو خشبة المسرح !

انفض الاجتماع وتحدد يوم الخميس التالى 'لبروفات الترابيزة' ، وكنت أجلس إلى جانب كرم مطاوع ، ومعى نسختى الخاصة من النص ، أدون فيها ما يعن له من ملاحظات وكانت فردوس عبد الحميد سعيدة بالدور كل السعادة ، وكنت إذا قابلتها وحدها همست لى بأنها تريد أن تشارك فى الغناء ، وقصت علىّ قصة دراستها الموسيقية فاستبشرت خيرًا ، ولكننى كنت قلقًا من موقف 'جمال الشيخ' الممثل المغمور ، إذ كان يتهامس طول الوقت مع حمزة الشيمى الذى كان من زملاء دراستى الثانوية فى مدرسة الأورمان ، ولم أكن أعرف ما يدبر لى فى الخفاء ، وأما أشد أعضاء الفرقة التزامًا فكان أشرف عبد الغفور ، فلغته العربية رفيعة نقية ، ولا يكاد يخطئ مطلقًا فى النحو ، وإلقاؤه مؤثر ، فهو يقوم بواجبه فى دراسة ما يؤديه ولا يحتاج إلى الملقن أثناء العرض المسرحى ، لا بل ولا أثناء البروفات . وكان محمد أبو العينين باهرًا فى تقمصه لدور السلطان ، فكان يضفى على الكلمات ظلالاً تجعلها تنطق بمعانٍ تؤكد حركات جسمه ، وكانت مديحة حمدى (التى مثلت أول مسرحية نكتبها أنا وسمير سرحان عام ١٩٦٢) قد نضجت فوصلت القمة .

وعندما بدأت بروفات الحركة كان من الواضح أن طموحات كرم مطاوع لن تتحقق باليسر الذى كان يتوقعه ، فهو يضع منهاجًا مبتكرًا للإخراج يتطلب الدقة فى التزامن (syn- chronization) بين الحركة الجسدية والألفاظ المنطوقة ، وتداخل الألفاظ مع الحركات بحيث تتفاوت معانيها طبقًا للحركة ، ولم يكن الممثلون سعداء بهذا بعدما اعتادوه فى المسلسلات التليفزيونية ، حيث يلقى كل ممثل كلماته 'على بعضها' واقفًا أو جالسًا ، دون أن تتداخل الحركة الجسدية المسرحية مع الإلقاء ، فبدأ كرم يتنازل عن بعض طموحاته ، ولكن دون الإخلال بالتصوّر الأساسى لكل موقف أو كل 'لوحة مسرحية' .

وكان كرم يطلب منى إضافة أغنية هنا ، أو إطالة مشهد هناك ، فكنت آتيه بما يطلب فى غضون ٤٨ ساعة ، وكان دائمًا يعتز بهذه القدرة على الإنجاز كما كان يسميها ، وعلى

امتداد نوفمبر بدا أن العرض قد اكتمل ، وخلا المسرح (أى خشبة المسرح) فى آخر نوفمبر لبروفات الحركة ، ومن ثم قال كرم إنه يستطيع أن يعرض فى مطلع العام الجديد .

فى أول ديسمبر ١٩٩١ سافرت مع بعض المترجمين إلى داكار ، عاصمة السنغال ، للعمل فى مؤتمر وزراء الخارجية للدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى ، وكان النظام المعمول به أن يأتى الأستاذ أحمد هيكل (ابن محمد حسين هيكل الكاتب) بفريق من المترجمين والمراجعين يضم عددًا من المصريين ، هم غالبية المترجمين ، وكتاب الاختزال والناسخين على الآلة الكاتبة العربية ، وعددًا من غير المصريين هم ناسخو الآلة الكاتبة الانجليزية من الباكستان ، والفرنسية ، من الجزائر ، وبعض المترجمين والمراجعين من تونس والمغرب ، خصوصًا من الفرنسية وإليها ، فكان فريق الترجمة ضخم العدد ، وكانت المملكة العربية السعودية تستضيف المؤتمر إذا لم تعرض إحدى الدول استضافة الدورة ، وكان مقر أمانة المنظمة فى جدة يضم عددًا من الإفريقيين الذين أحسوا أن البلاد العربية تستأثر بالعمل فى تلك المؤتمرات ، وكان الأمين العام للمنظمة آنذاك إفريقيا ، فوجدوا الفرصة سانحة 'للتغيير' ، وقاموا بتدبير ما اعتبر انقلابًا صامتًا تزعمه مترجم سنغالى يدعى 'مالك سى' ، وأقنعوا الأمين العام بتشكيل فريق جديد يضم المزيد من العناصر الإفريقية ، مع الاحتفاظ ببعض الأسماء القديمة ، وكان 'الشرط السرى' والذى لم أعلم به إلا بعد رجوعى هو استبعاد أحمد هيكل من مهمة المنسق العام لفريق الترجمة !

وعندما ذهبنا أنا وزملائى إلى المطار لم نكن نعرف ما حدث ، وأحسسنا بوجود 'إفريقى' ظاهر (بل مهيمن) فى الأمانة عندما وصلنا ، ولكننى (وأنا أتكلم عن نفسى أساسًا) لم أكن أتصور أن انقلابًا ما قد وقع ، وحرت فى تفسير عدم مشاركة أحمد هيكل ونهى بدوى وعمر صبرى ! وبحثت عن بعض المترجمين الفوريين المصريين فوجدت إخوانًا لنا من بلدان عربية أخرى قد حلّوا محلهم ! كانت الحيرة هى إحساسى الأول ، ولكنها أفضت إلى انغماس فى مسرحيتى الجديدة الدرويش والغازية !

كانت الخطوط الأولى لتلك المسرحية قد وضعت فى روما أثناء مقامى أسبوعًا أو عشرة أيام فى الأكاديمية المصرية ، وكان عملى فى وزارة الثقافة مشرفًا على إدارة النشر بهيئة الكتاب شافعًا لى على النزول ضيفًا هناك ، وكان ذلك قبل عام كامل (قبيل الغزو العراقى للكويت) وكنت مشغولاً آنذاك بتيار السلفية الذى يوشك أن يجرف كل فكر متقدم فى بلادنا ، وكنت مشحونًا بالأفكار التى قرأتها عن رواد التنوير (بعد الانتهاء من رحلة التنوير مع سمير

سرحان) وخصوصًا المشهد الذى كتبته لسهير طه حسين عن تحرير المرأة ، والأغنية التى كتبها لها محمد بهجت ، وكنت بدأت فى روما أقلّب فى ذهنى ما ينشده هؤلاء السلفيون ، وأحلل ما يسمى 'بالخطاب السلفى' الذى بدأ يغزو أجهزة إعلامنا بل وكتاباتنا بصفة عامة ، وأدى بى تحليل ذلك الخطاب (بالمعنى الذى يستخدمه فيه 'فوكوه') إلى أن محور الفكر السلفى ينصبُّ على المرأة ، وهو يستخدم ألفاظًا عامة مجردة يمكن تفسيرها وفق هوى المتحدث ، على جاذبيتها وسحرها ، وهو ما أدى إلى ظهور إشكاليات problematics - وهذه تختلف عن المشكلات فى أن المشكلة (problem) شىء يشكل عليك ، أى إنه عقبة تنشأ بسبب الاختلاط أو الالتباس فإذا انتهى الالتباس زالت العقبة وحُلّت المشكلة ، ولو أنها تستخدم فى حياتنا اليومية بمعنى الصعوبة وحسب ، فتسمع من يقول إن هناك مشكلة مالية بمعنى ضائقة وهكذا ، أما الإشكالية فهى الفكرة أو العبارة التى تبدو مقبولة وهى تتضمن تناقضًا يصعب قبوله ، والخطاب السلفى يستند إلى هذه الإشكاليات ، وسأضرب لها عدة أمثلة ، ولنبدأ بالمقولة الذائعة ''الحلال بيّن والحرام بيّن'' ، إنها عبارة منطقية وتكاد تكون ذات قداسة ، ولكنك إذا حاولت تفسيرها وجدت أن 'الوضوح' المفترض فى الحلال والحرام أبعد ما يكون عن الحقيقة ، فالإسلام دين خلافى ، فإذا أردت الرجوع إلى الأصول وقلت إن الحلال هو ما أحله الله فى القرآن والحديث مثلاً ، والحرام ما حرمه الله فيهما ، وجدت من المجتهدين من يوسع دائرة هذا أو ذاك أو يضيّقها ، وكلما توغلت فى تحديد ما هو الحلال وما هو الحرام عن طريق القياس ، وهو مبدأ معترف به فى الفقه ، وجدت من تضارب الآراء ما يجعل 'الوضوح' صفة غير محققة ! ولنأخذ مثلاً ثانيًا من العبارات التى شاعت فى كلام السلفيين مثل الإسلام هو الحل - إنها عبارة جميلة ، ولا يستطيع أن يعارضها مسلم ! ولكنك إذا أنعمت النظر فيها ظهر أنها إشكالية ، فما المقصود بالحل ؟ هل هو حل من نوع 'حل العقال' ؟ أم هو حل لمشكلاتنا المعاصرة مثل نظم الاستيراد والتصدير وطرائق إصلاح الأراضى واستزراعها ورفع مستوى الصناعة وتحديثها وما إلى ذلك بسبيل ؟ ولنلاحظ أن تعبير 'حل المشكلة' لا يعنى أكثر من التغلب على 'الصعوبات' ، ولكن 'الحل' كلمة قد تعنى السبيل القويم ، أو الأخلاق الفاضلة ، أو الإيمان الذى ينجى من عذاب النار ، وقد تعنى المنهج الذى يتبعه كل مفكر (يطلق على نفسه لقب مفكر إسلامى) فى التصدى لظواهر العصر الحديث التى يكرهها ، وفى خضم ذلك كلّه تبرز قضية المرأة !

ومما يؤكد هاتين الإشكاليتين إشكالية أخرى هى الرجوع إلى النص ، أو ما يسمى بالنص الصريح ، فالذين ينادون بإرجاع المرأة إلى المنزل أى منعها من العمل خارج المنزل والاختلاط بالرجال (والعياذ بالله !) لديهم نص صريح أو نصوص صريحة ، والذين ينادون بعكس ذلك لديهم أيضًا مثلها ، وقد تكون هذه النصوص مقدسة أى من القرآن والسُّنّة ، وقد تكون من تفسيرات النصوص المقدسة ، فالقرآن حمّال أوجه كما يقول على بن أبى طالب ، والسنة تفسره وتؤكده وتبيّن الوجه الذى يجب أن يفهم عليه ، والسنة تدعمها الأحاديث ، والأحاديث المروية ليست كلها صحيحة ، ففيها الحسن والضعيف والموضوع ، ولكنها جميعًا مروية ، وهكذا نشأت قضية النص لا كما تعالجها المدرسة النقدية الحديثة ، أو ما يسمى بالنظرية الحديثة ، بل من حيث اعتبار أى كلام نصًا ، ومن ثم النزوع إلى الإطلاق ، أى إضفاء صفة المطلق على كل نص بعد به العهد فاكتسب جلال الزمن وهكذا فُتح باب التراشق بالنصوص ، خصوصًا النصوص الجذابة المقتطعة من نصوص كبرى ، بغض النظر عن مصدرها ، وانتشرت الظاهرة واستفحلت ، فَأَصْبَحْتَ تسمع الصغار ممن لم يتبحروا فى العلم بل ممن لم يكادوا يتخطون أعتاب الاجتهاد وهم يتبارون فى اقتباس النصوص ، والإشارة إلى ما قاله فلان وما قاله علان ، وعلا الضجيج واستعر أواره ، والمرأة - صلب القضية - لا تجد سبيلاً للنجاة سوى أن تخضع للمد الذى ما فتئ يرتفع حتى اجتاح شواطئنا وغطاها ، وانتهى الأمر بحل وسط يشهد بذكاء المصرى وقدرته على الابتكار ، إذ أصبح الموضوع محصورًا فى ارتداء الطرحة بأشكالها المختلفة من عباءة كاملة إلى توربان (أى عمة بكسر العين) أو برنيطة شرقية لا يلزم أن تغطى الشعر كله ، بل يمكن أن تظهر بعض الخصلات التى تبين "نوع" البضاعة المغطاة للعريس المتوقع ، وبحيث لا تخفى كل شىء بل تصبح كالإطار الذى يبرز جمال الوجه !

ولكن انحصار 'الموضوع' فيما أصبح يسمى 'بالحجاب' (والحجاب لغةً وتاريخًا معناه الاحتجاب أى الاختفاء لا الظهور ومزاحمة الرجال فى كل مكان) لم يكن معناه انحسار الخطاب الدينى ، إذ ظهر 'الدعاة' وتكاثروا ، ونصب أعينهم 'الموضوع' ذاته أى المرأة ، وكان ما 'يدعون' إليه غامضًا فى البداية ، ولكن عدم وجود ضوابط للانضمام إلى صفوفهم جعل الكثيرين ممن ضاقت بهم سبل العيش ينضمون إليهم ، وكان أهم ما لفت نظرى فى هذه الموجة الجديدة هو ما أسميته فى أحد مقالاتى فى أسبوعيات الأهرام باليقين ! إن الجميع موقنون بصحة أفكارهم ، على ما تستند إليه من إشكاليات ، وما يعتورها من نقص فى العلم

وفى الاستدلال المنطقى بل وفى الصياغة نفسها ، وشد انتباهى من بين هؤلاء شاب قرأ (وهذه فضيلة نادرة) بعض أعمال السلف ، فراعه ما كان أسلافه يتمتعون به من نساء ، من باب الزواج الشرعى أو ملك اليمين أو غير ذلك ، فجاءنى (واسمه أسامة) وتحدث عن 'العصر الذهبى' الذى كان للرجل أن يتمتع فيه بكل شىء ، وأمطرنى بنصوص مقدسة وغير مقدسة ، وكان ذلك ردًا على مقال أو حديث أدليت به لمجلة الكواكب وقلت فيه إنى لا أختار بديلاً عن العصر الحديث ! وكان ردى على مقولة 'العصر الذهبى' (وهو لم يحدد أى العصور يقصد تاريخيًا) أن سألته إن كان يريد العودة إلى الماضى فقال أنّى لى ذلك وأنا حبيس هذا العصر الفاسد فقلت له ما عليك من الفساد فكل عصر يرى أنه فاسد وقديمًا قالت المرأة لعمر بن الخطاب ''فسد الزمان يا عمر !'' ولكن قل لى أى عصر تريد أن تعود إليه ؟ فبدت عليه الحيرة وتطلع إلى النافذة - من غرفة مكتبى المتواضعة فى الجامعة - وقال : عصر الجوارى ! وفرحت بصراحة أسامة ، وكنت أحبه لأنه يقرأ ، وضحكت ثم قلت له مداعبًا : والعبيد ؟ فانزعج . وما لبث أن استجمع بعض 'معلوماته' وقال : هؤلاء كانوا من الأسرى ! قلت نعم ، فهل كنت تقبل أن تولد 'فى الرق' أو تؤسر فيكتب عليك أن تكون رقيقًا إذا لم يسرع أحد بافتدائك أو إذا لم يكن لك من يفتديك ؟ فقال أسامة فى ثقة : سيكون لى عبيد ممن يأسرهم الجيش ! ولماذا تفترض يا دكتور عنانى أننى سأكون عبدًا ؟ أنا أتصور أنه سيكون لى عبيد والكثير الكثير من الجوارى ! وضحكنا وافترقنا فلم يكن أسامة ساذجًا وكان يعرف جيدًا ما أرمى إليه !

كانت مشكلة الرق هى العقبة التى توقف عندها طه حسين فى مناقشته للامبراطورية الرومانية فى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر ، كما بيّن بهاء طاهر فى كتاب له لا أذكر عنوانه، ولكن أصدقائى من الذين ركبوا موجة 'الخطاب السلفى' كانوا لا يرون فيها أى عقبة، فهم فى أعماقهم يحلمون بالنساء طول الوقت ، وعندما يجتمعون - وقد حضرت أحد اجتماعاتهم ذات ليلة فى رمضان - يتذاكرون 'أحكام الجوارى' و'السرارى' وحكم 'أم الولد' وكيف تتحول الخليلة إلى حليلة وحكم الدين فى ذلك ، وكان حديثهم ينضح بما تمجه النفس من شهوة ومن لهفة على 'الوصال' ، فأدركت أن أحد جوانب سحر الماضى لديهم هو تلك الرغبة المشبوبة ، وقد تكون قائمة عند الشباب على الحرمان ، وأذكر أننى خرجت عن الدور المرسوم لى ذات يوم حين قلت لأحدهم بعد انفضاض ذلك الاجتماع ما قاله العقاد من أن الإسلام دين العتق لا دين الرق ، وأننى أدين نظام الجوارى الذى ساد فى 'العصور السالفة'

لأنه كان مرتبطًا بنظام الرق الذى لا يقبله الإسلام ، فنظر إلىّ شزرًا وحاول الاحتجاج بأحد النصوص ، ولكننى حاربته بالسلاح نفسه وقلت له إن القرآن يحدد العقبة التى يجب أن يقهرها المؤمن حتى يصدق إيمانه وهى تحرير العبيد قال تعالى ﴿ فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ﴾ صدق الله العظيم .

كنت أشارك دون أدرى فى الخطاب الدينى ، الذى اختلط بالخطاب السلفى بل أصبح رافدًا له ، ولكن هذه الذكريات بعثت فى نفسى صورة لشخص من هؤلاء يريد أن يرجع إلى الماضى حتى يمتلك الجوارى ، ولكنه يجد أنه أصبح من الرقيق ! وكتبت ذلك كله ذات ليلة وأنا فى الأكاديمية فى روما ، وأطلعت عليه قريبى السفير محمود شكرى ، الذى كان قنصلاً عامًا لمصر فى إيطاليا ، وحكيته ذات ليلة للدكتورة عزة حسين رزق ، الأستاذة فى كلية الهندسة بجامعة القاهرة ، فوجدت ترحيبًا بوجهة النظر الجديدة ، فحملت أوراقى وعندما خلوت إلى نفسى بعد عام كامل فى داكار ، بدأت أكتب مشاهد الدرويش والغازية ، وكنت أقرأ كل مشهد على بعض زملائى مثل زين سليط وأحمد عبد الجواد فأجد استحسانًا فيطمئن قلبى ، وكان منهجى مبتكرًا وإن لم يكن جديدًا كل الجدة فى المسرح العالمى ألا وهو الانتقال بالحدث من الحاضر إلى الماضى ليس بأسلوب الاسترجاع أو الفلاش باك (flashback) بل بإيجاد أحداث يتخيلها البطل وتحدث فى الماضى بحيث تسير جنبًا إلى جنب مع أحداث المسرحية فى الزمن الحاضر ، على ما فى ذلك من صعوبة .

والغريب أننى لم أكن بقادر على كتابة المسرحية الجديدة ، وإن تبلورت صورتها وأحداثها فى ذهنى ، قبل أن أرى مسرحيتى الأخيرة على المسرح ! وأعتقد أن تلك عادة شائعة بين كتاب المسرح ، فالمسرحية لا تصبح 'مسرحية' إلا عندما تتجسد على المسرح فى أشخاص وحركة وأضواء وألوان وموسيقى وجمهور ! وعندما كتبت المشاهد الأولى من الدرويش والغازية كنت أراها على المسرح بعين خيالى وأتصور الأشخاص وهم يتكلمون ويمثلون ويَضحكون ويُضحكون ، وكذلك تصورت الأغانى التى كتبتها بالفصحى والعامية وهى تُغنىّ ، وتصورتُ لها ألحانًا ما زالت ترن أصداؤها فى رأسى حتى اليوم !

وعندما انتهى المؤتمر ورجعنا إلى مصر قابلت لأول مرة عقبة لا تزال تواجهنى عند كل وصول حتى اليوم ، وهى احتجاز ضابط الجوازات لى للاشتباه فى أن أكون من المطلوبين (أى المطلوب القبض عليهم !) وعلى مدى السنوات العشر الماضية كنت أنتظر كل مرة أصل فيها

من الخارج حتى ينتهى موظف الكمبيوتر من 'الفحص' أى التأكد من أننى برئ أو غير مطلوب ! وأحيانًا ما أتساءل عن سميىّ الذى يتسبب فى تعكير صفو لحظة الوصول إلى أرض الوطن ، ترى من يكون وأين يقيم وماذا فعل ؟ وهل ثم تطابق كامل بين اسمى واسمه إلى ذلك الحد ؟ وذكرت قصة ليحيى حقى بعنوان فى المرآة تتناول هذا الموضوع ، وخطر لى أن أتناول تلك الفكرة فى مسرحية مقبلة ، مثل كيلو بودرة التى انتهيت من كتابتها ، ولكننى عدلت عن ذلك . وعدت إلى القاهرة لأجد أهوالاً فى الجاسوس !



كنا فى منتصف ديسمبر ١٩٩١ ، وقيل لى إن المخرج يبحث عنى وما انفك يسأل عن موعد عودتى فذهبت إليه يوم الاثنين ١٦ ديسمبر فى المسرح فاستقبلنى ببسمة ساخرة معاتبة قائلاً 'أين كنت ؟' وسألته ما الخبر فلم يجب وقال 'بعدين !' فصعدت إلى غرفة مدير المسرح محمود الحدينى لأسأله فقال إن حمزة الشيمى أرسل خطاب اعتذار عن المشاركة فى مسرحية تعرّض المشارك فيها للخطر ، وكان الخطاب فى صورة بزقية تذكّر محمود الحدينى بسوابق ذلك 'المؤلف' الذى يعادى النظام ويعارض التطبيع ! وكان الخطاب ذا لهجة استفزازية أدهشتنى ، فحمزة صديق قديم ، وسألت محمودًا عن سر الاعتذار فقال إن جمال الشيخ يشيع بين الممثلين أن التتار هم أو يرمزون لليهود وأن السلطان يرمز للسادات ، وأن الخوف مما لدى التتار من أسلحة يقصد به الخوف من الأسلحة النووية ، وأن نشدان السلطان للسلم يعنى موافقة السادات على السلام والتصالح مع إسرائيل ! وقبل أن أدافع أو أحاول الشرح قال محمود الحدينى "والأدهى من ذلك اعتذار فردوس عبد الحميد عن أداء دور البطولة" وسادت لحظات صمت قطعها هو قائلاً : لقد حدثت مشادة عنيفة بينها وبين كرم مطاوع إذ وقفت أثناء البروفة على المسرح تقول له أفصح عن مراميك يا كرم ! هل تعارض التطبيع ؟ (تقصد تطبيع العلاقات مع إسرائيل) فرد كرم بثبات : إن موقفى من إسرائيل واضح ، وهذه مسرحية تاريخية!

وقال لى الفنان مدحت مرسى إن صافيناز كاظم كتبت مقالاً فى المصور تهاجم فيه كل من يحاول التقليل من شأن المماليك مدافعة عن دورهم التاريخى فى حماية الإسلام من

التتار، قائلة إن الغربيين مثل اليهودى برنارد لويس ، المؤرخ المشهور ، هم الذين ابتدعوا هذا الهجوم وشجعوه حتى يلقوا بالظلال الكثيفة على العصر المملوكى المجيد ، ويبدو - قال مدحت مرسى - أن بعض أفراد الفرقة قد أبلغوها بما 'يحدث' فى المسرحية ، فى عصر يتعرض فيه الإسلام لهجمة ضارية ! وقلت لمدحت إننى أصور حالة رجل من عامة الشعب وجد نفسه ، رغم أنفه ، متورطًا فى أحابيل السياسة ومكائد الحرب ، وأحاول إبراز الهوة الشاسعة التى تفصل أبناء الشعب عن الحكام فى ذلك العصر ، وفى كل عصر ، مهما تكن مساحة المشاركة الشعبية التى يسمح بها الحكام ! وأما الحادثة التى تصورها المسرحية فهى ثابتة تاريخيًا ، ''ولا تنسى يا مدحت أن المماليك كانوا حكامًا عسكريين ، وكانوا أيضًا من الأجانب !'' فضحك وقال هذه هى المشكلة !

وذهبت لأستفسر من كرم مطاوع ولكنه كان صموتًا ، ثم خرج عن صمته حين أرسل إلى الأهرام خبرًا يعلن فيه اعتذار أحد الممثلين عن المشاركة فى المسرحية ، ولم يلبث بعد فترة أن أرسل خبرًا آخر ، وتأجل افتتاح العرض عدة مرات بسبب تغيير الممثلين وتغيبهم عن البروفات، إذ كانوا - جميعًا تقريبًا - مشغولين بتصوير مسلسلات رمضان . فاجتمع كرم بهم واختار موعدًا يناسب انتهاء الجميع من أعمالهم الخاصة وهو الثانية عشر ليلاً ! وكنت أحضر هذه البروفات الليلية فأجد الإرهاق باديًا على وجوه الجميع ، والنوم 'يداعب جفونهم' كما يقول أحمد رامى فتوقفت عن حضورها .

وذهبت ذات يوم إلى المسرح إثر مكالمة تليفونية عاجلة من محمود الحدينى يقول فيها إن مديحة حمدى فى حالة هياج بعد أن قدمت اعتذارًا هى الأخرى ، وقابلتُ مايسة زكى سكرتير تحرير مجلة المسرح وصديقة الأسرة ، والتى أعتبرها بمثابة ابنتى ، فاصطحبتها معى إلى غرفة محمود حيث جلست مديحة صامتة متوترة ، ومحمود لا يجد ما يقوله لها ، وسألتها عن سبب غضبها فقالت إنها قبلت ذلك الدور الصغير (دور الأميرة الحالمة) احترامًا لوجود فردوس عبد الحميد وكرم مطاوع ، ولكنها سمعت أن فردوس قد اعتذرت بسبب المسلسل ، وأنها لابد أن تحل محلها الآن فى الدور الرئيسى فهى نجمة ساطعة وممثلة قديرة ، ولكن 'السيد' كرم قرر إبدال فردوس بممثلة ناشئة 'تدعى' سلوى خطاب ! وهذا - قالت مديحة - غير مقبول على الإطلاق !

وأدركت الخطر الذى تتعرض له المسرحية فرجوت من محمود الحدينى أن يطلب الشاى وبدأت أتكلم فشرحت لمديحة دورها ، مؤكدًا أنه ليس صغيرًا وإن كانت كلماته أقل من كلمات الدور الآخر ، ولما كنت أحفظ معظمه فقد ركزت على مواطن الإبداع فى أدائه وصعوبة أدائه وأنه لن يستطيع أحد أن يؤديه إذا تركته ، فالفتاة خاتون (وهو الدور الذى تقوم به) رمز حافل بالدلالات - ولكنها قاطعتنى "ولكنه دور صغير" فوعدتها بأن أزيد من عدد الكلمات حتى تتناسب مع أهمية الدور قائلاً إننى بدأت ذلك فعلاً وأخرجت لها من حقيبة يدى بعض الأوراق التى كنت كتبتها ثم ألغيتها أثناء إعداد المسرحية فى صورتها النهائية وقلت لها إن دورك سوف يصبح بهذه الكلمات أطول من الدور الآخر وسوف يكون حقا دور البطولة !

وكان للشاى الساخن فى يناير مفعول السحر ، فهدأت مديحة ، وكانت مايسة على وشك أن تنفجر ضاحكة حين أشرت إليها بضبط أعصابها ، وفرح محمود الحدينى قائلاً إنه سوف يتفق مع كرم مطاوع على بَرْوَزَة دور مديحة حتى يجلجل الدور ويطغى على كل ما عداه ، فبدا عليها الرضى وابتسمت أخيرًا وعدلت عن الاعتذار ، وخرجنا جميعًا أنا وهى ومايسة ، وتَمْتَمَتْ ونحن خارجين فى ضحكة عصبية "إلاّ سلوى دى ! مين سلوى دى كمان ؟!"

ورأيت سلوى خطاب لأول مرة يوم السبت ١٨ يناير ومدحت مرسى يقوم بتحفيظها الدور، وكان موعد الافتتاح قد تأجل مرتين - الأولى من الخميس ٩ يناير (وكان قد وقع الاختيار عليه من مدة حتى يتفق وعطلة نصف العام) إلى ١٦ ثم إلى ٢٣ ، فلم تكن أمام سلوى إلا أيام معدودة حتى تنتهى من حفظ الكلمات والحركة ، وكان حمزة الشيمى قد عدل عن اعتذاره ، وبدأت البروفات شبه الكاملة بالموسيقى ، وقد فُجعت بالألحان التى وضعها أحمد الشابورى ، حتى إن ابنتى سارة قالت لى "ألحانك أحسن !" (وكنت قد وضعت بعض الألحان ودونتها بالنوتة للمشهد الافتتاحى) وبدأ حلم الوصول إلى المسرح القومى يقترب يومًا بعد يوم ، وكنت أحاول أن أحشد أكبر عدد من النقاد والأصدقاء لحضور حفل الافتتاح ، حين سمعت من كرم مطاوع أن تسجيلات الموسيقى فاسدة ! ولم أعرف ما يعنى بكلمة "بايظة" - وهو اللفظ الذى استخدمه فى الإشارة إلى الشرائط - إلا حين ذهبت إلى عاصم البدوى ، المهندس الذى يتولى إدارة الشرائط فاكتشفت الخلط الذى وقع بين الموسيقى التصويرية المصاحبة لبعض المشاهد وبين موسيقى الأغانى التى تغنى مباشرة أى بأصوات الممثلين على المسرح ، وتأجل الافتتاح من جديد إلى يوم ٣٠ يناير !

كان يوم الافتتاح يوم تحقيق الحلم، وكان العرض باهرًا ، وأمطر النقاد عبارات الثناء على المسرحية، وأذكر أننى كنت أسير فى دهاليز مسرح الأزبكية فى الأسبوع الأول فأتأمل الطريق الطويل الذى قطعته منذ احترفت الكتابة مع سمير سرحان عام ١٩٦٢ - ثلاثون عامًا مررت فيها بالمسرح الحديث ومسرح الحكيم ومسرح الطليعة ثم المسرح القومى ! وقلت فى نفسى المسرح حياة كاملة وهو يبتلع الإنسان تمامًا بهمومه ومباهجه ، ولا توجد فى الدنيا لحظة تعدل تقديم النص على المسرح، وسماع كلماتك وهى ترن فى الصالة فيصفق لها الجمهور!

كان التفسير الذى قدمته للفنان مدحت مرسى من بنات أفكار زوجتى نهاد ، إذ كَتَبَتْ تلخيصًا لفكرة المسرحية أَدْرَجْتُه فى النبذة التى طُبعت فى برنامج العرض المسرحى الذى يسمونه فى مصر 'البامفليت' (بعد تعريب الكلمة وإكسابها النطق المصرى الصميم) كما حرصت على ذكر المصدر التاريخى فى تلك النبذة ، ولكن ذلك لم ينقذنى من تأويلات النقاد، إذ وقفت صافيناز كاظم فى ساحة مسرح الأزبكية بعد العرض تكرر ما قالته عن هجومى عن المماليك حماة الإسلام وكان كرم مطاوع واقفًا معنا ، فذكرت لها تاريخ الحادثة والمصدر ، فقالت ''ولماذا اخترت هذه الحادثة دون غيرها ؟'' فرد كرم قائلاً : هذه حرية الكاتب ! فقالت ''ولكن للاختيار معنى !'' وتوالت بعد ذلك الأقاويل ، وتردد فى الوسط الفنى أن كرم مطاوع مغضوب عليه ، وجاءتنى فيروز إسماعيل تلميذتى السابقة فى معهد الفنون المسرحية وهى مهتاجة وكانت تعمل مساعدة فى الإخراج ، وكان عمرو دواره هو المخرج المساعد لكرم ، وقالت لى : ''حيشيلوا كرم !'' وقلت لها إن ذلك مستبعد ، وإنه لا يمكن أن يحدث حتى ينتهى العرض على الأقل ! وكان الوسط الفنى يزخر بالقصص عن تصدى كرم مطاوع للفساد، وعن المؤتمرات التى تحاك حوله ، وكان أى إجراء يتخذه للانضباط يفسر بأنه 'خلاف فنى'، من ذلك أنه غضب حينما قام مدير أحد فرق الهيئة بصرف مكافآت حوافز إضافية لنفسه أثناء وجوده فى إعارة لأحد البلدان العربية الشقيقة ، فالقانون ينص على عدم صرف هذه الحوافز إلا مقابل عمل فعلىّ ، وأصر كرم على إعادة المبلغ الذى صرف ، فتوسط المدير المذكور لدى سمير سرحان ، وقد شهدت بنفسى أثناء إحدى البروفات 'الليلية' للمسرحية مخاطبة سمير لكرم فى هذا الموضوع وإصرار كرم على موقفه ، وقد لخص لى رشاد عثمان موقف كرم مطاوع قائلا ''إنه لا يحب الحرامية !''

كانت الشكاوى من كرم مطاوع تركز على أسلوبه الشخصى فى التعامل مع الآخرين ، ولا تطعن فيما يفعله، ولكن كثرة الشكاوى وتكدس الشائعات جعلها تبدو حقيقية ، حتى أننى بدأت أعجب من الخلط الدائم فى الوسط الفنى بين الحقيقة والخيال ، فالفنانون يسهرون - بطبيعة عملهم - وفى آخر الليل تولد الشائعة ، ولا تلبث فى الصباح حتى تصبح من 'الحقائق'، وهكذا تردد التليفزيون فى تصوير المسرحية ، ثم تقاعس ، ثم حدد موعدًا وأخلفه، وكان أول مارس (الأحد) ، موعد سفرى إلى جنيف لأول مرة ، يقترب حثيثًا ، وكنت أخشى أن يقع ما أخشاه (لكرم مطاوع) فينتهى العرض دون تصوير تليفزيونى ، وحاولت من جانبى أن أتصل بمن أعرفهم ، وذهبت إلى مبنى التليفزيون وقابلت أحد المسئولين فوعدنى خيرًا ، وعندما خرجت مستبشرًا قابلنى شخص يطلق لحيته السوداء ويبتسم بسمة عريضة مادًا يده بالسلام فسلمت قبل أن أتبين أنه 'حسن' المخرج !

كنا يوم الاثنين ٢٤ فبراير وكنت فى طريقى إلى هيئة الكتاب للاطمئنان على عدد مارس من مجلة المسرح بعد أن أصبحت شهرية ، فعرضت عليه أن يصاحبنى فقال بل سألحق بك فى سيارتى وفى الهيئة جلست معه نتجاذب أطراف الحديث عن مسرحيتى وعن النقد المنشور عنها فى الصحف ، ومنها مقال كتبه سامح مهران (الدكتور) بعنوان 'مسرحية تريك تراك' فى روز اليوسف ، وسألنى من هو سامح مهران فقلت له مؤلف وناقد ، ثم تطرقنا إلى عمله فقال إنه أنشأ شركة للإنتاج التليفزيونى الإسلامى . ولم أفهم . وقلت له تقصد المسلسلات الإسلامية (التاريخية) أم غيرها فقال أنا أعنى ما أقول : لقد تخصصت فى البرامج الإسلامية ، سواء كانت درامية أم غير درامية ! ودهشت من التحول الذى طرأ على من حصل على الدكتوراه من الاتحاد السوفييتى وكان يتغنى بالاشتراكية ، وأردت أن أعرف المزيد ، وكان 'حسن' كعهدى به صريحًا ، فقال ما سوف أوجزه :

" لقد انهار الاتحاد السوفييتى ، وبدأ تمزق الكتلة الشيوعية فى أوروبا الشرقية ، وقريبًا يملك الغرب زمام القوة وينفرد بزعامة العالم ، والغرب يسير فى طريق الحداثة الرافض للدين ، ولكنه يشجعنا على التمسك بديننا ففى ذلك صلاح أمرنا واستقرار أوضاعنا وهو ما يخدم مصالحه ! وأنا مسلم ، والحمد لله على نعمة الإسلام ، خصوصًا فى هذا العصر ، ومن ثم قررت أن أستخدم فنون الأداء فى خدمة دين الله . وهناك من يدفعون ، بل ويدفعون كثيرًا فى مقابل خدماتى ! ولذلك فأنا أنتج برامج تثقيفية دينية ، بعضها موجه

للكبار وبعضها موجه للصغار ، بعضها درامىّ وبعضها حِوارىّ ، ولكنها جميعًا تستخدم الأسلوب غير المباشر - أى تتجنب الوعظ المباشر بل تقدم القيم الإسلامية فى ثوب حركة درامية جذابة ، وهناك برامج فى الطريق عن كبرى الشخصيات الإسلامية وكبرى القبائل العربية وهكذا'' .

وانتهى حسن بأن ألمح إلى إمكان مشاركتى فيما يفعل بالنصوص التى أريدها ، وسألته عن عنوان شركته حتى أستطيع الاتصال به فمال علىّ كأنما يريد أن يهمس بسر ، وتلفت فى الغرفة فلم يجد سوى 'محمد' الذى يعمل فى مجلة الفنون الشعبية وكان مشغولاً بتصحيح إحدى التجارب الطباعية ، فاطمأن قلبه وقال ''ليس لى مقر ثابت ، إذ لو فعلت لأهلكتنى الضرائب ! ولكننى شركة متجولة ، عنوانها هو البنك الذى يحول عملائى إليه النقود !'' ولما بدا أننى لم أفهم ، اعتدل فى جلسته وقال : ''أنا أنتج بالمقاولة ، أى بالقطعة ، وأغيّر أماكن التصوير باستمرار ، وأستأجر استوديوهات مختلفة فى بلدان عربية مختلفة ، بل وأغيّر الطاقم الذى يعمل معى من الفنيين طول الوقت ! الحرص واجب يا عنانى يا خويا !''

وبعد أن أدرك أننى لا شك مهتم بهذا العمل المربح ، نهض قائلاً : ''خلينا على اتصال ! كلمنى فى البيت - ما بين ثمانية وتسعة صباحًا ! وعلى فكرة'' - وكنا نسير فى اتجاه المطبعة حيث أردت الاطمئنان على العمل فى المجلة - ''أنا سوف أنتج برامج بالانجليزية لتليفزيون السعودية - عن الشخصيات العربية البارزة ! بس دى مقابلات وأحاديث ، لكن أنا اقترحت عليهم تقديم برامج كاملة بالانجليزية عن الوطن العربى ، بدءًا بالجزيرة العربية ، لتسويقها فى دول إفريقيا وآسيا الناطقة بالانجليزية .. وما زلت فى انتظار الرد !'' وبعد جولة المطبعة معى خرج واختفى ، ولم أسمع صوته إلا فى العام التالى ، بعد الزلزال الذى هز حياتى هزًا .

وفى أول مارس سافرت إلى جنيف فشاهدت جنة أخرى من جنان الله الوارفة الظلال حوّلها أهلها إلى ساعة دقيقة مضبوطة دائمًا ، يدور فيها كل ترس بحساب لا يخطىء فى أعشار الثانية !

٩

تركت مصر ورائى وهبطت بى الطائرة فى مطار جنيف فوجدت محمود يونس مع زوجته وابنه حاتم فى استقبالى ، وكان محمود قد استأجر لى 'استوديو' تملكه سويسرية ظريفة اسمها مدام مرسييه ، وكانت فى منتصف السبعينيات ومع ذلك فهى فى نشاط مستمر، إذ لديها عقارات وشقق تؤجرها وتشرف بنفسها على نظافتها (باكتراء عاملات نظافة إسبانيات) ولكنها تقيم فى منزل الأسرة فوق الجبل مع والدتها . وبعد أن حططنا الرحال بدأنا إجراءات الاستقرار شهرًا كاملاً ، وفى المساء تنزهنا على شاطئ البحيرة وتناولنا الطعام فى مطعم ريفى ، وفى صباح اليوم التالى بدأت العمل .

كم كنت فى حاجة إلى الابتعاد عن مشاكل المسرح ! وحصرت همىّ فى القراءة فى المساء بعد العمل وفى عطلة نهاية الأسبوع ، وكان العمل يقتضى الإلمام بمصطلحات الفيزياء فانكببت عليها ، وتعلمت كل ما يمكن للطالب المجد أن يتعلمه فى شهر واحد من الدراسة المكثفة ، فالأرصاد الجوية علم جديد ، وكان أول مدير عام للمنظمة (يسمونه الأمين العام) مصريًا ، وهو المرحوم فتحى طه ، وكان أحد تلاميذه النجباء (الأستاذ العاملى) قد تقاعد ولكن الأمين العام الجديد استبقاه للاستفادة بخبرته ، وكان مصريًا أصيلاً ، وقد قابلت أسرته بعد ذلك وبهرت بمدى العلم والجد وحسن الخلق عند الجميع . وسمعت ، وإن لم أكن قد تعرفت بعد ، على السيدة شادية عبد اللطيف وأختها سوسن ، وكانت شادية زوجة طارق شرف المترجم الفورى ، وهو أخو سامى شرف سكرتير الرئيس عبد الناصر . وتدريجيًا بدأت استجلى محاسن سويسرا .

وقبل أن أعود إلى مصر كنت قد وقعت عقدًا بالعمل فى يونيو وبعض أيام يوليو ، وقابلت رفعت لطفى ، رئيس القسم العربى بالمقر الأوروبى للأمم المتحدة ، ودعانى للعمل لديه فى يناير ١٩٩٣ ، وكان متزوجًا من زميلتى السابقة ، والمترجمة الفورية حاليًا ، ماجدة دوس ، وقضيت معه وقتًا ممتعًا ، كما قابلت عز الدين اللواتى ، وهو تونسى يعمل رئيسًا للقسم العربى بمنظمة الصحة العالمية ، وكان يعزف العود ويحب الموسيقى حبًا جمًا ، ولكنه 'تدروش' وأطلق لحيته ، ووعدنى بالعمل معه فى المستقبل .

وعندما عدت إلى مصر كان كرم مطاوع قد فصل من رئاسة الهيئة ، وتوقف عرض المسرحية دون أن تصور تليفزيونيًا ، وبدأت عروض الصيف فى القطاع الخاص ، وكنت أشعر أن فى أوروبا مهربًا من كل دواعى الهموم من حولى ، وكان عبد العزيز حمودة على وشك العودة إلى مصر من عمله فى واشنطن مستشارًا ثقافيًا ، فإذا استقر فى مصر تولى رئاسة القسم بعد هدى جندى ، وإذا لم يستقر كنت أنا أقدم المرشحين ، وكنت أخضع لعلاج أسنانى آنذاك عند طبيب أسنان قريب من منزلنا ، وأُحِسُّ أن ضرسًا ذا سن حاد يجرح لسانى ، ولكن الطبيب رفض خلع الضرس . وفى غمرة فرحتى بانفتاح أبواب جنيف ، وتحقيق حلم المسرح القومى لم أول الأمر ما هو جدير به ، فلم أستشر طبيبًا آخر ، وعللت ما أشعر به بأنه مرض جسدى ، فأجريت تحليلاً كاملاً للدم أثبت عدم وجود ما يوجب القلق ، وفى منتصف يونيو ذهبت مع أسرتى نهاد وسارة إلى جنيف ، فأنزلتنا مدام مرسييه فى شقتها الخاصة ، واكتشفت نهاد أن الاسم الأصلى لمضيفتنا هو 'جولييت' فكان ذلك مصدر تندر وتفكه والحق أن جولييت كانت مولعة بمصر ، ولكنها - فيما قالت - لم تكن قد زارتها منذ عام ١٩٣٧ .

وقضينا أسابيع رائعة فى جنيف ، تعرفنا فيه على أسرة طارق شرف ، وعرفنا قصة هذا المنفى الأوروبى له ، إذ إنه كان ضابطًا صغيرًا فى الجيش (برتبة ملازم) حين تزعم مؤامرة للإطاحة بعبد الناصر ، واكتشف سامى شرف (أخوه) هذه المؤامرة واقترح على عبد الناصر إعدام المتآمرين ، ولكن عبد الناصر أبعدهم عن الجيش وعن مصر ، وكان طارق قارئًا نهمًا عميق الثقافة ، يقرأ باللغتين الانجليزية والفرنسية ، وأهدى نهاد زوجتى كتابًا عنوانه **The True Believer** يضم تحليلاً شائقًا وعميقًا لنفسية الزعيم - أى زعيم - ونفسية أتباع العقيدة - أى عقيدة . وكانت سهرتنا فى منزل طارق تتكون من محاورات ثقافية لم أكن أتوقع سماعها أو المشاركة فيها فى جنيف ! وقد قابلته للمرة الأخيرة فى كافيتيريا الأمم المتحدة فى صيف ١٩٩٥ بعد إجراء عملية فى القلب ، وقالت لى شادية التى كانت ترافقه ساعتها إن قلبه يعمل بنسبة ١٩ ٪ فقط فدعوت الله له بالشفاء ، وفى العام الماضى أخبرنى أحد الأصدقاء إنه قد توفى .

وفى يوليو ١٩٩٢ وصل من الاسكندرية ياسر يونس ، ابن محمود ، ومعه زوجته ، وكان كلاهما فى العشرينيات ، وقدم طلبًا للدراسة فى جامعة جنيف للحصول على الدكتوراه من قسم اللغة العربية ، فاستشارنى فأشرت عليه بدراسة تأثير فكر الأفلاطونية الجديدة فى

شعر أبى العلاء المعرى ، وأهديته الطبعة التى ورثتها من والدى لرسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ، والكتاب المكتوب عن الرسائل والذى كتبه الأستاذ الانجليزى إيان نيتون (الذى أصبح الآن رئيسًا لقسم الدراسات العربية فى جامعة إكستر). وقضينا وقتًا طويلاً فى إعداد خطة الرسالة ، وكتبتها أنا بالانجليزية وترجمها الدكتور محمود مراد ، الأستاذ بجامعة جنيف إلى الفرنسية ، وقبلها المشرف ، وبدأ ياسر الدراسة فعلاً ، ولكنه لاحظ تحيزًا ضد الإسلام من جانب المشرف ، ولم يرق له جو العداء للإسلام فتوقف عن الدراسة ، وتوجه إلى العمل بالترجمة فيما بعد ، وقد نشر له ديوانان بالعربية فى مصر ، أحدهما من شعره بعنوان رسالة إلى امرأة والآخر هو ترجمة أزهار الشر لبودلير شعرًا .

عندما عدت إلى القاهرة عاودتنى آلام الأسنان ولكن الطبيب لم ير ما يدعو إلى القلق، وكنت فى زيارة للطبيب (الجراح الكبير) الدكتور محمود نجيب، والد سعاد المترجمة، بصحبة صديقى المستشار أحمد السودة، وذكرت له الألم الذى أحسه فى أذنى فقال إنه referred pain أى إنه ألم من موقع آخر ''بيسمّع فى الودن''، ونصحنى بالاهتمام بالأسنان لأن السن الحادة sharp tooth يمكن أن تجرح اللسان ''وتسبب أورامًا و ...'' وفزعت عندما سمعت ذلك وعدت لطبيب الأسنان الذى بَرَدَ السنَّ الحادة حتى لا تجرح اللسان، ولكنه كان مجروحًا بالفعل، ولو أن ذلك لم يؤثر على نشاطى، فذهبت إلى جنيف للمرة الثالثة ذلك العام فى سبتمبر، وكان ذلك لفترة قصيرة (مؤتمر قصير) وعندما عدت إلى مصر بدأنا العام الدراسى.

كان الدكتور حمودة قد عاد من أمريكا وتولى رئاسة القسم ، وكانت وفاة الدكتور مجدى وهبة قد تركت فراغًا كبيرًا فى الحياة الثقافية والجامعية بعد أن وافق رحمه الله على العودة إلى التدريس ، وبدأنا العام الدراسى وكان العبء الملقى على عاتقى كبيرًا ، ولكننى كنت - رغم المرض الذى لم أكن أعلمه ولا أريد أن أعلمه - أمارس حياتى اليومية دون تغيير يذكر ، كل ما هناك هو أننى أشعر بجفاف شديد فى الحلق ، وبالألم حين أتناول الطعام بسبب جرح اللسان، وابتدأ بعض الطلاب يشكون من أنهم لا يسمعون صوتى ، على ما عُرِفْتُ به من صوت رنان مُدوٍّ وواضح ، وكنت على وشك العودة إلى طبيب الأسنان حين وقع زلزال القاهرة يوم الاثنين ١٢ أكتوبر ١٩٩٢ .

وتوقفنا عن التدريس حتى آخر أكتوبر ، وعندما استؤنفت الدراسة كان الجميع يقولون إننى مريض ! وذهبت إلى الطبيب فأحالنى إلى طبيب أنف وأذن وحنجرة ، وصف لى علاجًا

لم يأت بنتيجة ، وكنت إذ ذاك أشغل نفسى بترجمة روميو وجولييت شعرًا ، مما كان ينسينى **آلامى . وصرخت فى** وجهى نهاد زوجتى ذات يوم تستحثنى على استشارة طبيب آخر ، وعندما **زرت الدكتور سامى** الصادق فى الروضة قال لى إن هناك deviation مما يرجع وجود شىء خبيث ! **كان ذلك يوم** الأحد ٢٢ نوفمبر ١٩٩٢ ، وفى يوم الاثنين ذهبت مع ألدكتور (الجراح) **نبيل شديد صهر** أخى مصطفى إلى جراح الأورام الدكتور حسن عبد المجيد ، ولم يتردد فى **التشخيص بل قال** بلهجة قاطعة ''أنت عندك قرحة خبيثة فى اللسان'' . وأصابنى الدوار وأحسست كالمغشى عليه . وبعد ثوان تمالكت فيها نفسى سألته ما العمل فقال لابد من جراحة ، وسوف تفقد بعض الأسنان والأضراس والغدد ، ولكن العملية محتومة ، ثم نصحنى بالعلاج فى الخارج إذا كان ذلك ممكنًا ، وكتب تشخيصًا بالانجليزية يوصى فيه بالجراحة فى المستشفى الأمريكى الذى تخرج فيه . وفى اليوم التالى ذهبت إليه فى معهد الأورام حيث قابلتنى زوجته الدكتورة مرفت النجار ، ابنة خالة زوجتى ، وفحصنى الأطباء ، ثم جاء الدكتور حسن واقتطع عينة لتحليلها ، وانصرفت .

أذكر ليلة انصرافى من عيادة الدكتور سامى الصادق ، إذ أوصانى بإجراء ذلك التحليل ، وطلب منى الذهاب إلى عيادة الدكتور نبيل البلقينى ، وتركت سيارتى عند سينما ريفولى وذهبت أبحث عن تليفون ، وكان الجو عاصفًا باردًا ، فسرت والريح تلفح وجهى كأنها بوادر النهاية ، وأنا أقول فى نفسى - الآن ؟ وتذكرت أننى رأيت فيما يرى النائم من نحو شهر رسول الله ﷺ ، وقمت فى حالة من النشوة لا توصف ، وفسرت فى تلك الليلة الباردة تلك الرؤيا بأنها استدعاء إلى العالم الآخر ، واطمأنت نفسى لأن من دعانى هو المصطفى - فما وجه القلق ؟ لقد كان إنذارًا بقرب النهاية وأنا بعد فى الثالثة والخمسين ، ومن ذا الذى يدرى متى يحين الحين ؟

وفى مساء الثلاثاء كَلَّمَتْ نهاد زوجتى ابنة خالتها وحاولت التشكيك فى التشخيص ولكن الدكتورة مرفت كانت قاطعة ، وحادثنى سمير سرحان محادثة اجتماعية فقصصت عليه الخبر فلم يصدق ، وبعد دقائق لا أظنها زادت على العشرين وجدته عند باب شقتنا بملابس المنزل ومن فوقها معطف ، وقرأ الخطاب الذى كتبه الدكتور حسن عبد المجيد ، وتناولنا العشاء وانصرف .

وفى صباح الأربعاء ذهبت إلى الجامعة وقابلت الدكتورة عفاف المنوفى التى شفيت من المرض ذاته ، وكان قد ألم بها قبلى بعام واحد ، ولم تصدق ما قلته ، ثم مررت على معهد

الأورام لأستطلع نتيجة التحليل فقيل إنها ستظهر فى الغد ! وعدت إلى المنزل لا أدرى ما أفعل! كان سمير عندما زارنى قد اتصل تليفونيا بالدكتور محمود شريف (الذى كان وزيرًا ولكنه متخصص فى هذا المرض وهذه الحالة تحديدًا) فقال له عليك بلندن ، واتصل بالدكتورة ليلى موسى (أخت الدكتورة فاطمة) فى الاسكندرية فقالت له إن الحالة (treatable) أى يمكن علاجها ونصحته بفرنسا ، فلها صديق فى معهد جوستاف روسى يدعى الطبيب شاسانى (Chassagne) وقالت مرفت ابنة خالة نهاد إن فرنسا "أحسن فرصة" (best chance) .

وفى يوم الأربعاء ٢٥ نوفمبر كنت وحدى فى المنزل حين رن التليفون فى نحو السابعة إلا الربع ، وكان سمير سرحان على الخط وقال لى "أنا قادم" . وعندما وصل كان قد استصدر قرارًا من رئيس الوزراء بعلاجى فى الخارج على نفقة الدولة ، بناء على القرار الصادر من وزير الثقافة فى الصباح استنادًا على تقرير الدكتور حسن ، والقرار يقضى بمصاحبة مرافق، ولكننا لم نكن لنترك سارة وحدها ، فتطوعت أنا بشراء تذكرتها ، وحوّلت بعض النقود إلى فرنكات فرنسية ، وبَدَأَتْ الإجراءات يوم الخميس ٢٦ نوفمبر . وكان ظنى هو أننى سوف أعالج بالإشعاع الذرى (كوبالت) فقط ، وهى عملية ابتكرها أستاذ فرنسى وتتضمن غرس سلك معدنى مشع فى المنطقة المصابة حتى تقتل الخلايا السرطانية وما حولها أيضًا ، وهى عملية جراحية سهلة ، ولا يستغرق شفاء المريض إلا أيامًا معدودة ، وكان الذى يقوم بالعملية تلميذ الأستاذ الذى ابتكرها ، واسمه المسيو جيربوليه .

لو وصفت مشاعرى لخرجت عن الحيّز المتاح للكتاب ، ولذلك سأكتفى بالإشارة إلى ما أحسسته من سخرية القدر (irony of fate) التى تمثلت فى إصابتى فى لسانى وهو مصدر رزقى ('أكل عيشى') وما عملت طيلة عمرى على 'تنميته' ! قالت لى عفاف المنوفى - رحمها الله - إن حالات سرطان اللسان لا تمثل إلا واحدًا فى المائة من جميع حالات الإصابة بالسرطان ، ولكنها أصابتنى ! والحق أننى لم أكن خائفًا من الموت ، فلقد درجت منذ الصبا على تقبله فى إطار الإيمان الفطرى ، وأصدق ألوان الإيمان هو الذى ينبع من أعماق النفس، من مناطق يتجاوزها الوعى ولا يتساءل عنها ، سواء شبهناها بأعماق المحيط أم بحلكة الليل الدامس فى مجاهل السماوات ، ثم يبزغ فيعم نوره فى الوعى ، ويؤكد للإنسان ما قد يصل إليه الوعى من إدراك لحياته الباطنة ، ولذلك كنت ولا أزال أعتقد أن لون الإيمان البسيط

وهو الإيمان غير المتسائل ، أو ما يسمى فى تراثنا 'بإيمان العوام' ، أصدق من إيمان الفلاسفة الذين يستخدمون شواهد الحواس فيما يسمى بالاستدلال المنطقى وصولاً إلى حقيقة الروح ، فالإيمان غير المتسائل يأتى بيسر لمن درجوا على تدريب أرواحهم على التسليم باللغز الأكبر ، لغز الوجود والروح معًا ، فظفروا بالسكينة ، واطمأنوا إلى المصير ، وتجلى ذلك كله فى سلوكهم ، وإنك لترى فى سلوك مثل هذا المؤمن قناعة ورضًا ، وابتعادًا عن الأذى ، وابتسامًا فى وجه المحن ، وصبرًا عليها ومكابدة لها ، فلديه ما يمكن أن أسميه 'بالروح الحية' - وذلك ما كنت أحس بضياعه من مجتمعنا الجديد ، وإن كنت أراه ماثلاً حيًا فى بعض من عرفت وأحببت ، ممن يقولون الحمد لله على كل حال ، ويمسكون عن الخوض فى الغيب ، ويخلصون فى العمل ، ويقبلون على مساعدة الغير ، فالروح التى بثها الله فيهم تمتد فيما بثه من روحه فى الآخرين .

وذهبت يوم الخميس ٢٦ نوفمبر إلى حفل زفاف سحر الخطيب ، ابنة ابن خالتى ، مع أميرة وعزة عنانى ، ابنتى أخى ، وجلسنا إلى مائدة جمعت بيننا وبين محمد الخطيب ابن خالتى والدكتورة أميرة عجمية ابنة خالتى الأخرى ، ولم يكن أحد يعلم بسر مرضى ، وكانت المفارقة بين حفل الزفاف أو ' الفرح' وبين حزنى الدفين تُشيع فى نفسى تأكيدًا لما أسميته التسليم باللغز ، فها أنذا أقف على أعتاب الحياة الأخرى ، ومن حولى توشك حياة جديدة أن تولد ! لم يكن يحزننى غير ترك ابنتى ، فهى فى السنة الرابعة فى كليتنا ، ووجدتنى - رغمًا عنى - أتذكر وفاة فهيمة ابنة خالتى قبل أعوام بالمرض نفسه ، ووفاة مجدى وهبة فى العام الماضى بالمرض اللعين ، ثم توقفت وانتابتنى رعشة فانسحبت مع الفتاتين وعدنا إلى منازلنا .

وانتهت إجراءات سفرنا بسرعة ، فاتصلت بالأستاذ أحمد السودة ، صديق عمرى ، وطلبت مقابلته بصفة عاجلة ، وقابلته فى مساء السبت ٢٩ نوفمبر ، وقلت له فى السيارة إننى راحل بعد غد ، وقصصت عليه تفاصيل ما فعله سمير من أجلى ، وكان لابد لى أن أفضى بالسر إلى أقرب الناس إلىّ ، وعدت إلى المنزل - بعد أن ودعت والدتى دون أن أطلعها على الحقيقة .

كان سمير سرحان قد اتصل من مكتبه بالمستشار الطبى (الدكتور مصطفى) فى باريس ، وأرسل إليه تفاصيل الحالة ، كما كلمتُ رفعت لطفى فى الأمم المتحدة واعتذرت له عن المجئ فى يناير إلى جنيف ، وقلت له الحقيقة ، فأجابنى بكلمات كالبلسم الشافى ، وهو من القلائل

الذين يعرفون معنى الإيمان ، وقال إن شاء الله تخرج من باريس إلى جنيف ! وعندما ذهبت فى صباح الأحد إلى مكتب سمير لآخذ التذاكر وجوازات السفر كانت الدموع فى أعين الجميع ، ودهشت لهذا الوداع الصامت ، وتجاهلت أحزانهن (فالجميع نسوة وفتيات) وعدت إلى المنزل ، وفى الصباح أغلقنا الشقة واتجهنا فى سيارة سمير سرحان إلى المطار - وكان ذلك أول ديسمبر .

وعندما وصلنا كان الدكتور مصطفى عند باب الطائرة .

الفصل الرابع



كنت أزور باريس لأول مرة ، ولكن العواصم الأوروبية تتشابه فى الكثير ، فلم أشعر بغربة كبيرة والسيارة تتهى بنا إلى 'بيت مصر' وهو بيت ضيافة (يتقاضى أسعارًا أقل من أسعار الفنادق) فى أطراف باريس ، حططنا فيه الرحال ، وكان موعد مقابلة الطبيب يوم ٣ ديسمبر، وسوف أوجز ما حدث فى الأشهر الخمسة التى قضيناها فى المستشفى ، فألمح إلى أهم أحداثها إلماحا . كان المفترض أن أعالج بالإشعاع فقط ، ولكن الأطباء اكتشفوا أن المرض قد استشرى فى اللسان ، ولابد من عملية جراحية لإزالته ، وكان من بينهم طبيب يقول بإمكان الاكتفاء بالإشعاع فتعلقت بأهداب الأمل الذى برز لى ، ولكن مسيو شاسانّىّ أكد لى ضرورة العملية ، فالمرض لم ينتشر ، والأفضل أن نتخلص من الخلايا الفاسدة . وأذكر أننى كنت أردد له محمومًا لا أريد أن أفقد صوتى ! وكان يؤكد لى أننى سوف أستطيع الكلام ، وإن كنت سوف أجد صعوبة فى إخراج بعض الحروف الساكنة (الصامتة) . كانت العملية الأولى استكشافية (يوم ٧) والثانية جراحية (يوم ١٥) وأذكر أننى أفقت آخر النهار لأجد جسمى موصّلا بأنابيب وأسلاك ، وهناك أبخرة تتصاعد فى آخر القاعة ، حيث رقد الآخرون، وشاهدت فتاة باهرة الجمال تبتسم كأنها ملاك وسط الأبخرة !

وجاءتنى الفتاة بورقة كتبتها نهاد وسارة قبل انصرافهما ، وفى الصباح وصلتا ، وكانت سارة تعمل 'ترجمانًا' لى مع الفرنسيين ، وكنت مشفقًا من وجودها معى وهى فى الليسانس ،

ولكنها قالت إنها تستذكر دروسها ، والحمد لله على أن نظام العمل بالفصلين الدراسيين لم يكن قد بدأ تطبيقه ، وفى غداة يوم العملية كانت ممرضتان تتحدثان معًا عن بعض المحاليل والأنابيب ، وشجعتانى على النزول من الفراش والوقوف على قدمىّ ، وسمعتهما تتحادثان بلغة تصورتها عربية ، وربما كان تأثير المخدر لم يزل بعد ، ولكننى أقسم إننى سمعت حوارًا بالعامية المصرية ، بل إننى تعجبت من حديث الفرنسيات بلغتنا ، وبعد نحو أسبوع أزالت إحداهما غرز الجرح من صدرى (إذ كان الجراح - المسيو راجى Ragué) قد اقتطع عضلة من الصدر ووضعها فى مكان الأنسجة التى أزالها من اللسان لاستكماله -reconstruc) (tion، ثم أزالت غرز الجرح من فمى ، وما إن حل الكريسماس حتى أصبحت قادرًا على الحركة والسير فى دروب المستشفى ، حاملاً معى أنابيب التغذية .

ولن أفيض فى النكسات المعتادة ، إذ اكتشف كبير الجراحين وجود خراج فى مكان العملية دون أن يكون هناك تلوث ، بل ارتفاع مفاجئ فى درجة الحرارة ، فأجرى لى عملية أخرى ، ولكن الله سلّم وانقضى عام ١٩٩٢ وأنا بعد فى قيد الحياة ، وإن كان التقدم بطيئًا ، فالخراج كان لا يزال قائمًا ، والجرح كبير لم يلتئم ، والورم فى مكان العملية ضخم ، وأنا محروم من الكلام لأن آلة الكلام معطلة ! كنت أتفاهم مع الأطباء والممرضات كتابةً ، إذ جئ لى بلوح وطباشير خاص أكتب عليه ما أريد - بالفرنسية طبعًا - فأخطئ ، لأن السماع غير الكتابة ، وكان جهاز التليفزيون فى الغرفة لا يذيع شيئًا بغير الفرنسية ! وكان من الطبيعى أن أتأمل معنى الكلام والنطق وصلة ذلك بالفكر ، وسرعان ما شعرت برغبة فى الكتابة ، فأتتنى نهاد بكراسات وأقلام وعدت إلى الكتابة !

وفى أوائل يناير أزال الجراح جهاز التنفس من القصبة الهوائية وسمح لى بالكلام حتى أدرّب لسانى بعد التئام الجرح على الحركة وإخراج الأصوات التى أستطيعها ، وكانت أصوات العربية سهلة لأنها فى معظمها تقع فى النصف الخلفى من الفم ، وأما الفرنسية والانجليزية فكانت تتطلب استخدام مقدم الفم ، وهو ما كان معطّلاً إلى حد ما ، ولن أنسى فرحة نهاد حين جاءتنى بعد إزالة الجهاز المذكور ، وسألتنى عن حالى فقلت لها بالعربية "الحمد لله !" كانت تكاد تتواثب فرحًا .. "انت بتتكلم ! انت بتتكلم !" وبعد ثلاثة أيام بدأ علاج تكميلى بالإشعاع لمدة خمسة أسابيع تنتهى فى ٢١ فبراير ، وكانت نهاد سوف تسافر إلى أمريكا فى

مارس وإبريل فعادت إلى مصر فى فبراير للاستعداد للسفر ، وكان على سارة أن تعود إلى مصر للدراسة فعادت وكانت تقيم مع منى سامى صديقتها ، فأصبحت وحيدًا .

وفى عزلتى تلك كتبت ثمانى مسرحيات من فصل واحد ومسرحية طويلة هى السادة الرعاع (وعندما عادت نهاد من أمريكا قرأتها معى واقترحت تعديلات أجريتها) وكنت فى مطلع عام ١٩٩٣ منكبًا على الكتابة انكبابًا نادرًا إلى جانب الرد على خطابات الأصدقاء ، وقد اكتشفت فى تلك الأزمة الطاحنة حب الناس ، وهى مزية أثمن من جميع ما يهبه الله لعباده ، إذ زارنى ذات يوم ودون موعد الأستاذ سمير عفيفى ، رئيسى السابق فى منظمة الأغذية والزراعة بروما ، وكان قد سمع بمرضى ، وكثير من المصريين الذين لم أكن أعرفهم ، بعضهم أطباء وبعضهم عاملون فى باريس ، ولم تكن غرفتى تخلو فى الصباح من الزوار ، كما كان الأصدقاء يحادثوننى من مصر بالتليفون كل يوم ، كما كنت أتصل تليفونيا بأصدقائى فى مصر ، وكان من عادتى أنا وسمير وزوجتينا أن نزور الدكتور جرجس الرشيدى (أستاذى القديم) وزوجته الدكتورة أنجيل يوم ٧ يناير 'للتعييد' وفق العادة المصرية ، وعندما حل الموعد اتصلت بالدكتورة أنجيل للتعييد ولو تليفونيًا ، فذهلت لسماع صوتى بعدما تردد عن مرضى وصاحت ''يعنى أزغرت ؟!'' وكانت تلك الفرحة تعدل الدنيا وما فيها .

وبعد انتهاء العلاج بالإشعاع كان المفترض أن يلتئم الجرح وأخرج من المستشفى ، ولكن الأطباء اكتشفوا أن سبب التأخر هو موت جزء من عظم الفك نتيجة جرعة الأشعة الزائدة ، وهو ما يسمى (osteonecrosis) فقرروا إجراء عملية أخرى يوم ١٥ مارس لقطع جزء من عظم الفك ، أجراها الجراح نفسه ، وإذ ذاك سمعت نصيحة ابنتى سارة ، وصرت أتناول مقادير ضخمة من فيتامين سى لتحفيز الالتئام ، وما إن حل أول مايو حتى عادت نهاد من أمريكا وبعد عشرة أيام التأم الجرح وسُمح لى بالخروج ، فخرجت يوم ١١ مايو ١٩٩٣ .

وأذكر يوم الخروج بوضوح ودقة ، فقد حزمت حقائبى وأسرعت دون أن يكترث بى أحد وناديت التاكسى الواقف بجوار المستشفى وأسعدنى أن أتفاهم معه بالكلام (لا بالكتابة) وسرعان ما كنت فى بيت المصريين فى شارع جورج بومبيدو ! وفُوجئَتْ نهاد بخروجى ، وبأننى والحمد لله قادر على الحركة والكلام ، فحجزنا فى طائرة يوم ١٣ ، وقضينا يوم ١٢ كله فى التجوال فى باريس ، فكان من أسعد أيام حياتى ، إذ زرنا المكتبات واشترينا العديد من الكتب،

وسرنا الهوينى فى الشوارع التى كنت أحلم بالسير فيها ، وجلسنا فى مقهى شربنا فيه العصير بعد أن أصبحت قادرًا على تناول السوائل ، بل والآيس كريم أيضًا !

ووجدنا الترحيب فى المطار ، وكان الجرح - رغم التئامه - ما زال ينزف ، فاشتريت من الصيدلية بعض الضمادات ، وحادثت الأصدقاء بالتليفون ، وزارنى الكثيرون ، وأحسست كأنما عدت إلى الحياة من جديد ! وعندما قلت لسمير سرحان فى منزلنا - "ولكن وداعًا للتليفزيون !" قال لى "ولكن مرحبًا بالكتابة !" وكانت تلك الكلمات هى شعار سنواتى اللاحقة !



لا يحب أحد أن يتكلم أو يسمع عن المرض ، فهو بمثابة تعطيل للحياة ولا يكاديعتبر جزءًا منها، ولكن المرض حقيقة تتفاوت حدة تأثيرها من شخص لآخر ، وأما من يزعم أنه فى تمام الصحة والعافية ولا يأبه للمرض فهو فى الحقيقة يولى صحته الرعاية الكاملة ، بل أحيانًا ما تشغله هذه 'الرعاية' عن عمله ! وكان الدرس الذى خرجت به من تجربة المرض والعمليات الجراحية المتوالية هو أننى قد أصبحت فى الرابعة والخمسين ولم أحقق ما أصبو إليه من أحلام، فشغلت نفسى بالترجمة لكسب المال (الأمم المتحدة مثلاً) أو بالتدريس وإرهاق البدن والعقل فى نشاط لا يريده الطّلاب ، فهم ليسوا طُلاّب علم بل طلاّب شهادة ، أو بمشروعات ترجمة مبتسرة (الفردوس المفقود ومسرحيات شكسبير) أو بالترجمة إلى الانجليزية وهى لا تفيد إلا الأجانب - أو بكتابة المسرح دون الوصول إلى مكانة مرموقة فى مناخ يتطلب التفرغ له كل التفرغ ، أو بكتابة مقالات فى الصحف لا يقرؤها إلا أقل القليل ! التشتيت ! هذه هى آفة العمل فى مجالنا ، ومن ثم اتخذت عدة قرارات رسمت لى طريق عمل أوضح فيما بقى لى من عمر.

كنت بعد العودة أتطلع أولاً إلى إعلان العودة والشفاء ، وكانت وسيلة ذلك هى الكتابة فى الصحف ، فبدأت أكتب مقالات عن التيارات المعاصرة فى الثقافة الغربية ، فى صفحة الثقافة بالأهرام ، ولم أكد أنشر المقالة الأولى حتى جاءنى طلب من جنيف للمشاركة فى المؤتمر السنوى للمنظمة العالمية للأرصاد الجوية ، وحاولت الاعتذار ولكن ميشيل الحينى ، المشرفة

على قسم الترجمة ، أصرت فى التليفون على حضورى ، وكان ذلك فى يونيو ١٩٩٣ وجرحى ما زال بضماداته ! وتلقانى الزملاء فى جنيف بترحاب شديد ، وكان محمود يونس من وراء استدعائى للعمل ، ورحب بى هو وأسرته ترحيبًا شديدًا ، وفكرت أن أشكر رفعت لطفى على كلماته اللطيفة فأرسلت إليه ورقة أشكره فيها مع لطفى عبيد زميلنا المترجم ، وإذا به يدخل علينا الغرفة قادمًا من مقر منظمة الأمم المتحدة بعد أقل من نصف ساعة ! واصطحبنى إلى البوفيه حيث شربنا القهوة وحكيت له عن مرضى وشفائى ، فدعانى لمشاهدة عرض موسيقى (وهو من هواة الغناء الأوبرالى ويمارسه فى أوقات الفراغ) وسهرنا أنا وهو وزوجته ماجدة دوس ، زميلتى القديمة ، وتبادلنا أطراف الحديث ، ثم تناولنا العشاء معًا .

وفى الصيف تماثلت للشفاء تمامًا فوضعت برنامج العمل الحقيقى وهو ترجمة شيكسبير، فبدأت باستكمال الترجمة الشعرية لروميو وجوليت ، وانتهيت منها فى سبتمبر ، ودفعت بها إلى المطبعة ، ونشرت مسرحياتى القصيرة الثمانية مع المسرحية الطويلة التى كتبتها فى باريس (فى المستشفى) ووضعت لنفسى مهمة تالية وهى استكمال ترجمة الفردوس المفقود ، فالوقت وقت العمل ، ولم أعد قادرًا على ضياع المزيد منه ! كانت مقالاتى فى الأهرام (فى صفحة الثقافة) تقول إننى شفيت ، وكان الورم قد خفّ ، ولكن تجربة مواجهة الموت فى تلك العزلة فى باريس جعلتنى عزوفًا عن الحياة الاجتماعية ، فأمسيت أرى فيها ضياعًا وإهدارًا مؤسفًا للوقت ، ولم يكن لسانى قد تدرب التدريب الكافى على الكلام ، فوجدتنى ميالاً إلى الانفراد بنفسى ، وكان عبد العزيز حمودة يحاول إخراجى من عزلتى ويشجعنى على العودة إلى الحياة، مؤكدًا لى أنه ينتوى السفر فى إعارة جديدة ، وأننى يجب أن أتولى رئاسة القسم ، فهذا من حقى لأننى أقدم الأساتذة إذ لم يعد بالقسم إلا أستاذان عاملان ، وكنت أستمع إليه وأحاول تطويع نفسى لمثل ذلك الاحتمال ، وذات يوم جمعة وقد بدأ العام الدراسى، جاءنى اتصال تليفونى من رفعت لطفى، رئيس القسم العربى بالمقر الأوروبى للأمم المتحدة فى جنيف، وقال لى إنه يريدنى للعمل لديه ستة أسابيع ، من ١٨ أكتوبر حتى آخر نوفمبر ! كانت مفاجأة مذهلة، فقلت له إننى لابد أن أستأذن العميد ، واتفقنا على أن أرد عليه يوم الاثنين ، وفعلاً كان العميد – زميلى وصديقى العزيز الدكتور حمدى إبراهيم – العلامة النحرير – أكثر من 'متفاهم' فوافق على سفرى وبدأت الإجراءات ، وحمودة غاضب لأنه لا يريد أن يترك القسم لأحد غيرى !

وسافرت إلى جنيف يوم الأحد ١٧ أكتوبر ١٩٩٣ ، وكان محمود يونس قد اتفق مع زميلنا المترجم لطفى عبيد على أن أقيم فى شقته أثناء سفره ، وأن أدفع أنا الإيجار وتكاليف التليفون بالطبع ، وهكذا وجدت مكانًا دافئًا فى شارع متفرع من شارع 'لوزان' بوسط جنيف يتيح لى حرية الحركة بدلاً من الفنادق ، واصطحبت معى نصّ الفردوس المفقود ، وما إن حططت الرحال وبدأت العمل فى الأمم المتحدة حتى بدأت ترجمة الكتاب السابع من تلك الملحمة نظمًا ، بعد أن ذقت حلاوة النظم فى ترجمات شيكسبير السابقة ! ولم أكد أترجم 'المدخل' أو الديباجة (بلغة القانون) أى The preamble حتى اكتشفت أن النظم كان يقتضى من الحرية فى ترتيب الكلمات وتركيب الجمل ما يخرج بى أحيانًا عما ارتضيته لنفسى من دقة فى نقل ملتون ، فوضعت الكتاب جانبًا ، وربما كان جهد الترجمة المنظومة أكبر مما كنت أتحمل ، فاكتفيت بقراءة الكتب الجديدة التى اشتريتها عن نظرية النقد الحديثة ، واستطعت فى شهر واحد أن أقرأ أكثر من عشرة كتب - كانت تمثل لى جوهر ما قيل فى هذه النظرية .

وكان أهم ما لفت انتباهى فى تيار هذه النظرية هو ما يعتبره الغربيون والشرقيون ، على حد سواء ، تحررًا أو تحريرًا للإنسان من 'ثوابت' الماضى ، وعلى رأسها الدين ، وكانت جاذبية ذلك التحرر لا تقاوم أو لا تكاد تقاوم عقلانيًا ، فالفيلسوف الفرنسى جاك دريدا ، الجزائرى المولد ، يحاول أن يهدم أسس الفكر الإنسانى كله استنادًا إلى أنه قائم على الإحالة إلى 'ثوابت' (وهو يسميها 'مراكز') تتنافى مع المنطق ومعطيات العلم الطبيعى ، مثل ما يقوله عن افتراض وجود 'حقيقة' أو 'إله واحد' أو 'روح' وما إلى ذلك مما بناه الفكر الإنسانى على مر القرون ، وقد جَرَّتْهُ محاولة الهدم (أو التقويض أو التفكيك) إلى رفض جميع المدارس النقدية القائمة باعتبارها تستند ضمنًا إلى ما يسميه الإحالة إلى ثوابت خارج 'النص' أو خارج اللغة . ووجدت أن ما يقوله يتناقض مع ما أحسسته وما رأيته بعين البصيرة فى باريس ، وأنا سهران أتأمل المدينة النائمة مع ليل الشتاء الطويل ، وما أدركته عن حقيقة الدين الذى لا يدركه الإنسان إلا بمنطق الروح ، لا بمنطق الحواس ، فللإنسان روح - قد يُطلق عليها 'الوعى' أو 'النفس' بل قد يطلق عليها 'العقل' - على نحو ما يفعل زكى نجيب محمود - ولكنها روح تختلف عن الحياة البيولوجية ، لأنها تتعلق بالطاقة الإبداعية والفردية التى يتميز بها الإنسان عن سائر الحيوان ، ومهما كانت التسمية التى نطلقها على الروح فنحن

نتعرف عليها بالاستبطان - وهو مذهب كارل جوستاف يونج - أو بمظاهر السلوك ، وهو مذهب جلبرت رايل - أو بحياة الفكر الحافلة ، وهو المذهب الذى نشأ عند ديكارت وتطور عند الكثيرين ممن طوروا نظرية الربط بين الفكر والوجود .

ومصدر الخلط فى مفهوم الدين يرجع ، كما تُبَيِّن كارين أرمسترونج ، إلى الخلط بين منطق العقل (الذى يعتمد على الحواس) ومنطق الروح الذى يتجاوز الحواس ، وأهم ما يتجلى فيه هذا الخلط هو عدم دقة النظر إلى الشعائر الدينية ، إذ يراها العامة مرادفة للدين ، ولكنها لا تعدو كونها تعبيرًا رمزيًا عن التسليم بمنطق الروح ، وهو المنطق الذى اهتدى إليه الإنسان بفطرته منذ الأزل ، أى قبل الأديان السماوية التى فصّلت القول فيه تفصيلا ، وهو منطق يحتاج إلى جهد واع لتنميته ، فإذا مارسها الفرد دون نشاط روحى عميق يكون قد أفرغها من معناها ، وآفة مجتمعنا إذن ذات شقين ، الأول هو الخلط بين منطق العقل ومنطق الروح ، بمعنى قياس ما ينتمى إلى أحدهما بمقياس الآخر ، والثانى هو حصر الدين فى الطقوس والشعائر ، دون 'تنشيط' لمنطق الروح فيها .

وانتهيت من دراستى لتلك الفلسفة الحديثة إلى أنها تمثل اتجاها بالغ الخطورة ، فالعلم الطبيعى الحديث منذ نشأته فى القرن السابع عشر فى أوروبا ، وبالصورة التى انتهى إليها فى القرن التاسع عشر ، كان يمثل اكتشافًا لمنطق العقل دون أن يلغى أو يبطل أو ينفى منطق الروح، وأما هؤلاء فيريدون ذلك والاكتفاء بمنطق العقل من الاستقراء والاستدلال والبحث والتجريب الذى لا يتجاوز الحواس ، فكأنما بلغ العلم الطبيعى ذروته ولم يعد فيه مجال للتقدم! ولكننا حتى إذا افترضنا الوصول إلى الذروة فلن يكون معناها نقض منطق الروح ، فالإنسان ليس كيانًا ماديًا يخضع لقوانين منطق العقل القائم على شهادة الحواس فقط ، بل يجمع إلى منطق الشهادة منطق الغيب ، وما أكثر المغيبات فى النفوس والأرواح ، مهما اجتهد علماء النفس فى حل ألغازها !

كان من أخطاء أصحاب الفكر الفلسفى الحديث (وخصوصًا الفيلسوف البريطانى إير Ayer)النظر إلى الإنسان باعتباره ظاهرة طبيعية ، وإلى تحليل سلوكه وفكره من وجهة نظر الحواس وحدها ، وهم يخطئون بذلك خطأً منطقيًا لا يُقبل حتى من وجهة نظر منطق العقل ، قائلين إنه ما دام الوجود حادثًا فلابد أن ينتهى إلى فناء ، والعلم الحديث - منذ أينشتاين - ينكر أن الوجود حادث ، بل هو قديم ، حتى إذا اقتصرنا على صورته المادية المدركة ، بل هو

يؤكد أن هذه الصورة شكل من أشكال الطاقة التى لا تفنى ولا تُستحدث ، فإذا تجاوزنا مساواة الإنسان بكيانه المادى ، أى إذا أقررنا بوجود 'نفسى' أو 'روح' أو 'وعى' بل 'ولا وعى' - وهو ما أصبح العلماء على امتداد القرن العشرين يُقِرُّون به - فسوف يصعب اعتبار الإنسان ظاهرة مادية ، أى ظاهرة لا تخضع إلا لقوانين الحياة البيولوجية التى تخضع لها سائر الكائنات الحية ، ناهيك بالجماد ! وهذا ما جعل بعض أرباب الفلسفات الشرقية فى آسيا يفترضون قدوم الروح من عالم آخر ، فالإنسان بفطرته يعرف أنه غير حادث ، وإن كان وجوده الأرضى حادث ، وأما الأديان السماوية فتقول إن الروح 'نفخة' من روح الله ، فهى أزلية وأبدية معًا ، ومن تتفتح بصيرته على إدراك الروح لابد أن يُسلّم بأن لها منطقها الخاص، وهو وحده الذى يهديه إلى أن وجوده الروحى غير حادث ، وإن فنى الجسد المادى وتلاشى .

وكنت اشتريت من جنيف شرائط ڤيديو للبرنامج التليفزيونى الشهير عن الحيوانات والنباتات (٣٢ حلقة) الذى يقدمه العلامة ديڤيد أَتِنْبَرَهْ (David Attenborough) أخو المخرج السينمائى ريتشارد ، والذى يفسر فيه حياة الكائنات على الأرض تفسيرًا ماديًا محضًا، يقوم على النظريات البيولوجية المعروفة من توافق الكائنات مع بيئتها ، وتفسير كل ظاهرة حيوية فى ضوء الحاجة أو الضرورة ، وقد تابعت الحلقات كلها وخصوصًا شريطًا خاصًا عنوانه الحياة على الأرض **(Life on Earth)** طوله ساعتان ، يشرح فيه نشأة الحياة كما يتخيلها على الأرض استنادًا إلى مبدأ المصادفة ، قائلاً إن عددًا معينًا من العوامل تصادف اجتماعه على وجه الأرض فى الماء أولاً ثم على اليابسة ثانياً أدى إلى نشأة الكائنات الدقيقة الحية ، ولكنه يعجز عن تفسير التحول من حالة الجماد فى العناصر الكيميائية التى اجتمعت لتشكيل الكائن الحىّ الأول إلى حالة الحياة بمظاهرها المعروفة من تَعَضْوُن (أى تكوين أعضاء متعاضدة) وتكاثر بالانقسام ، وتنفس وغذاء وتفاعل مع البيئة ، فهو لا يقدم إلا عبارة موجزة لشرح ذلك قائلاً : (Somehow there was life) أى "جاءت الحياة على نحو ما" - وهى عبارة تشى بالعجز عن تفسير ما حدث حين دبّت الحياة - وإن تكن الحياة البيولوجية وحدها - فى الجماد! وفى هذا العجز يكمن التسليم باللُّغز ! هناك لحظة فى التفسير المادى لنشأة الحياة يتحول الجماد فيها - وفقاً لنظرية التطور - إلى كائن حىّ ! ونحن إذا سلّمنا بصدق هذه النظرية فيجب علينا ، طبقاً للمنهج العلمى الحديث ، أن نسلم بإمكان تكرار تلك اللحظة ، فالمنهج العلمى الحديث ينص على أن النظرية العلمية لا تكون

صحيحة إلا إذا أمكن تطبيقها فى كل حالة ، فنظرية تمدّد المعادن بالحرارة نظرية صحيحة لأننا نستطيع تطبيقها فى كل حالة ، ولكن تلك اللحظة المفترضة لم تتكرر ولا يمكن تكرارها ، ومن ثم فهى تظل قائمة فى مجال الافتراض الذى لا يمكن إثبات صحته ، فهى لم تتكرر فى الطبيعة ولا يستطيع الإنسان أن يرصد تكرارها أو أن يُحْدِثَها فى المختبر (المعمل) أو فى الطبيعة ! فالعلم الطبيعى يقول إن الحياة لا تأتى إلاّ من حياة ، وأما الحياة الأولى فمن المحال القطع فيها بمعطيات العلم الطبيعى الحديث، بل إن أقصى ما يستطيعه العالم هو افتراض أن الحياة قد دبّت على نحو ما فى الجماد - وهو افتراض لا ينفى وجود قوة عليا وهبت الجماد حياته ، ما دامت الطبيعة عاجزة عن تكرار تلك المعجزة وما دام الإنسان حائرًا فى تفسير حدوثها - ناهيك بتكرارها !

وفى الشرائط الأخرى التى يقدم فيها 'أتنبره' ما يسميه بصعوبات الحياة (**The Trials of Life**) يحاول جاهدًا تفسير ظواهر حياة الكائنات الحية فى ضوء 'محاولات' تلك الكائنات أن تبقى فى قيد الحياة وأن تتكاثر ، أى الجهود التى تبذلها للتغلب على صعوبات العيش ، وهى كائنات لا عقل لها بالمعنى المفهوم عند الإنسان ، فبعضها دقيق (ميكروسكوبى) لا رأس له ، ولا مخ ، وبعضها لا رأس له تذكر ، مثل النمل الأبيض (**ter-mites**) الذى يبنى بيوتاً ضخمة ، تشترك فى بنائها الملايين من الحشرات ، ولا يزيد حجم 'مخ' هذه النملة عن حجم حبة الرمل الواحدة ، ويقيم بعض أنواع النمل نُظُمًا زراعية (**ag-ricultural systems**) - على حد تعبير 'أتنبره' - تعجز عن بنائها عقول أذكى البشر ! وتتعاون الحشرات فى العمل والتنظيم بدقة يسلّم «أتنبره» باستحالة تفسيرها تفسيرًا علميًا قائلاً :

"But how they do it, we have not even begun to understand"

أى ''أما كيف تفعل ذلك ، فلم نَخْطُ ولو خطوة أولى فى طريق تفهمها'' وهو يقف عاجزًا أيضاً عن تفسير ما أسميه بالجمال فى الطبيعة ، وتلك قضية كبرى ، بل القضية التى شغلتنى وتشغلنى حتى الآن !

العلماء يقولون إن الجمال صفة ذاتية ونسبية ، أى إن الجمال هو ما نحس أنه جميل ، وإنه يتفاوت وفقاً لنظرة الرائى ، فما يراه البعض جميلاً قد يراه البعض قبيحًا ، وما يراه البعض فائق الجمال قد يراه البعض الآخر متوسط الجمال ، ومحاولة بعض العلماء وضع

قواعد أو مبادئ لتحديد عناصر الجمال ، مثل التناسق والتجانس والتناسب والتناغم وما إلى ذلك بسبيل ، محاولة فيها نظر ، فلقد نشأت مدارس نقدية حديثة تطعن فى هذه الأسس والمبادئ ، ووجدنا بعض المذاهب تدافع عن مبادئ أخرى تتناقض مع ما ورثناه كله وتكاد تنكره، وما إلى هذا الحديث قصدت ، ولكنى أعنى أن 'أتنبره' يعجز عن إقامة أى علاقة بين نظريته القائمة على ضرورات الحياة والبقاء والتكاثر وبين وجود هذا التنوع البديع فى ألوان الكائنات الحية ، وفى أشكالها وأحجامها وحركاتها فهو يقف أمامه حائرًا ، مستشهدًا بآراء الفلاسفة والعلماء الذين ينسبون كل شىء إلى الطبيعة ، كأنما هى القوة العليا التى يواجهها الإنسان ويحاول سبر أغوارها ، فينجح أحياناً ويفشل فى معظم الأحيان .

ولكن البقاء والتكاثر لا يتطلب بالضرورة كل ذلك التنوع البديع وكل هذه الألغاز - قطعاً - على نحو ما تشهد به حياة بعض الكائنات البسيطة العاطلة من الرونق والزخرف (بمعنى التعقيد والانسجام) ولا تتطلب الحياة البيولوجية تلك الدرامات الدائبة فى حياة الكائنات الحية ، ولا أستطيع أن أجد فى علم العلماء ما يبرر وجود الآلاف المؤلفة من أنواع السمك بألوانه الزاهية المنمقة ، ولا أجد فى فلسفة الفلاسفة الغائيين ما يفسر الروعة والبهاء الذى تكتسيه الطيور من حولنا بأنواعها التى لا تكاد تحصى ، وأما افتراض نسبة ذلك كله إلى الطبيعة فهو افتراض يقوضه التسليم بوجود اللغز الأكبر وهو اللغز الذى يشهد بوجوده عجز العلماء عن تفسير نشأة الحياة .

لا مناص من التسليم بوجود قوة كبرى تتحكم فى هذه الكائنات فتجعل النباتات قادرة على التهام بعضها البعض ، أو التهام الحشرات ، وهى نباتات لا عقل لها (تعريفاً) ، وهى قادرة على التحلى بألوان رائعة تجذب الحشرات حتى تنقل حبوب اللقاح إلى غيرها ، على نحو ما يبين 'أتنبره' فى سلسلة أخرى من الحلقات بعنوان الحياة السرية للنبات ، **The Secret Life of Plants** لا مناص من نسبة هذه القوة الكبرى إلى ما يتجاوز الطبيعة التى 'تتعامل' معها حواسنا ، وندرسها فى المختبرات ، ولا مناص من التسليم بمشاركتنا فى هذه القوة الكبرى بما لدينا من وعى ، فالوعى هو فى نظرى ما يميز الإنسان عن سائر الكائنات، وفى ظنى أنه الأمانة التى حُمّلناها ، وأبت الأرض والسماوات والجبال أن يحملنها وأشفقن منها .

لقد سبقنا فلاسفة الأديان إلى طرح هذا الموضوع وأفاضوا فيه ، واشتريت من جنيف كتاباً ضخمًا يقع فى عدة مجلدات عن تاريخ الفلسفة ، وعكفت عليه وإن لم أنته من قراءته إلا

بعد سنوات ، فوجدت الجميع قد عجزوا عن مواجهة اللغز ، وأقرب من عالجه هو أفلوطين ، وأتباعه ممن يُسموّن بأنصار الأفلاطونية الجديدة ، وتأثيره فى رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء واضح ، خصوصاً فيما يسمى بنظرية (العقل الكّلى) (أو The universal mind) ، وهى النظرية التى تفترض وجود عقل واحد للعالم بشتى صوره ، ولكن هذا الافتراض لن يصحّ إلا إذا افترضنا أيضاً تجاوز هذا العقل للصور المادية للحياة ، لأن نسبة العقل إلى المادة عسيرة المأخذ ، ومن ثم فلابد من افتراض 'العلوية' أو 'التعالى' (transcendental-ism) أى وجود ما يتجاوز معطيات الحواس ، وما تعجز الحواس إذن عن إدراكه ، وإن كان الوعى الباطن يدركه ، وأهمُّ ما فى هذا الإدراك التسليمُ بأنه لغز ، بل بأنه لغز الوجود الأكبر، فإذا كان منهج العلم الطبيعى عاجزاً عن تبيان حقيقته ، لأنه منهج لا يعترف إلا بالحواس ، فلابد من التوسل بوسائل معرفية أخرى ، والمعرفة - كما يقول الفلاسفة - لا تتوسل بمنهج العلم الطبيعى وحده ، فلها وسائل أخرى وأساليب متعددة ، يشهد بها تراث الإنسانية الزاخر.

وهكذا رفضت دريدا ومذهبه ، فهو يحاول أن يخضع دراسة الأدب والنقد لمنطق العلم الطبيعى ، وفى هذا خطأ منهجى لأن الفن لا يخاطب العقل وحده ، بل يخاطب المشاعر والحس الجمالى أيضاً ، وهى مجالات لا ينطبق عليها قانون العلوم الطبيعية ، فالدراسات الإنسانية تدرس الإنسان باعتباره كائناً حياً ، لا باعتباره من الجماد ، والجماد هو مجال دراسة الفيزياء والكيمياء ، ومعنى استعارة قوانين العلوم الطبيعية لتطبيقها فى الدراسات الإنسانية المزجُ خطأً بين منهجين متفاوتين ، ومحاولةُ إرجاع أسباب المشاعر إلى عناصر مادية معناها إنكار الحياة الإنسانية بمعنى الوعى ، ولقد كان ذلك من وراء نشأة علم 'الظاهراتية' (Phenomenology) الذى يجعل مجال عمله وعى الإنسان ، أى أنه يدرس الحقائق القائمة فى وعى الإنسان باعتبارها الحقائق الوحيدة ، وإذا كان فى هذا إحياء لمذهب الذاتية عند 'كانط' ، فلقد أسىء فهمه بالعربية بسبب اختلاط الترجمة العربية بمذهب آخر هو الظاهرية (Phenomenalism) أى الاقتصار على دراسة الظواهر التى تدركها الحواس وحدها . وللأسف فقد شاع تيار الدعوة إلى تطبيق منهاج العلوم الطبيعية فى العلوم الإنسانية بدعوى الاتجاه العلمى أو العلمية ، على نحو ما شهدنا فى الجامعة من كثرة ترديد كلمة المنهج العلمى بمعنى منهاج العلوم الطبيعية .

إننا نقف حائرين أمام لغز الوجود ، وكلما أنعمنا النظر فيه ازدادت حيرتنا ، لأن عقلنا تدرب منذ الطفولة على 'التعامل' مع معطيات الحواس ، وعندما انخرط الدكتور صمويل جونسون - الناقد الإنجليزى العظيم ابن القرن الثامن عشر - فى حوار مع أحد من يتعاطون الفلسفة ، وادعى الأخير أن الوجود نفسه أمر مشكوك فيه ، لأن إثباته عسير بالمنطق وتحدى الدكتور جونسون قائلاً : 'كيف تثبت أنك موجود؟' نهض الدكتور جونسون من مقعده وركل حجرًا بالقرب من المائدة التى كان يجلس إليها مع أصدقائه ، وكانت ركلة شديدة مدوية ، قائلاً ''أثبته هكذا !'' (I prove it thus) فأفحم الجميع ، ولكنه فى الواقع كان يؤكد النظرية العلمية المادية التى ولدت فى القرن السابع عشر وترعرعت فى القرن التالى ، ووصلت إلى ذروتها فى أواخر القرن التاسع عشر عندما أصبح التفسير المادى لجميع الظواهر مهما تكن هو المنهج العلمى الوحيد ، أو قل المنهج العلمى المقبول ، وكانت أوجه التقدم فى العلوم الطبيعية ، ومن بينها ، أو قل وعلى رأسها الطب ، إلى جانب المكتشفات والمخترعات الحديثة ، خير سند ودعم لذلك المنهج ، ولكن مولد علم النفس ، وخصوصاً مولد التحليل النفسى الذى أحكم صناعته سيجموند فرويد ، كان جرس إنذار نبّه العلماء والفلاسفة إلى وجود مناهج أخرى - أو على الأقل - إلى احتمال ألاّ يكون ذلك هو المنهج العلمى الوحيد !

وقرأت فى جنيف كتابًا كاملاً عن حياة فرويد بعنوان فرويد : حياة لهذا العصر (**Freud: A Life for Our Time**) كان قد صدر عام ١٩٨٩ من تأليف بيتر جاى Peter Gay ، ويقع فى أكثر من ثمانمائة صفحة ، وتوقفت طويلاً عند مفهومه للاّوعى (The unconscious) الذى كان يسمى العقل الباطن (The subconscious) وكيف طور نظرية أستاذه بروير Breuer ثم انفصل عنه ، مفضّلا وضع نظرياته الخاصة ، ودهشت لأن ما كان فرويد يرمى إليه من إنكار الدين قد أدى فى الواقع إلى إثباته بلغة العصر أى بلغة منهج العلوم الإنسانية الجديد ، وهو منهج الاستقراء والتأمل والتحليل ، لا بمنهج العلوم الطبيعية ، وهو منهج التجريب المعملى والمحاولة والخطأ وصولاً إلى إثبات صحة الفروض وتحويلها إلى نظرية عامة قابلة للتطبيق فى جميع الأحوال .

لقد نشأ التحليل النفسى فى كنف التنويم المغناطيسى ، وقد أدركت سر التسمية العربية التى ترجع نشأتها إلى العالم النمسوى مزْمر Mesmer المتوفى عام ١٨١٥ ، إذ كان يسمى القوة الباطنة فى النفس قوة الإنجذاب الحيوى (animal magnetism) وقد ترجمها آباؤنا

بالمغناطيسية الروحية أو الحيوية ، وعندما سادت مصطلحات التنويم hypnosis أو النوم ، وضع المعربون مصطلحاً جديداً يجمع بين كلمة التنويم وكلمة المغناطيس القديمة ، ولهم العذر فى ذلك إذ كان مزّمر يجهل طبيعة تلك القوة التى استعملها فى علاج المرضى ويظن أن لها علاقة بظاهرة المغناطيسية ، بل كان يضع فى غرفة الكشف الطبى وقاعة العلاج مغناطيسًا كبيرًا مزودًا بقضبان حديدية يتصور أنها تساعد فى التغلغل إلى النفوس ، ولكن فرويد توصل بعد جهود دائبة إلى حقيقة وجود تلك الأصقاع الخفية فى النفس (أو العقل mind) وكان يسميها The hinter-land أى البقاع الخلفية ، وخرجت من دراستى لكتاب آخر عن التنويم المغناطيسى (بهذا العنوان نفسه) إلى أن بحوث فرويد ، على ما بها من مظاهر المنهج العلمى الحديث ، أدت إلى الإتيان بما يستعصى على هذا المنهج نفسه ، وهو إثبات وجود مستويات للوعى تدق وتبتعد عنه حتى يمكن القول بأنها (لاوعى) أو بأنها تمثل وعيا من نوع آخر لا يمكننا أن ننسبه إلاّ إلى الروح ، وهى طاقة غير بيولوجية ، لا يشاركنا فيها غيرنا من الكائنات الحية.

ولقد تأكد وجود هذه المستويات الباطنة وتعددت أسماء العلماء الذين بحثوها فأفاضوا فى بحثها ، وطبقها ف. ل. لوكاس F. L. Lucas فى كتابه عن تدهور المثل الأعلى الرومانسى وسقوطه (**The Decline and Fall of the Romantic Ideal**) فأثبت أن الشعراء الرومانسيين يستقون إلهامهم من أعماق الوعى ، كما طوّر العلامة كارل جوستاف يونج (Carl Gustav Jung) هذا المفهوم بحيث أصبح لا يقتصر على الفرد بل يشمل الجماعة، وكان أن وضع نظرية الوعى الجماعى واللاوعى الجماعى ، ثم نظرية الأنماط الفطرية (archetypes) المعروفة ، وانتهى من بحوثه إلى أن وجود الروح يقطع بوجود الله، وهو ما جعل ' العلماء' يتهمونه بالتصوف بالمعنى العام أى بما يسمى (mysticism) ومعناه الحرفى الإيمان بوجود قوة روحية خفيّة ، وأما المعنى الاصطلاحى فهو يقترب من التصوف الدينى ، ومن ثم أصبح منبوذًا فى عصر سادته مناهج العلوم المادية .

وخرجت من ذلك كله وغيره إلى أننا أصبحنا نواجه أكثر من منهج علمى واحد ، وأن المنهج المادى القديم الذى لم يكن يعترف إلا بقوانين المادة التى 'تتعامل' الحواس معها ، بأسلوب الدكتور جونسون ، لم يعد المنهج الأوحد ، وأنه قد أصبح علينا أن نثق فى قدرة الفرد على التأمل الداخلى وصولاً إلى الحقائق التى يصعب على المنهج العلمى المادى أن يصل إليها ،

وقد يتخذ هذا التأمل صورة ''الإستبطان'' أى (introspection) ولكن الاستبطان وسيلة من وسائل عديدة ، منها تأمل الفن ، فلماذا ترانا نُسر أو نهتز لسماع الموسيقى ، ولماذا نبتهج لمرأى المناظر الطبيعية أو اللوحات الجميلة ، ولماذا نطرب للشعر الرائع ، ولماذا نسعد برؤية الرقص والمحاكاة فى الفنون التمثيلية ؟ إن تحليل الأعمال الفنية يقف عند خواص فن الصنعة، ولكنه يفشل دائماً فى تفسير علاقة فنون الصنعة بالسرور أو الطرب ! أى : لماذا نسعد بالاستعارة والتشبيه ؟ لماذا نسر عندما نقرأ أن الربيع الطلق يختال ضاحكاً ؟! لن تفلح شتى أساليب التحليل فى بيان أسباب السرور ، مهما يكن من حذق ''المحلل'' المحترف ! وعندما حاولت كارولين سبيرجون (Spurgeon) إرجاع السرور الذى ينتاب الإنسان عند سماع التعبير الاستعارى إلى إحساسه بالقوة الواحدة التى تجمع بين الكائنات جميعاً على مستوى بالغ العمق من مستويات الوعى ، كانت فى الحقيقة تقدم نظرة فلسفية قديمة عن أسلوبٍ أو منهج من مناهج النفس (أو العقل) الإنسانى ، وهو ذلك المستوى الذى لا نجد له فى اللغة إلا لفظ 'الرُوح' .

ونحن لا سبيل لنا إلى معرفة الروح ، بل إن الروح نفسها استعارة من الريح ، وهى استعارة فى العربية مثلما هى استعارة فى جميع لغات العالم القديمة والحديثة ، ونحن لا ندرك إلا آثارها أو ظواهرها - كما يشى بذلك عنوان كتاب هيجيل (Hegel) الشهير الذى يركز فيه تركيزاً شديدًا على الاستعارة ، والعنوان هو ما ترجم بالعربية إلى ظاهريات العقل أو (**Phänomenologie des Geistes**) ويخرج منه بما يسميه المطلق (The Absolute) أى ذلك الذى يمنح التوحد أو الوحدة ويبرز الحقيقة ، وهو فى ذاته الوحدة والحقيقة ، وإذا كان المعنى المباشر للمضاف إليه فى العنوان هو العقل فإن من المعانى المتصلة به والموحى بها معنى النفس أو الروح . والاستعارة هنا أساسية ، فنحن لا نستطيع التعبير بلغة تحيلنا دائماً إلى المادة إلاّ عن طريق إطلاقها على سبيل الاستعارة على ما لا نستطيع أن ندركه أو أن نفهمه ، ومن ذلك الروح بطبيعة الحال .

ولكن الحس الجمالى أو الفنى منهج من مناهج ، وهو - رغم أنه طاقة فطرية يتميز بها الإنسان عن سائر الكائنات - يحتاج إلى ما يسمى بالتنمية باللغة العربية المعاصرة ، وقد تتفاوت حظوظ البشر من هذه الطاقة ، ولكنها فى حاجة دائماً إلى الدُّربة والمران ، وكذلك الروح ، حيث تتفاوت حظوظ البشر من النشاط الروحى ، فهم دائماً فى حاجة إلى تنمية هذا

النشاط ، سواء كان ذلك عن طريق ممارسة الشعائر الدينية وذلك هو طريق العامة ، إذ تنهض هذه الشعائر - كما تقول كارين أرمسترونج فى كتابها معارك فى سبيل الإله (The Battle for God) - بمهمة تنشيط الإحساس بروح الوجود ووجود القوة العليا أو العلوية، أو كان ذلك عن طريق التعمق فى معنى الروح والوجود الروحى الذى يختلف فيه الإنسان عن سائر الكائنات ، وقد يتوسل الفرد فى سبيل ذلك بمنطق العقل والنفس معًا ، وهو الأفضل ، أو يزاول التأمل بأحد المناهج المتاحة له ، فيزداد نشاطه الروحى ، بمعنى يقظة النفس التى تهب الوجود معنى وتربط الموجود بسائر الموجودات .

لقد كانت الأسابيع التى قضيتها فى جنيف مع هذه الكتب وهذه التأملات فرصة أولى (تكررت فيما بعد) لتأمل ما أسميه 'المعنى' ، وقد يسميه البعض 'الدلالة' أو 'المغزى' ، ولكننى أفضل الكلمة الأولى على غموضها ، لأنها أقدر على إقامة الصلة بين الوجود المادى والوجود المعنوى ، وأقدر على إيضاح مرامى الإنسان فى سعيه الدائب لتحقيق غايات بعضها زائل وبعضها باقٍ ، وما يبقى منه إلا 'المعنى' ، أى قيمة ما علمه للناس ولنفسه، ومدى جهده فى تنمية الطاقة الفطرية التى ولد بها ، وهى الطاقة التى اختص بها من دون الكائنات كلها حية وجامدة .



وفى منتصف نوفمبر اتصل بى الدكتور محمد حمدى إبراهيم عميد الكلية ، وأنا فى جنيف ، وسألنى عن موعد عودتى وقال إن الدكتور حمودة قد سافر فى إعارة إلى دولة الإمارات العربية المتحدة ، ولم يعد للقسم رئيس ، وهو يتعرض 'لضغوط' وعليه تعيين رئيس جديد ، وأكدت له أننى قادم فى آخر الشهر ، وعندما وصلت وجدت قرار رئيس الجامعة آنذاك الدكتور مفيد شهاب فى انتظارى ! كان تعيينى رئيسًا للقسم معناه الانشغال بالأعمال الإدارية ، ولكن الدكتور حمودة كان قد انتهى من كل شىء فى الشهرين السابقين ، ولم يكن أمامى سوى التصدى للطوارئ ! ولما كنت لا أشارك فى التدريس ، فقد خصصت كل وقتى للقراءة ، وصح عزمى على إعداد معجم موجز للمصطلحات النقدية الحديثة ، فأعددت

البطاقات اللازمة ، والمقتطفات التى ترجمتها من أقوال النقاد ، كما عدت إلى معجم المختصرات الذى كنت بدأته قبل أزمة المرض ، فأكملته أو حاولت استكماله ، وكنت أستعين فى المراجعة والنسخ بالزملاء وطلاب الدراسات العليا ، وفى يناير ١٩٩٤ فازت ترجمتى الشعرية لروميو وجوليت فى معرض القاهرة الدولى للكتاب بجائزة أفضل كتاب مترجم لعام ١٩٩٣ وبتكريم السيد الرئيس للمرة الثانية (وكانت الأولى عام ١٩٨٦ عندما أنعم على بوسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى) .

قلت فى نفسى لقد عدت إلى الحياة ، وما إن انتهى المعرض حتى جاءنى سمير سرحان باقتراح مشاركته فى كتابة عرض مسرحى عن على باشا مبارك فأتيت بكتاب الدكتور محمد عمارة عنه ، وببعض ما كتبه المؤرخون الراسخون ، مثل الدكتور رؤوف عباس ، وقرأت وقرأت، وفى غضون شهرين اكتملت المسرحية ! وتعددت لقاءاتى مع سمير للتعديل والإضافة والحذف، ثم جاءنى عرض للسفر فى يونيو للعمل فى جنيف ، فطرت فرحًا ، واصطحبت معى هذه المرة مسودات مسرحية الدرويش والغازية ، وعندما عدت إلى مصر كانت المسرحية قد اكتملت .

وكانت فى صورتها الأولى تستوحى خيطًا فكريًا واحدًا هو الاحتيال (وكان النموذج الحى له هو شركات توظيف الأموال والنصب على المواطنين) وما شاع فى المجتمع من خداع - بصفة عامة - باسم الدين ، فإذا كان قد ظهر فى الستينيات مزايدون على الاشتراكية ، وكانت مواجهتهم يسيرة لأنهم - من منطق مزايداتهم نفسها - يقعون فى أخطاء علمية يسهل دحضها وكشفها ، فإن التصدى للمزايدين على الدين كان عسيرًا (ولا يزال) لأن المواجهة تأتى لصاحبها بتهمة الكفر وما أيسر أن ترمى بها خصومك فتتسبب فى إهداردمك ! والأخطر من ذلك أن يتحول الكلام والفكر إلى مناقشة مسائل دينية يندر أن يحيط المزايدون بدقائقها ، ويصعب حتى على من يتصدى لها أن يدحضها بالمنطق العقلانى ! فالتفسيرات تتكاثر بلا نهاية ، والنصوص المقتبسة فيما يسمى بالخطاب الدينى يصعب إثبات صحتها أو نسبتها إلى قائليها بل وتفسيرها إذا كانت صحيحة ! وعندما ذهبت إلى عبد الرحمن الشافعى المخرج العبقرى فى المسرح العائم بالجيزة (الذى أصبح اسمه مسرح النيل) وعرضتها عليه ، أعجبه النص وقرر إخراجه فورًا ، واطمأن قلبى إلى أن النص سوف يقدم حتى أتفرغ لنص جديد ، وتلك - كما سبق أن ذكرت - من آفات الكتابة المسرحية ، أى إن الكاتب لا يستطيع التركيز فى

نص جديد حتى ينتهى مما فى يده ، كأنما كان النص الذى لم 'يتحقق' على خشبة المسرح شبحًا يقض مضجعه ليلاً ونهارًا !

وسرعان ما تردد فى 'الوسط الفنى' وجود مسرحية جديدة لى فى الثقافة الجماهيرية، وبدأت التساؤلات ، والاتصالات والمقابلات ، وكنت آنذاك قد بدأت الخروج إلى المسارح ولو على نطاق ضيق خشية حدوث نكسة صحيّة ، وما كان أشد دهشتى حين ذهبت إلى قاعة منف القريبة من منزلنا لأشهد عرضًا لمسرحيتى المجاذيب تقدمه إحدى فرق الثقافة الجماهيرية ، وكانت معى زوجتى نهاد ، فوجدت 'حسن' المخرج بين المتفرجين ! وتبادلنا التحية المقتضبة بالأيادى ثم جاءنى بعد العرض وأعطانى رقم تليفونه وطلب منى الاتصال لأمر هام ! وقابلته فى اليوم التالى فقص علىّ قصة لم أكن أتوقعها !

قال حسن إنه كان قد استقر للعمل مدرسًا فى معهد للفنون المسرحية بإحدى البلدان العربية بعد ازدهار شركته ، وحاجته إلى 'عنوان ثابت' - و'مكانة اجتماعية رفيعة' - وكان ذلك 'المعهد' لا يزيد عن كونه قسمًا للإلقاء فى إحدى كليات الجامعة ، ولم يكن له مكان ثابت ، فهو - مثل مراكز اللغات والترجمة فى الجامعة - كيان معنوى فحسب ! ولكنه عمل على اجتذاب طلاب كثيرين من الذين يريدون العمل بالإذاعة والتليفزيون فى مسلسلاته وبرامجه الدينية ، وساعده منهجه 'الإسلامى' (على حد وصفه له) فى ترسيخ ما يسعى إلى إنشائه مما يسميه بالمسرح الإسلامى فاستطاع فى أقل من عام أن يثير ضجة إعلامية وإن كنا لم نسمع بها فى مصر !

واستمر حسن يحكى لى عن تفاصيل عمله وحياته فقال إنه قدّم ذات يوم برنامجًا إسلاميًا بالانجليزية فى تليفزيون ذلك البلد العربى ، وبعد أيام جاءته مكالمة تليفونية من امرأة تتحدث الانجليزية بلهجة أجنبية ، وظنها من أهل البلد فالتزم الحرص فى حديثه وأكثر من الحوقلة والبسملة ، ولكنها سألته سؤالاً محددًا : ما تَحِلّةُ أيمانٍ حُلِفَتْ وحُنث بها ، فأجابها ، فقالت فأنا لا أستطيع إطعام المساكين لفقرى ولا أستطيع الصوم بسبب ضعف صحتى ، فقال لها إذن لا تحنثى بيمين حلفتيه ! فقالت ولكنى لابد أن أحنث ! فتعجب وسألها عن السبب فقالت إنها صومالية مليحة الوجه ولكنها سمراء قاتمة السواد ، وتحب شابًا لبنانيًا أزرق العينين من المحال مقاومة سحره ، وقد أرغمها رئيسها فى العمل (وهو عربى) على أن تقسم على الانفصال عنه ! فأقسمت ومن تلك اللحظة لا تستطيع النوم وأصابها الهزال وتريد أن تعود لحبيبها ! قال حسن :

''نصحتها بأن تقاوم نزعات النفس الأمارة بالسوء ، ومثّلت أروع أدوارى بالتليفون وأنا أقدم المواعظ وآيات الرشاد ، ولكن صوتها كان ساحرًا ، ودافئًا عميقًا ، يخلو من ''سرسعة'' بنات جنسها ، فَأَطَلْتُ المكالمة عامدًا ، فكَشَفَتْ عن المزيد من تفاصيل حياتها ، وقالت لى فى النهاية إن رئيسها هددها إذا لم تترك اللبنانى فسوف يفصلها من العمل هى وزوجها ! وصُعِقْتُ ! وقلت لها أنت تريدين التكفير عن يمين حلفتيه وأنت ترتكبين الفاحشة ! فأنكرت وقالت إنما هو حب مثالى (idealist) وربما كانت تقصد 'حبا بريئًا' ، ولكننى أصررتُ على أن تترك حبيبها ، وقلت لها إنك على شفا حفرة من النار ووضعت السماعة'' .

وقال حسن إنه تصور أنه قد أرضى ضميره وقدم أثمن نصيحة ، ولم يكن يدرى ما يخبئه القدر ، إذ استدعاه عميد الكلية وقال له إنه سمع عن علاقته بإحدى الفتيات وليس ذلك بمستحب ، وإنه لم يصدق ما سمع ، ولكنه يحذره من مخاطبة أى أنثى وإلاّ ... وخرج حسن وهو يعجب من الشائعة وكيف ظهرت ومن وراءها ، فليس تليفونه مُراقبًا ولا هَمَّ له فى الواقع إلا العمل وجمع المال ، فإذا كانت الصومالية هى مصدر الشائعة فلابد أن ينتقم منها ، وجعل يكيل الشتائم لها فى خياله ويلعن الساعة التى رد فيها على التليفون ، وبعد أسبوعين كاد أن ينسى 'الواقعة' فيهما ، جاءه طالب أزرق العينين وقال إنه يريده فى أمر هام ، ولم يجل بخاطر حسن أن يكون ذلك الطالب 'الصغير' هو حبيب الصومالية ! ولكن الطالب تحدث فأطال ، وقال له ما معناه إن الصومالية مغرمه به (أى بحسن) وإنها اتخذت من حادثة الحِنْثِ باليمين ذريعة لمحادثته لا أكثر ، وإنها باختصار تريد أن تراه ، وإنها اتصلت بالكلية لتسأل عنه بعد أن لاحظت عدم رده على التليفونات ، وانتهى الطالب إلى تبرئة نفسه من أى تكدير يكون قد تعرض حسن له فهو أستاذه الذى يحبه ويحترمه .

وقال حسن فى نبرات تفيض أسىً وألمًا : ''وهكذا وجدت نفسى رغم أنفى فى حبائل امرأة أجنبية ، قد تكون صالحة وقد تكون غير ذلك ، وكان البرنامج التليفزيونى فيما يبدو هو السبب ! أحسست أننى معزول عن الدنيا دون ذنب جنيته ، ولم أعد أستطيع التمييز بين الحقيقة والخيال ، وغدوت أتساءل إذا كانت القصة التى روتها الصومالية صحيحة ، بل إذا كان ما رواه الطالب صحيحًا ، وشعرت - وربما كنت مخطئًا - أن هناك رقابة مفروضة علىّ من طرفٍ خفىّ ، ولما كنت لم أشاهد تلك الفتاة فى حياتى ، فقد أصبحت أستريب بكل امرأة تنظر إلىّ ، خصوصًا إذا كانت سمراء قاتمة السواد ، وأما إذا كانت تخفى وجهها الأبنوسى

بلثام أو بما يوازيه فكان يخيّل إلىّ أنها إذا رفعت النقاب فسوف أواجه مصيرًا أسود ، وكثيرًا ما كانت السيارات تقف إلى جوار سيارتى - على نحو ما يحدث فى زحام المرور - فالتفتُ لأتبيَّنَ فجأة وجهًا أسود كأنه وجه القدر المتربص بى ، فأشيح بوجهى خشية أن ألمح بسمة أو أسمع كلمة ، رغم الزجاج المغلق والرجل الجالس إلى جوارها !

"ولم أحتمل أن ألقى مصير دافيد - وهو مدرس بريطانى (من ويلز) لمادة إلقاء اللغة الانجليزية (elocution) بالمعهد - الذى تلقى إنذارًا بالطرد فى غضون أربع وعشرين ساعة ، بعد أن ثبت للسلطات الجامعية أنه ذو ميول جنسية مثلية ، وأنه كان يتقاضى نقودًا فى مقابل خدماته ، والحق إننى كنت أشك فيه ولكن انشغالى بالعمل وكثرة تنقلاتى لم يتيحا لى أن ألحظ سوى بوادر وظواهر ، وكنت أردد فى نفسى ما نقوله فى مصر 'خَلْقُ الله فى مُلْكِ الله' ، ولكن وجود الطالب اللبنانى كان يذكرنى بالصومالية ، وكثيرًا ما كنت أرسم لها صورة فى ذهنى ، ولم يمض أسبوع حتى قدمت استقالتى من المعهد" .

وسألت حسن إن كان قد عاد إلى مصر قبل عام ولماذا لم يتصل بى ، فقال إنه كان يحس بالذنب تجاه زوجته السابقة وابنته التى كبرت ، فعاد إلى مصر ليجد أن زوجته قد أصيبت بمرض مزمن ، فقضى شهورًا طويلة فى علاجها حتى تحسنت حالتها ، ولكنها لم تعد قادرة على العمل إذ كست وجهها الغضون وجحظت عيناها ، واقتصرت على المشاركة فى التمثيليات الإذاعية حتى تكفل لنفسها ولابنتها العيش الكريم ، فاشترى لهما شقة فى وسط البلد حتى تكون زوجته قريبة من عيادة الطبيب الذى يشرف على علاجها ، وأدخل ابنته مدرسة أجنبية مصاريفها باهظة ، كأنما ليكفّر عن إهماله لها طيلة تلك السنوات .

وعاتبته لعدم السؤال عنى فقال إنه سأل بالفعل عنى وقيل له إننى فى جنيف ، ولكن هموم حياة الأسرة ابتلعته ، ثم أطرق لحظة قبل أن يقول : "نحن بخير الآن والحمد لله ، ولكن بريق الحياة انطفأ ! ولك أن تتصور ما يفعله المرض فى نفس الإنسان ونفس ذويه ! ولقد تابعت نشاطك وشاهدتك أكثر من مرة فى مسرح الطليعة ، ولكننى كنت كمن يمنعه الألم لما أصابك من الحديث إليك ! ولولا أنك رفعت يدك إلىّ بالتحية أولاً لترددت فى الحديث إليك بالأمس !" .

كنا نجلس فى غرفتى بالكلية ، وقد أغلقت الباب وأعلنت أن لدىّ اجتماعًا خاصًا ، ولم يكن يُسمح بفتح الباب إلا للفراش 'نجاح' الذى كان يحضر الشاى والقهوة ، أو يخبرنى عمن

يريد مقابلتى ، ولم أكن أريد مفارقة حسن ذلك الصباح ، لكنه نهض ووعدنى بالاتصال فى وقت قريب ، قائلاً إنه ربما سافر فى مطلع العام إلى أمريكا مع أسرته لعرض زوجته على أحد الأطباء ، وإنه لابد أن يقابلنى مرة ثانية ليعرف أخبارى وما صار إليه أمر الدرويش والغازية . وخرج حسن ولم أسمع أخباره إلا بعد سنوات !

كنا فى موسم الامتحانات والصيف حار ، والطلاب يتعجلون إعلان النتائج ، وكنت مشغولاً بمشروع جديد تنهض به هيئة الكتاب هو مكتبة الأسرة ، إذ كلفنى سمير سرحان بإعداد مختارات لشوقى وحافظ ، فذهبت إليه بها ، وقضينا ليلتين فى الانتقاء والمفاضلة ، وكانت سميرة عرابى مديرة المطابع - رحمها الله - عنيدة إذ حددت عدد الصفحات بما لا يزيد على ١٢٠ صفحة ، وكنت أحاول التوسع وسمير يقول إننا محكومون بالميزانية ، ثم صدرت مختارات شوقى ونفدت فى أيام ، وصدرت مختارات حافظ ، لكنها لم تنفد إلا فى آخر الصيف !

٤

فى خريف ١٩٩٤ عُرضت مسرحية صباح الخير يا وطن عن على مبارك ، وكتب عنها النقاد كلامًا طيبًا باعتبارها مسرحية تعليمية ، ولكن الجمهور لم يعرف الطريق إليها ، وكان فهمى الخولى ، المخرج المبدع ، الذى أخرجها ، فى أسوأ حالاته ، وقالت لى نهاد صليحة - بصفتها ناقدة محترفة - قولةً أعتز بها "الأفضل أن تنسى هذا العمل تمامًا !" قالت ذلك بالانجليزية ، فوجدت فى قولها حُكْمًا رحيمًا بالعرض ، وحاولت أن أنساه ، ولكن ذكرى كتابته وإخراجه جعلتنى أثبتة فى الواحات ! وأنا لا أنسى بسرعه ، وذاكرتى ليست انتقائية مثل ذاكرة نهاد ، بل هى تختزن الكلام والصور وتصنّفها وتبوّبها ثم تعيد التصنيف والتبويب! وهذا هو ما كنت أفعله بالمادة العلمية عن المصطلحات الأدبية الحديثة التى وضعتها فى البطاقات وعكفت عليها تصنيفًا وتبويبًا فى نزوة من نزوات العمر فى ديسمبر ١٩٩٤ ويناير ١٩٩٥ ! كنت أعمل طول اليوم ، لا أدرى من أين آتى بالطاقة ، بل ولا أدرى إن كنت على صواب أم خطأ ، ولكننى كنت أعمل فحسب ، من الصباح الباكر حتى الظهيرة ، ثم فى المساء حتى يغلبنى النعاس .

وفى غضون شهرين كانت المادة قد قاربت الاكتمال ، وأنا أكتب بالقلم على الورق ، لا على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ، وعندما اكتمل النص عرضته على نهاد فاقترحت إضافة فصلين ، ففعلت ذلك ، وفى مارس ١٩٩٥ حملت النص إلى مكتب الكمبيوتر فانتهى منه فى أسبوع ، وفى إبريل حملته للشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان !

كانت تلك الشركة قد طبعت لى كتاب فن الترجمة عام ١٩٩٣ ، وصدرت الطبعة الثانية منه فى عام ١٩٩٥ ، وكان فى مصر بيار صايغ ، ابن أخت صاحب الشركة خليل صايغ ، والمدير المالى ، الذى رحب بالكتاب ، وبدأ الأستاذ وجدى رزق غالى ، رئيس تحرير المطبوعات العربية بالشركة ، فى تحرير النص . كانت المادة التى جمعتها تنقسم إلى قسمين ، القسم الأول يضم المصطلحات نفسها ، وهى لا تمثل إلا معجمًا محدودًا يتبع نظام المقالات أو التعريفات لا الترجمة النهائية إذ لم أكن من أنصار فرض ترجمة ما ، مهما تكن جذابة ، على الدارسين ، بل كنت ولا أزال أحبذ مناقشة الترجمات المتاحة وتفضيل بعضها على بعض ، فإذا كانت جميعها لا تفى بالغرض فى نظرى اقترحت ترجمة أو ترجمات أخرى ، وأما القسم الثانى فهو يمثل مقدمة أتناول فيها المدارس الحديثة التى أتت بتلك المصطلحات ، وكنت أعجب للحماس الذى دفعنى إلى جمع تلك المادة وتنظيمها وتبويبها بتلك السرعة ، وأخشى أن أكون قد أخطأت هنا أو هناك ، فمراجعى كلها انجليزية ، والمادة لها أصول ألمانية وفرنسية كثيرة ، ولكن الحماس جرفنى ، وكنت أطلق على الكتاب وصف النزوة ، وكان صديقى ماهر شفيق فريد يضحك من التسمية ، ويقول ما أحوجنا إلى هذه النزوات !

وفى الصيف اتصل بى المخرج اللامع فاروق الدمرداش ، صديقى منذ الستينيات ، وطلب منى نسخة من ترجمة يوليوس قيصر لتسجيلها لمحطة الإذاعة البريطانية ، وقال إنه سيحاسبنى بأسعار الإذاعة المصرية (البرنامج الثانى الذى أصبح البرنامج الثقافى) فأكدت له أننى لا أكترث للحساب ! وضرب لى موعدًا فى الاسكندرية فى مدخل مسرح سيد درويش ، فذهبت أنا ونهاد وسارة وقابلناه ، وأخذت له النص المطبوع ليوليوس قيصر ، إلى جانب ترجماتى لحلم ليلة صيف وروميو وجوليت وتاجر البندقية . ولكنه قال إنه يريد الأولى فقط ، وقال إنه سينظر فى الثلاثة الأخيرة . وقدم فاروق الدمرداش نص يوليوس قيصر مسجلاً بأصوات المصريين فى الـ B.B.C فلاقى الاستحسان ، مما دفعه إلى تسجيل النصين الثانى والثالث ، وأما تاجر البندقية فلا يجرؤ أحد حتى الآن على تقديمها فى العالم العربى بسبب حساسيتها السياسية !

فعندما صدرت الترجمة عام ١٩٨٨ ، وكدت أطير بها فرحًا ، تحمس لإخراجها المخرج عبد الغفار عودة ، وحاول تقديمها على أى مسرح فى مصر ، ولكنه كان يقابل بكلمات معسولة ثم ينتهى الأمر إلى لا شىء ، وعندما تولت الدكتورة هدى وصفى إدارة المسرح القومى تحمست لإخراج المسرحية وكاد العمل أن يبدأ فيها ، ثم رأى المخرج المبدع فهمى الخولى تحويل النص إلى اللغة العامية ، وكلف السيناريست الشهير رفيق الصبان بتحويله إلى العامية، ثم تعثّرت المسرحية ولم تر النور لأسباب غامضة ، وفى مطلع التسعينيات كان الباحث السورى حيان الساعى يعمل فى رسالة الدكتوراه فى انجلترا عن ترجمات شيكسبير وانتهى إلى أن تاجر البندقية التى ترجمتها أفضل الترجمات ، مما دفع بعض أبناء سوريا إلى محاولة تقديمها على المسرح - ثم توقف المشروع ! وعندما زارت إحدى الفرق الانجليزية مصر وحادثت مساعد المخرج (دونالد يورك) عن جرأة لورانس أوليفية فى إخراجها ضحك وقال ''ولكن السير لورانس تدخل فى النص .. إنه غشاش !''

ترى هل يتمتع المسرح بكل هذه القوة ؟ ولنفرض أن شيكسبير يسخر من يهودى مراب أثيم ، فهل يعنى هذا أنه يهاجم اليهود كلهم أو الدين اليهودى ؟ لقد ذهب بعض النقّاد إلى أن السخرية تتضمن فى الواقع إشفاقًا عليه أو استثارة للإشفاق على مصيره ، إذ أُرغم على اعتناق النصرانية ، وصودرت جميع أملاكه ! ومهما يكن من أمر أفلا يمكن اعتبار ذلك كله حدثًا مسرحيًا يدور فى عالم بعُدَ به العهد واختلفت أحواله عن عالمنا ؟ هل من المحتوم فى المسرح ''إسقاط'' أحداث النص على وقائع الحياة المعاصرة ؟

وسافرت فى الصيف إلى جنيف ، وجاءتنى مكالمة من باريس ، وكان المتحدث هو محمود القيعى رئيس القسم العربى فى اليونسكو الذى دعانى للعمل بالترجمة فى المؤتمر العام للمنظمة فى نوفمبر ! العودة إلى باريس إذن ! لكننى كنت هذه المرة صحيح البدن ، فسرت فى الشوارع أنشق هواء الخريف الجميل ، وزرت جميع الأماكن التى كنت أحلم بزيارتها ، وذات ليلة مقمرة هببت من نومى مفزوعًا إذ تذكرت عمر نجم - صديقى الشاعر الذى اختطفه الموت وهو فى ريعانه ! وكتبت دون تردد قصيدة بالعامية المصرية وغفوت . وكان التليفزيون ذا صوت خفيض ساعدنى على النوم ، وفى نحو الثالثة صباحًا سمعت المذيع يقول إن اسحاق رابين رئيس وزراء إسرائيل وصانع السلام مع عرفات قد قتل !

وضاع النوم من عينى ، ومكثت فى الغرفة أنظر من الشباك حتى عادت الحياة تدب فى الطريق ، وكان الرذاذ يضفى على ضوء الصبح مسحة حزينة كأنه عبرات ثاكل ، وذهبت إلى العمل قبل موعد 'الواردية' وأنا ممزق النفس مهتاجًا ، أحاول التسرية بالعمل فيأبى العمل تسريتى ، وعندما انتهى النهار انطلقت أسير وأسير حتى غربت الشمس ، ذاهلاً عن كل ما حولى ، فمدينة باريس - كما يعرف كل من زارها - عالم كامل ، لا يطلب المرء فيه شيئًا إلا وجده ! واتجهت إلى الفرع الباريسى لمكتبة (W.H. Smith) الانجليزية فاشتريت المزيد من كتب النظرية الحديثة فى النقد ، الصادرة فى ذلك العام أو أوائل التسعينيات ، ووجدت مغالاة فى أسعار الكتب فأخبرتهم أنى عضو فى اتحاد كتاب مصر ، وفعلاً خصموا ٢٠ ٪ من الفاتورة الكلية فلم أدفع سوى أربعة آلاف فرنك .

ووجدت فى الكتب الجديدة ما يقتضى بعض التعديل فى كتاب المصطلحات وأردت إضافتها فسمح لى الأستاذ وجدى ، وهو علاّمة نحرير ، له من المعاجم ما يشرف أى مصرى ، وانقضى عام ١٩٩٥ وقد انتهيت أيضًا من إصدار كتاب ضخم بالعربية بعنوان من قضايا الأدب الحديث يضم مقالاتى المتفرقة التى نشرتها منذ الستينيات ، إلى جانب ما وجدته فى مكتبى من دراسات لم يكتب لها أن تنشر من قبل ، وفى شتاء عام ١٩٩٥ - ١٩٩٦ طلب منى انتصار عبد الفتاح (المخرج والموسيقى النابه) إعداد نص مسرحى موجز لمسرحية الملك لير لشيكسبير ففرحت بالتكليف وأحضرت كشأنى دائمًا شتى طبعات المسرحية حتى أسترشد بالشروح وآراء النقاد وانهمكت فى العمل . وعندما انتهيت من الترجمة المنظومة للنّص ، كانت بوادر الصيف قد حلّت ، وبدأ انتصار يستعد لتقديم عمل مسرحى موسيقى ، تحاشيت فيه أخطاء العمل الموسيقى القائم على روميو وجوليت قبل أكثر من عشر سنوات ، بل ركزت على التيمة الرئيسية فى النص ، فقرأ المخرج ما كتبته وطلب الاطلاع على العمل الكامل حتى يكتمل لديه التصور وبدأ تجاربه المسرحية .

ولكن عام ١٩٩٥ لم ينقض دون أن تعود الحياة "بقدرة قادر" إلى مسرحية الدرويش والغازية ، إذ اتصل بى المخرج حافظ أحمد حافظ من الثقافة الجماهيرية ، وقال إنه شديد الإعجاب بالنص ، وقد حدد أسماء الممثلين والعاملين ويريد مقابلتى للانتهاء من بعض الاستفسارات . واجتمعنا فعلاً مع بعض الفنانين والعاملين بالثقافة الجماهيرية ، كان على رأسهم ضياء الميرغنى ، المرشح للبطولة ، والفنانة التشكيلية شادية عرفى ، وكان حافظ قد اتفق مع فنانة مغربية على القيام بدور الغازية ، علمت فيما بعد أنها تزوجت الفنان عمر

الحريرى ، ولكنها - بعد عدد محدود من البروفات - انسحبت بسبب صعوبة اللهجة المصرية. واستمرت البروفات ، وقامت بدور الغازية فتاة واعدة اسمها منى حسين ، فرقصت وغنت ومثلت فأبدعت ، ولكن العرض تأخر - كالعادة - فلم يُفتتح إلا بعد أن انتهى عام ١٩٩٥ وبدأنا عام ١٩٩٦ .

كان العرض يقدم على المسرح العائم بالجيزة (مسرح النيل حاليًا) وكان يناير وفبراير كالعادة أبرد شهور العام ، ولكن إقبال الجمهور كان مذهلاً ، وكنت أذهب كثيرًا إلى العرض مما أصابنى بإنفلونزا عانيت منها مر المعاناة ، ولكن فرحة مشاهدة العرض كانت لا تعدلها فرحة ، بل كانت مكافأة أكثر من مجزية على تعب الكتابة ومشاكل الإخراج والممثلين ، وما فتئ عرض الدرويش والغازية أن أصبح من عروض الريبيرتوار فى الثقافة الجماهيرية (إلى جانب المجاذيب) فقدمه المخرج إميل جرجس بعد ذلك فى قصر ثقافة بنها ، وقدمه آخرون فى بقاع شتى من مصر . وعندما عاد الربيع عاد الأمل ! وكان الأمل يقترن دائمًا بالعمل .

كانت عودتى إلى العمل أو 'الإنتاج' - بتعبير الدكتور سيد البحراوى - عودة إلى الحياة! ولم أعد أخشى عودة المرض (أى recurrence) فلقد واجهت الموت مرة وأصبحت أتوقعه فى كل لحظة ، وذكرت ذلك ذات يوم للدكتور شكرى عياد - وكنت أحادثه كثيرًا وطويلاً بالتليفون فى كل شىء - فقال لى "الواحد بس عنده كلام عايز يقوله .. لناس ما يستاهلوش !" وقد ذكرته بذلك بعد سنوات فقال لى إنه قالها فى لحظة غضب ، ولكنه يقصد "بغض النظر عن استفادة الناس منه" . وكان ذلك دأبى ولا يزال ، وكنت أجد الجزاء العادل فيمن يتعلم على يدى ويحصل على الدكتوراه فى الشعر الإنجليزى ، ثم فى تخصص دراسات الترجمة التى تعمقت وانتشرت وأصبحت علمًا جديدًا من العلوم البينية - أى المشتركة بين التخصصات !

وصدر معجم المصطلحات فى يونيو ١٩٩٦ فاحتفل به المجتمع الأدبى ، وكنت قد جمعت المقدمات التى كتبتها للكتب الصادرة فى سلسلة الأدب العربى المعاصر بالانجليزية ونشرتها بعنوان مقدمات فى الأدب العربى **Prefaces to Arabic Literature** بالاشتراك مع الدكتور ماهر شفيق فريد ، الذى ساهم بترجمات انجليزية لبعض الشعراء العرب من المعاصرين إلى جانب كتاب آخر أبين فيه الوشائج التى تربط بين الترجمة وبين الأدب المقارن وأشرح تفصيلاً كيف يتلقى الدارس العربى للّغة الانجليزية مفاهيم تلك اللغة وأدبها ، وبنيت نظرية كاملة تؤكد صحة الإحالة إلى أدب اللغة الأم(اللغة العربية) وأنتهى من ذلك إلى أن كل

ترجمة أدبية تتضمن قدرًا من نشاط الأدب المقارن ، وذلك قبل أن تنشر (سوزان باسنيت) كتابها فى الأدب المقارن – الذى تقول فيه ذلك – بعام كامل . واشترك معى فى الكتاب الجديد الدكتور ماهر شفيق فريد أيضًا إذ أعد ببليوغرافيا كاملة عن ترجمة الأدب العربى إلى الانجليزية وكان اسم الكتاب **The Comparative Tone** .

وفى يوليو ١٩٩٦ قدمت مسرحية سيمفونية لير على مسرح الغد ، ونجح المزج الدقيق بين الدراما والموسيقى والغناء الأوبرالى ، فانتهيت من إعداد الترجمة الجديدة (المنظومة) بمقدمتها وهوامشها ودفعت بها إلى المطبعة . واتصل بى فى أغسطس الدكتور نبيل الزهيرى ، رئيس القسم العربى باللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربى آسيا (الاسكوا) وكان مقرها المؤقت هو عمان ، بعد أن انتقلت من مقرها الدائم فى بيروت ، وقال إنه يعرض علىّ العمل شهرين لديه ، وكان لابد من اجتياز الاختبار الطبى وإرسال النتيجة إلى نيويورك ، فذهبت إلى كايرو كلينيك (أو مستشفى القاهرة) ومكثت يومًا كاملاً فى تحاليل وكشوف وأشعة ، وكانت النتيجة مُرْضيةً والحمد لله ، ولكن الدكتور محمد صادق – رئيس المستشفى – قال لى "هناك بوادر مياه بيضاء (cataract) فى العين اليسرى ، وهناك ظواهر خلل فى القلب – ولكنها طفيفة" وكان يعنى القصور فى الشريان التاجى ، وعلّل ذلك بأنه أمر طبيعى لأننى كنت فى أواخر الخمسينيات . ولم أكن أخشى هذا أو ذاك ، بل لم أكن أخشى إلا مرضًا واحدًا !

وتأملت نفسى فى أغسطس ١٩٩٦ فوجدتنى أسابق الزمن لنشر كتب جديدة أو إعادة نشر ما نفدت طبعاته ، مثل إعادة نشر فن الكوميديا والأدب وفنونه ، بل والنقد التحليلى الذى كانت تعاد طباعته منذ عام ١٩٦٣ ! ولكن أهم إنجاز لى كان العودة إلى الكلام ! صحيح أن مخارج ألفاظى أصبحت معيبة ، ولكن المتعلمين يفهموننى ، وغير المتعلمين يجهدون أنفسهم فى فهمى ، فاقتصرت على التدريس للدراسات العليا ، والإشراف على الرسائل الجامعية ومناقشتها ، فأعددت ما أعتبره جيلاً جديدًا من الدارسين المتخصصين .

٥

فى أكتوبر ١٩٩٦ اتصل بى الدكتور طه وادى وقال لى إن الدكتور شوقى ضيف يبحث عنك لأن مجمع اللغة العربية قرر أن تنضم إليه خبيرًا بلجنة اللغة والأدب ! وكدت أطير فرحًا،

فالمجمع حلم كل دارس للأدب ، والانضمام إليه بأى صفة شهادة على استواء اللغة العربية ، وكان معجم المصطلحات هو أهم بند فى ' أوراق اعتمادى ' بالمجمع ، وإن كان أحد الدراعمة قد اعترض على اختيارى - حسبما أخبرنى طه وادى - وهكذا أقبلت على حضور جلسات اللجنة ، وقال لى الدكتور بدوى طبانة فى أول جلسة إننى زكيت ترشيحك عضوًا فى المجمع، وأيده الدكتور محمود على مكى .

ولكن كان علىّ أن أزور عمان لأول مرة فى نوفمبر ، وأنا لا أستطيع بسبب ارتباطاتى فى مصر أن أغيب عنها أكثر من خمسة أسابيع ، وعندما عدت فى أوائل ديسمبر ، موعد التجديد لرئاستى للقسم ، لاحظت جَوًّا غريبًا ، وقد عرفتُ فيما بعد أن بعض الزملاء تقدموا بشكاوى من إدارتى للقسم . ولم يأخذ العميد بشكاواهم وأصدر الدكتور مفيد شهاب ، رئيس الجامعة قراره بتجديد رئاستى ، وعندما قابلنى هاشًا باشًا قال لى ''كنا منتظرين رجوعك!''.

وتبين لى بعد ذلك أنهم يشيعون عنى كلما سافرت أننى مريض وأن النهاية وشيكة ، ولم يكن ذلك مقصورًا على الجامعة ، بل كان يتعداها إلى الوسط الأدبى ، وكان ذلك الإحساس يحزننى ويدفعنى إلى المزيد من العزلة والإنتاج ، وأصبح شعارى هو هاؤم اقرءوا كتابيه ! وبدأت فى الشتاء أجمع ما كتبته عن الترجمة الأدبية باللغة العربية ، فوجدت يصلح كتابًا مستقلاً ، سميته الترجمة الأدبية بين النظرية والتطبيق ، وقدمته إلى شركة لونجمان ، وكان كتاب المصطلحات الأدبية قد فاز بجائزة أحسن كتاب عن عام ١٩٩٦ فى النقد الأدبى فى معرض القاهرة الدولى للكتاب (يناير ١٩٩٧) ففرحت شركة لونجمان ، وعندما قابلنا الأستاذ عبد العزيز أبو الليل مدير مكتبة أبو الهول (وهى أيضًا تابعة للأستاذ خليل صايغ) فى حفل موسيقى بدار الأوبرا ، وكان معى الأستاذ المستشار أحمد السودة ، قال إن كتاب المصطلحات قد نفد ، وإن الطبعة الثانية وشيكة الظهور .

وكان قسم اللغة الانجليزية قد عقد مؤتمره الدولى عن الأدب المقارن ، وهو الذى يعقد مرة كل عامين ، فى ديسمبر ١٩٩٦ ، وشارك العديد من الأساتذة الأجانب والعرب فيه ، وتجمع لدىّ أنا والدكتور ماهر شفيق فريد مجموعة من الدراسات ، كان بعضها قد نشر فقررنا إعادة نشره ، وكان البعض الآخر جديدًا ، فضممنا هذا إلى ذاك وأعددنا كتابًا انجليزيًا جديدًا يضم ترجماتى لأربعين قصيدة تمثل أربعين شاعرًا عربيًا معاصرًا (إلى الانجليزية طبعًا) ونشرت الكتاب باسم **Comparative Moments** فى عام ١٩٩٧ ، ولم

يلبث أن احتل كتابنا هذا مكانه بين كتب الأدب المقارن التى تتناول الأدبين العربى والانجليزى ومناهج الدراسة المقارنة .

كان شيطان الشعر يعتادنى فلا يلقى ترحيبًا صادقًا ، فالقصيدة حين تلح على الذهن تطرد كل ما يزاحمها ، وتقتطع الكثير من وقت القراءة ومن وقت الترجمة وكتابة المسرح ، وكنت أحيل هذا الشيطان حين يزورنى إلى نصوص أدبية - عربية أو أجنبية - فبعد أن استعنت به فى ترجمة الملك لير أَحَلْتُه إلى دواوين المعاصرين فترجمت ثلاثة دواوين هى ألف وجه للقمر لفاروق جويدة ، وأغصان الليل عليك لمحمد الفيتورى ، ووقت لاقتناص الوقت لفاروق شوشة ، وصدرت جميعها تباعًا فى ذلك العام ! ولكن الشيطان كان لحوحًا أكثر مما ينبغى آنذاك ، فدفعنى إلى نشر مجموعة شعرية بعنوان أصداء الصمت جمعت فيها شذرات مما كتبته قديمًا وحديثًا ، كان أهمها قصيدة 'القصة' التى تصور حالى بعد تشويه وجهى بسبب المرض اللعين .

وكنت أقضى الربيع من كل عام منذ أن بدأت مكتبة الأسرة فى قراءة شعر المعاصرين من أبناء القرن العشرين ، وكانت قراءاتى مكثفة كأنها قراءة من يستعد للامتحان ، ولم أكن أبخل على هذه الدواوين بالمال ، فاكْتَنَزَتْ مكتبتى وأصبحت تضم المعاصرين إلى جانب ما ورثته من والدى رحمه الله من دواوين القدماء ، وعادت لى لذّة العربية التراثية فكنت ولا أزال أطرب للألفاظ طربًا لا يقل عن تذوقى للصور و'المعانى' ، وبدا أن الهوة التى كانت شاسعة بين القديم والجديد قد تقلصت ، أو قل كانت آخذة فى التقلص فبدأت أحس بالجسور أو بحلقات الوصل التى تربط القديم بالجديد ، وكانت الساعة التى أقضيها فى لجنة الأدب واللغة بمجمع اللغة العربية درسًا أسبوعيًا أحرص عليه، واكتشفت فى غضون ذلك كله أن اللغة ملكةٌ واحدةٌ (أو قوةٌ واحدةٌ بتعبير الجاحظ) وأن من يتمتع بهذه الملكة وينمّيها تستوى لديه لغات الأرض ، فكأننى آمنت بتشومسكى بعد طول تردد ، وتأكد لى ما كنت أحسه فطريًا من أن الذى يجيد لغته الأم إجادة إبداعية (أى من يكتبها باليسر الذى يقرؤها ويتكلمها به) لابد أن يجيد أى لغة أخرى يتعلمها ، وهذا ما أثبته جيل آبائنا من كُتّاب القرن العشرين ، وجيل أساتذتنا فى القرن نفسه ، والكثيرون من أبناء جيلنا الحالى ، ويكفى أن ألمح إلى أفراد من هذه الأجيال الثلاثة المتعاقبة للدلالة على صحة ما أقول ، يكفى أن أذكر طه حسين وهيكل والحكيم ، والعقاد والمازنى وشكرى (من اللاتينيين والسكسونيين على الترتيب) من الجيل

الأول ، وزكى نجيب محمود ولويس عوض ومحمد مندور وشكرى عياد ومجدى وهبة ، (وأنا أقتصر على الراحلين) من الجيل الثانى ، وأما الجيل الحالى فسوف أكتفى من أساتذة العربية بجابر عصفور ومن أساتذة الانجليزية بماهر شفيق فريد . ولا شك أن القائمة طويلة، والحصر محال ، ولكن ما أقل الذين يعرفون نصاعة أسلوب شكرى عياد بالانجليزية ! وأنا أتكلم فقط عمن أعرفهم ومن قرأت لهم ، ولكننى أعرف الكثيرين من أبناء دار العلوم الذين يثبتون صدق دعواى ، وإن اختلفت اللغة الأجنبية عن اللغة التى درستُها ، فقد تكون الفرنسية أو الاسبانية ، ولذلك قررت فى ذلك العام - ووافقنى مجلس الكلية على قرارى - بألا نقبل فى قسم اللغة الانجليزية إلا من يحصل على تقدير 'جيد' على الأقل فى اللغة العربية ، ولم أعبأ بشكاوى أولياء أمور الطلاب من هذا 'الظلم' ! لقد خلف لنا آباؤنا منهاجًا ما أحرانا أن نتبعه ، وما زلت أذكر يوم أن توفى شكرى عياد فى ٢٣ يوليو ١٩٩٩ ، وكنت أجلس إلى جوار جابر عصفور ومحمود فهمى حجازى نتقبل فيه العزاء بعد ذلك بيومين ، حين مال علىّ جابر عصفور وقال :

ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلفٍ كجلد الأجرب

وأظنه نسبه إلى لبيد ، ولم أجهد نفسى بالتحقق من قائله ، فالبيت يعبر تعبيرًا صادقًا عما أحسسناه نحن جميعًا تلاميذ شكرى عياد من خواء بفقده .

وكان عام ١٩٩٧ عام تحوّل فى حياتى من ناحية أخرى ، إذ كان إصدار مجلة سطور قد بدأ فى ديسمبر ١٩٩٦ ، وكانت صاحبتها ورئيسة مجلس إدارتها الدكتورة فاطمة نصر ، ولا تزال، ذات طموحات ثقافية بدت غريبة آنذاك فى الأوساط الأدبية، فهى أصلاً أستاذة للأدب الانجليزى - مثلى - ولكنها قارئة موسوعية تشغلها هموم الثقافة فى الوطن العربى وتشغل نفسها (مع قلة من مثقفى الأمة العربية) بالفكر المعاصر وتجلياته الأدبية والاجتماعية والسياسية ، ويخامرها قلق حقيقى وعميق على المسار المتخبط لثقافتنا بين التيارات العالمية المتلاطمة ، وكانت قد استعانت فى الأعداد الأولى من المجلة بمن تعرفهم من الكتاب والمثقفين، ولكن العمل لم يكن يسير على ما يرام ، فاتصلت بى تليفونيا فى شتاء ١٩٩٧ (والربيع لم تلح بوادره بعد) وعرضت علىّ تولّى رئاسة تحرير المجلة . كنت قد شاركت بالكتابة منذ العدد الأول ، وكان اسمى بين مستشارى التحرير ، وكنا نعقد اجتماعات ذات مستوى رفيع ، فهم نخبة من كبار مثقفى مصر ، ولكن العمل بالصحافة الثقافية كان يقتضى اندماجًا أكبر ،

وكـانت لدىّ مـجلة المسـرح الشـهـرية التى تصـدرها ولا تزال هيـئـة الكتـاب ، ولكن المجلة المتخصصة تختلف عن المجلة الثقافية العامة . ومع ذلك فلم أتردد فى القبول ، ووجدت فى المجلة تحقيقًا لحلم التواصل - على مستوى الأمة العربية كلها - مع التيارات الثقافية العالمية المعاصرة .

وفى الصيف عرضت الدكتورة فاطمة نصر علىّ أن أشاركها فى ترجمة كتاب سيرة النبى محـمـد من تأليف كارين آرمـسـتـرونج ، الأستاذة البـريطانيـة المتـخـصصـة فى تاريخ الأديان، ووافقت دون تردد ، ونظمنا العمل بحيث أترجم الفصول ذات الأرقام الفردية وأن تترجم هى الفصـول الأخرى ، ثم نتبـادل مـا ترجمنـاه لتبـادل النظـرات والتعليقـات ، واكتمل الكتاب فى أكتوبر (ولكنه لم "ينزل" إلى السوق إلا فى ديسمبر) ولم يفطن أحد من النقاد لنظام تقسيم الفصول فى الترجمة بل شعروا بأنه نسيج واحد لا اختلاف فيه ، مما شجعنا فى عام ١٩٩٨ على ترجمة كتاب آخر لنفس الكاتبة ، وإن كان أضخم وأكثر ثراءً فى مادته وهو كتاب القدس : مدينة واحدة وعقائد ثلاث ، وفى خريف عام ١٩٩٧ قررت هيئة المسرح تكريمى مع عدد من الكتاب والفنانين ، وذلك بمنحى شهادة تقديرية أعتز بها وأفخر .

وكنت فى غمار انشغالى بالقراءة المتعمقة فى التراث العربى ، وما اقتضته مكتبة الأسرة من تقديم مختارات من عيون الأدب العربى إلى القارئ الشاب ، قد نسيت أو تناسيت الكتابة المسرحية ، وكانت المهام الملقاة على عاتقى فى الجامعة فى المقام الأول تتطلب الإلمام بما جاء فى علم التـرجـمـة (Translatology) الجـديد ، ومـلاحـقـة مـا يصـدر من كـتب فى هذا التخصص، وقد أحصيت منها نحوًا من ثلاثمائة منذ منتصف الثمانينيات ، ولم أكن أقرأ إلا ما تقع عليه يداى ، وهى لا تزيد عن عشرين ، فكانت القراءة هى عملى الأول ، وسرعان ما وجدتنى مضطرًا إلى تقديم خلاصة بعض ما قرأت عندما بدأ برنامج التعليم المفتوح بجامعة القاهرة فى عام ١٩٩٧ ، وكلية الآداب تشارك فيه ببرنامج خاص عن الترجمة الانجليزية . كنت أقرأ عن الترجمة ، وأترجم ، فأرى ضرورة المطابقة بين النظرية والممارسة ، وانتهى الأمر بأن وضعت منهاجًا كاملاً لتعليم الترجمة لدارسى اللغات الأجنبية ، وهو ما يدرّس الآن فى القاهرة ، واعتبارًا من سبتمبر ٢٠٠١ فى عدد من الجامعات السورية أيضًا ، وجميع كتب الترجمة فيه تحمل اسمى .

كنت مؤمنًا ولا أزال بأن مهمة أقسام اللغات الأجنبية هى إفادة أبناء العربية بما يطّلع الدارسون عليه وما يتخصصون فيه من فكر وفن (ولغة بطبيعة الحال) لا تخريج باحثين فى اللغات الأجنبية متفرغين لها لمنافسة أبنائها ، فذلك مطلب عسير المنال يقتضى الحياة فى البلدان الأجنبية والاندماج التام فى ثقافتها وتقبل أبنائها للدارس الأجنبى إلى حد اعتباره من أهلها ، والنماذج القليلة القائمة تؤكد ما أذهب إليه . ولهذا حاولت فى فترة رئاستى الثانية لقسم اللغة الانجليزية إقامة الجسور مع اللغة القومية والفكر القومى ، وحاولت التركيز على الترجمة والأدب المقارن ، وهو ما لم يكن يلقى القبول من بعض أعضاء مجلس القسم الذين لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى بالدرجة الكافية ، وكان بعضهم لم يصل إلى ما وصل إليه من مركز علمى مرموق إلا بفضل الإحاطة باللغة الانجليزية وحدها ، ولكننى كنت أرى أن اللغة الأجنبية جناح واحد ، والطير لا يحلق إلا بجناحين ، فإذا انحصر دور أقسام هذه اللغات فى تعليم اللغة أصبحت أقرب إلى مراكز اللغات أو معاهد تعليم اللغة منها إلى الأقسام العلمية فى الجامعات .

وكان من حسنات الدكتورة هدى جندى - زميلتى وصديقتى التى سبقتنى فى رئاسة القسم - أنها أرست تقليد عقد مؤتمر الأدب المقارن مرة كل عامين ، وكان المؤتمر - كما سبق أن ذكرت - ذا طابع دولى يؤكد وظيفة قسم اللغة الانجليزية باعتباره جسرًا يربط بين مصر والعالم ، وبين الأدبين العربى والانجليزى ، وكان من حسناتها بل ومن أياديها البيضاء أن أحيت المجلة العلمية المتخصصة فى الأدب الانجليزى التى كان الدكتور مجدى وهبة قد أنشأها فى الخمسينيات بعد تمصير القسم وخروج الانجليز عام ١٩٥١ ، وكان ينفق عليها من ماله الخاص. وكان أن وجدتُ القسم ، من ناحية ما يسمى بالآليات ، مستعدًا للسير فى الطريق الذى تصورته، على الرغم من معارضة البعض ، كما ذكرت ، وكانت مشكلة العثور على أساتذة للترجمة يعرفون اللغتين معرفة تؤهلهم لتدريسها مشكلة كبيرة ، خصوصًا بعد استشراء ما يسمى 'باللغويات' ، وهى العلم الذى يدرس طبيعة اللغة ووظائفها وأشكالها تطبيقًا على العامية المصرية . ولم يكن مما يدعو للخجل (بل أحيانًا مما يدعو للفخر) أن يقول عضو هيئة التدريس المصرى فى الجامعة ''أنا ضعيف فى العربية'' والمقصود هو الفصحى ، وأما من يحبها ويكتب بها مثلى ومثل ماهر شفيق فريد ، فقد يوصف بأنه 'بلدى'

- خصوصًا وأن معظم (بل الغالبية العظمى) من أعضاء هيئة التدريس كانوا وما زالوا من الإناث اللاتى تعلمن تعليمًا أجنبيًا .

واعتبر أننى نجحت فى مسعاى منذ عودتى حين بَعَثْتُ حب العربية والانشغال بقضايا الأدب والفكر العربى فى جيل كامل من أعضاء قسمنا الذين وصلوا إلى مرحلة النضج ، على اختلاف اهتماماتهم الأكاديمية . وقد يكون من المفيد أن أذكر أسماء عدد من تلاميذى الذين يؤمنون بما أومن به ، ممن أصبحوا أعضاء فى هيئة التدريس بالكلية ، وقد رتبتها ترتيبًا أبجديا: أحمد هانى عبد الحكيم الشامى ، أميمة أبو بكر ، راندا خلف ، سحر الموجى ، شيرين أبو النجا ، لبنى عبد التواب يوسف ، محمد عبد السلام ، محمد عبد العاطى ، منى إبراهيم ، مها السعيد ، هدى الصدة ، وهم جميعًا - على اختلاف سنوات تخرجهم وتعيينهم - ممن تخصصوا فى الشعر ، وأشرفت على رسائل معظمهم ، إلى جانب من أعدوا رسائلهم فى الترجمة مثل هدى شكرى عياد ، وأمية خليفة ، ونجلاء رشدى ، وقد أشرفت على الأخيرتين، وإلى جانب من يدرسون الآن للدكتوراه فى الترجمة تحت إشرافى مثل هبة عارف وخالد توفيق، ومن هم على وشك ذلك بعد الحصول على الماجستير فى الترجمة مثل علياء الجندى ، كما أشرفت على رسالتى الدكتور صلاح شبكة والدكتور سعيد العليمى فى الترجمة وهما من جامعة طنطا .

وكنت إبان رئاستى للقسم أشجع خريجى المدارس المصرية ، وأقصد بها المدارس العادية لا ما يسمى بمدارس اللغات أو المدارس الأجنبية ، على الالتحاق بقسم اللغة الانجليزية ، وخصوصًا من الذكور ، إذ إن الاتجاه إلى غلبة الإناث على أقسام اللغات ليس - لأسباب اجتماعية محضة - فى صالح هذه الأقسام ، فقد تكون الأنثى أذكى وأعلم وأنشط من الذكر ولكن أولويات الحياة الأسرية قد تفرض عليها ما يقلل من نشاطها الأكاديمى ، ناهيك بالنشاط الثقافى ، كأن ترافق زوجها فى الخارج ، أو تتفرغ للوضع وإنجاب الأطفال ، وما إلى ذلك بسبيل ، وكنت أتمنى تحقيق المساواة بين الجنسين فى قسمنا على الأقل ، وبذلت فى ذلك جهدًا لا بأس به فازداد عدد الذكور نسبيًا بين الشباب ، وإن كانوا ما زالوا أقلية ضئيلة فى القسم .

وكان من المنغصات المعتادة لرئيس القسم إيمان الطلاب الذى يستمدونه من المجتمع بالوساطة والرأفة والتساهل ، فأما الوساطة فكانت الكلمة التى تتردد عند بدء القبول

بالقسم، فالطالب يسمع من أبيه أنه إذا كان يعرف أحد ''المهمّين'' فى الدولة فسوف يساعده على خرق القانون والالتحاق بالقسم بصفة استثنائية ، وكان أولياء الأمور يزورونني فى المكتب طلبًا للاستثناء ، وعبثًا أحاول أن أشرح لهم صعوبة ذلك ، فالإلحاح من سمات المجتمع الجديد، استنادًا إلى إيمان عميق بإمكان خرق القانون ، وكنت حين ينفد صبرى أحيل الأمر إلى الوكيل، وحين ينفد صبره يحيله إلى العميد !

وأما الرأفة فقد كانت تتخذ صورًا غريبة . جاءتنى امرأة يومًا ما ، كان يبدو عليها الإجهاد وضيق الحال ، وقصت علىّ قصة طويلة مؤسفة مبكية ، وتذرعتُ بكل ما لدىّ من صبر حتى انتهت ، وبناءً على ذلك طلبت السماح بقبول ابنها (استثناء) فى القسم . وعندما قلت لها إنه حاصل على ٥٥ ٪ فى اللغة الانجليزية (بعد عامين فى الثانوية العامة) ونحن نطلب ٩٠ ٪ ، فأين هذا من ذاك ، قالت والدموع فى عينيها ، ونحن على باب الغرفة : ''بقى أنا جيت لك بنفسى .. وخرجت من بيتنا وقصدتك .. تقوم تقول لى كده ؟'' .

وكان طلب الرأفة يتبدى أيضًا عند إعلان النتائج ، فإذا رسب طالب فى أربع مواد (من عشر مواد هى مجموع ما يدرس) جاء ليقول لك إننى أحتاج إلى درجة واحدة حتى أنجح ! فإذا سألته كيف ؟ قال لك إنه لو نجح (دون وجه حق) فى إحدى المواد الأربعة ، فسوف يتمتع بدرجات الرأفة فى مادة أخرى ، وينتقل إلى السنة التالية بمادتين (تخلف) . وعبثًا تحاول إقناعه بأنه راسب فى أربع مواد ، وعادة ما تكون تلك من مواد التخصص ، ومعنى ذلك أنه ضعيف فى اللغة ، وعليه أن يبذل مجهودًا أكبر !

كانت هذه المشاغل التعليمية هى الضريبة التى دفعتُها راضيًا مقابل تحقيق غاية أنشدها للجيل الجديد، وكان علىّ أن أعيد تنظيم وقتى منذ أن توليت رئاسة القسم حتى أتمكن من تحمل تلك المشاغل دون أن تؤثر فى نشاطى اليومى ، فكنت ولا أزال أنهض قبل شروق الشمس، وأعمل حتى الضحى فى غرفة مكتبى ، ثم أذهب إلى الكلية حتى بُعيد الظهر، وأعود للغداء والقيلولة، ثم أنهض للعمل فى المساء إلى ما شاء الله . فإذا كان علىّ أن أذهب إلى المجلة ذهبت قبل الجامعة ، وكذلك إلى هيئة الكتاب أو غير ذلك من 'المشاوير' . وأما المساء فلا أضيّعه فى ندوة أو حفلة ، إذ تعلمت من مواجهة الموت أنه لن يبقى من الإنسان إلا عمله، وهو فى حالتى كتابٌ أفيد به الجيل الجديد ، أو من يرى فيه فائدة من غير الجيل الجديد، وكلام أُوجّهُ به من يحتاج إلى توجيه، وعلمٌ أكتسبه حتى لا يُبعث الإنسان حمارًا يوم القيامة –

كما يقول سمير سرحان! وهكذا كان المرض الذى أفسد مخارج ألفاظى نعمة فى ثوب نقمة، فالكتابة تغنى عن الكلام، ولكم تكلمت فى شبابى فأطلت فما أغنى ذلك أحدًا! وكنت لا أزال أراود المسرح ويراودنى، وأكاد أنتظر ما يرغمنى على كتابته إرغامًا. ولو أن عام ١٩٩٨ قد شهد تقديم مسرحيتى السجين والسجان فى مسرح الطليعة، مع مسرحية الوافد لسمير سرحان فى عرض واحد باسم وجها لوجه من إخراج جمال منصور، حظى بترحيب النقاد.



كثيرًا ما يقال إن القصيدة تكتب نفسها حين يجد الشاعر الأبيات تنتظم فى خاطره انتظامًا قد يدهش له هو نفسه ، وأحيانًا ما يقال إن الرواية أو المسرحية تفرض نفسها فرضًا على الكاتب حين يجد أن أحداث الحياة قد تشكلت أمامه ولم يعد عليه سوى التكثيف والصياغة اللغوية ، وذلك هو ما حدث لى فى أواخر يونيو عام ١٩٩٨ ، وكان يوم جمعة ، وأنا فى طريقى إلى مقابلة صديقى المستشار أحمد السودة ، للحصول منه على نسخة من رسائل الجاحظ .

كانت الشمس قد غربت ، وأصداء أذان المغرب ما تزال ترن فى المدينة الساكنة ، ولم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة (بالتوقيت الصيفى) حين انطلقتُ بالسيارة المرسيديس القديمة (التى كنت اشتريتها مستعملة) وأنا أُمنِّى النفس بسهرة مع الجاحظ فأنا من عشاقه وطُلاَّبه فى كل حين ، وسلكتُ الطريق الخلفى من مدينة المهندسين مارًا من شارع شهاب الذى ينحنى على شكل هلال فيصب فى شارع وادى النيل ، أمام قرية ميت عقبة ، وهى قرية ما زالت تحمل كل سمات القرية الريفية وتجاور منطقة المهندسين الحديثة مجاورة تمثل مفارقة عمرانية عجيبة . وفى مفترق إحدى الطرق الصغيرة التى تعترض شارع شهاب ، حيث يتسرب الأطفال وسكان القرية إلى الشارع الرئيسى ، أوقفت السيارة أو خفضت سرعتها ترقبًا للمفاجآت ، وكانت على يمينى ثلةٌ من الأطفال الذين يرتدون ملابس رثة ، وتتراوح أعمارهم بين الرابعة والسابعة ، يحاولون عبور الطريق ، فتوقفوا حين توقفت أو كدت ، واطمأن قلبى

إلى توقفهم فعدت للمسير ، وفى تلك اللحظة نفسها اندفعت صغراهم بأقصى سرعة أمام السيارة فَدُسْتُ بكل قوتى على الفرملة (الكابحة) فتوقفت السيارة ولكنها صدمت الطفلة فوقعت على الأرض واصطدمت بالرصيف .

وخَرَجْتُ من السيارة وأنا أُولول فى أعماقى ، فها أنذا أحكم على نفسى بالضياع بسبب نزق طفلة لا تعى ما تفعل ، وكان همىّ الأول إنقاذها فأهرعت إليها أحملها بين يدى فوجدت دمًا فى فمها فانخلع قلبى ، وقلت فى نفسى من المحال أن تكون الصدمة الطفيفة قد قتلتها ! ولكنها كانت ساكنة سكونًا كاملاً ، دافئة ولكن لا حراك بها ، وعدتُ بها بين يدىّ إلى السيارة ، وقبل أن أُدخلها تجمع حشدٌ لا أدرى من أين أتى ، وبدأت طفلة فى نحو العاشرة تصرخ وتولول صراخ النواح على الموتى ('تصوّت') وبرز من الحشد رجل قدم نفسه على أنه 'محمد' كاتب محام معروف ، وتطوع بحملها نيابة عنى والذهاب بها إلى المستشفى (مستشفى إمبابة) .

وجاء الطبيب النبطشى (النوبتجى) ففحصها، وأعطاها حقنة فتقيأت ثم بدأت تبكى، وقال لى إن الدم فى فمها نتيجة كسر إحدى أسنانها عندما اصطدمت بالرصيف، وطمأننى، ولكنه قال إنها لابد أن تقضى الليلة فى المستشفى حتى يتأكد الأطباء من عدم حدوث ارتجاج فى المخ. وهدأت أعصابى، فهى حية على الأقل، وكانت ضئيلة الجرم نحيلة، تلبس جلبابًا ممزقًا بالغ القذارة، وتعلو جسمها بقع الطين أو التراب، فقلت له أفلا يجب أن تغتسل قبل وضعها فى الفراش فابتسم ابتسامة مقتضبة، وقال إنهم سوف يفعلون ذلك بعد أن تفيق تمامًا.

ولم تمض دقائق حتى سمعت فى الطابق الأرضى (وكنا فى الطابق الأول حيث وضعت الطفلة فى السرير) صراخًا وعويلاً يصمُّ الآذان ، ولم أكن أتصور أن له علاقة بالحادثة ، ولكن سرعان ما اقترب الصراخ ، وكان يصدر من مجموعة من النساء تقودهن امرأة فى ريعان الصبا، مكتنزة الجسم ، تلبس جلبابًا وطرحة سقطت من رأسها على كتفيها ، وهى تقول "بنتى ! بنتى ! أشوف مرقت ! مرقت يا حبيبتى !" والنساء من خلفها يبكين ويولولن ، فطمأنها الطبيب إلى أن ابنتها بخير ، ولكنها قالت "لا ! بنتى ماتت ! يا حسرة قلبك على مرقت ياختى !" وقالت لها ممرضة عابسة "بسّ يا ولية عيب ! الدكتور قال إنها بخير !" ولكن الحشد واصل الولولة ، فهبطت إلى الطابق الأول للانتهاء من المحضر الرسمى عند أمين الشرطة .

وعند أسفل السُّلم وجدتُ الرجال يتوافدون ، وكان من بينهم 'مكاوى' والد 'مرفت' ، وكان يعرج فى مشيته ، ولا يزيد طوله عن ١٦٠ سنتيمترًا ، ويرتدى جلبابًا أبيض ، ويبدو فى منتصف الثلاثينيات ، وكان يبرز من وسط الحشد رجل طويل فارع الطول ، بشرته داكنة وله شارب كث ، وكان يرتدى جلبابًا فضفاضًا ويمسك فى يده هراوة غليظة ، ويقول إنه خال 'مرفت' ، ويبحث عن الفاعل حتى ينتقم منه ، وأسرعت بالدخول إلى غرفة أمين الشرطة ، ولا أنكر أن الخوف قد تلاعب بى ، فقد يضربنى أحدهم بالنبّوت فتضيع أحلام قراءة الجاحظ ويضيع غيرها من الأحلام !

وبدأ أمين الشرطة بملء البيانات بعد أن أعطيته رخصة القيادة وكل ما طلب من أوراق وبيانات ، ثم سأل الوالد عن سن ابنته فقال إنها فى الرابعة ، ثم سأله عن عدد أطفاله فتردد وتلعثم ونظر حائرًا إلى زوجته ، فأجابت هى بعد تفكير ''خمستين !'' وسألها أمين الشرطة ''يعنى عشرة ؟'' فقالت ''خمسة وخمسة !'' وضحك الرجل ضحكة تفهّم لأنه أدرك أنها تخشى الحسد ، ثم سألها : ماذا كانت ابنتك تفعل خارج البيت ؟ فقالت كانت تصلى الجمعة! وبعد دقائق بدت لى سنوات طويلة قال مكاوى باسمًا إنه قد اطمأن على ابنته ، ولكن كاتب المحامى الذى كان حاضرًا لكزه مومئًا إليه بأن يسكت ، ثم قال : لا .. المسألة لم تنته بعد ! لابد من إحالة المحضر إلى النيابة ! وقال أمين الشرطة : الصلح خير يا أستاذ ! فوجدتُ كاتب المحامى ينهض ويصيح : ''هى أزواح الناس لعبة !؟ الراجل غلبان وموش لاقى ياكل !'' فإذا بمكاوى يصيح كأنما يرجع صداه ''يا بيه أنا خالى شغل من مدة ! والولية دى ..'' وأشار إلى زوجته التى نهرته قائلة ''اسكت انت .. انت حمار !''

وتكهرب الجو ، فعاد كاتب المحامى يقول : ممكن تسيب لى أنا الموضوع ده .. أنا حاتولاه .. وقال أمين الشرطة ''طيب .. نقفل المحضر بالصلح'' فأردف كاتب المحامى قائلاً ''والأستاذ حيرضى الجماعة .. دول غلابة ! دول موش لاقيين اللضى !''

وبدا الرضى على وجوه الجميع لسماع كلمة ''يرضى'' ، وتصورتُ أن المسألة قد انتهت عند هذا الحد ، فنهضت ونهض الجميع ، واستعدت الرخصة والبطاقة ، وخرجنا ، وأنا أحاول تهدئة الوالدين الثائرين ، واتفقتُ مع كاتب المحامى على أن يتجه إلى المكتب حيث يتم 'الإرضاء !' ولكننى فوجئت عند باب الخروج بحشد من النساء يرتدين الملابس السوداء ، وتساءلت إحداهن فى لهفة ''ماتت ؟'' وكأنما كانت الأخريات يتجهزن للصراخ فهببن من

مجلسهن على الأرض ، ولكن الوالدين لم يردا ، وقلت أنا لهنّ لا تقلقن .. "مرفت بخير !" فتساءلت من ظننتها رئيسة الحشد : ما ماتتشى ؟ وكأنما خيبتُ ظنها ، ظلت تردد كلمات متقطعة عن الأعمار والآجال ، ولكن سيدة ضخمة (كانت تقبع على الأرض كأنها جبل) نهرتها ، وقالت لها : سيدنا رسول الله نهى عن الصُّوات ! فسكت الجميع . وكنت على وشك فتح باب السيارة عندما برز من الظلام (وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة) شخص يصيح : كسّروا العربية ! وسرت الهمهمة بين الجميع ، وتعلقت أنظارهم بالسيدة 'الجبل' فحدستُ أنها هى الرئيسة الحقيقية للحشد ، وأن الصائحة الأولى كانت 'ندّابة' وحسب ، وبعد ثوان قالت 'الجبل' : "ربنا بيقول اعتدوا بمثل ما اعتدوا عليكم ! لكن الراجل ما اعتداش ! ده غُلُط وحيصلّح غلطته ! إياك حد يمد إيده ع العربية !" وتنفستُ الصعداء .

ونهضت الجبل ، وكان اسمها أم ياسين ، بصعوبة ، وإن كانت لم تتجاوز منتصف العمر وفى وجهها آثار ملاحة قديمة لا تخطئها العين ، ودَخَلَتْ السيارة غير مدعوّة ، والجميع يساعدونها ، ودخل إلى جوارها مكاوى (والد مرفت) فى المقعد الخلفى ، وجلس كاتب المحامى إلى جوارى ، واتجهنا إلى المكتب حيث هبط الجميع بسلام ، وقالت أم ياسين لمكاوى قبل أن تفارقنا "ابقى عدّى علىّ بعدين .. فاهم ؟" ومضت إلى داخل القرية ، واتجهنا نحن إلى المكتب ، حيث فاوضنى المحامى حول المبلغ المطلوب لإرضاء الأب وتعويضة عما أصاب ابنته، وكان معى والحمد لله ما يكفى فدفعته له ، ووعدت الاثنين بالمرور على العزيزة مرفت فى الصباح للاطمئنان على صحتها .

وعدت إلى المنزل فلم أجد نهاد ، ولا سارة ، فحدست أنهما فى منزل أصهارى فى شبرا فقصصت عليهما فى التليفون ما حدث ، ثم كلمت صديقى المستشار أحمد السودة واعتذرت له عن عدم الحضور وقلت له إن كاتب المحامى يريد أن يحيل المسألة إلى قضية كبرى ، فطمأننى وشرح لى الوضع القانونى ، وظللت حتى ساعة متأخرة من الليل أتمثل أحداث المساء، ظانًا أن علاقتى بالحادث قد انتهت إلى الأبد !

وفى الصباح ذهبت إلى المستشفى ، فرأيت مرفت تشرب عصير برتقال فتفاءلت ، ولكن طبيبًا يلبس جهاز سمع فى أذنه قال لى إنه لا يستطيع إخراجها من المستشفى الآن حتى تصبح - على حد تعبيره - "مائة فى المائة !" وقابلنى والدها ، وقد زال عنه العرج فسألته عن سر العرج المؤقت بالأمس ، فقال إنه يعانى من مرض عصبى يصيبه بالعرج حين 'يتوتر'، ولكن العرج يزول بزوال التوتر ! وقال لى إن كاتب المحامى تقاسم معه مبلغ الترضية ، وإنه

ينتوى طلب المزيد ، بل وحضّه على عدم إخراج ابنته من المستشفى حتى يرى ما يمكن عمله . وقال له بالحرف الواحد "كبّر مخك واسمع كلامى .. وأهو خير لىّ ولك !" وسألته إن كان قد وافقه على ذلك فقال إنه يعمل نجارًا (نجار مسلّح) وإن حركة البناء ليست مزدهرة ، وكلما حصل على عمل وبدأ ممارسته اعتاده التوتر والعرج فطرده المقاول ! ورجانى أن أبحث له عن عمل عند مقاول "يعرف ربنا" ولا يفصله بسبب عرجه ، فوعدته خيرًا وتركته وانصرفت .

وعندما ذهبت إلى الكلية قصصت القصة بتفاصيلها للمرة الثالثة على الدكتورة سلوى كامل فقالت لى إن القانون لا يسائلك إذا كان الطفل يقل سنه عن سبع سنين ، ولا يستطيع أحد أن ينالك بأذى ، ودَخَلَتْ الغرفة الدكتورة مها فتحى السعيد ، تلميذتى العزيزة ، فلخصت لها القصة من جديد فقالت إن للأسرة صديقًا يعمل 'رئيس أطباء' فى تلك المستشفى ، وإنها سوف تسأله أن يخبرها بحقيقة الحالة فى بداية 'ورديته' فى الثانية ظهرًا . وفى الثالثة رن جرس التليفون وقالت لى مها إن الطبيب قال إن مرفت قد تماثلت تمامًا للشفاء ، وإنه صرح بخروجها ، ولكن الطبيب رجاه استبقاءها يومًا آخر بناء على توسلات الأسرة وكاتب المحامى! وفرحتُ بشفاء الطفلة وتأكدتُ من النجاة ، وقررتُ تجاهل كاتب المحامى ، وعندما عدت فى المساء وجدت رسالة مسجلة على جهاز تسجيل المكالمات التليفونية يقول فيها ذلك الكاتب إنه يستطيع "تحريك القضية والأفضل لى أن أمر عليه حسب الاتفاق !"

وفضّلت ألا أمرّ عليه حتى تخرج مرفت من المستشفى ، فذهبت فى الصباح ، وانتظرت حتى خرجت ماشية تريد أن تجرى وتلعب ، وودعتُ أباها ، وطلبتُ منه أن يمرّ علىّ حتى أجيبه إلى مطلبه ، وافترقنا ، ثم ذهبتُ إلى كاتب المحامى ، ولم يكن موجودًا بالمكتب ، فسألت عنه فقيل له إنه فى المحكمة – وسألنى كاتب آخر عما أريد فقلت إننى أريد مقابلة المحامى – وكان موجودًا – ففتح لى الباب ودخلتُ وسلّمتُ ، وقصصتُ عليه القصة فضحك وسألنى عن المبلغ الذى دفعته فلم أشأ أن أفصح فبدا عليه الحزن وقال إن تلك آفة من آفات المهنة ، وطلب منى أن أنسى الموضوع وخرجت .

وبعد نحو أسبوع مر علىّ 'مكاوى' وقال إن أم ياسين تريد أن تقابلنى ، فقلت له إننى سوف أبلغ الشرطة إذا لجأ إلى الابتزاز ، وإننى لن أدفع له أو لها أى مليم بعد الآن ، وكنت حاد اللهجة بعد أن استشرت الجميع وتبين لى أن الرقة أحيانًا (فى غير موضعها – كما يقول المتنبى –) مضرة فتراجع عن مطلبه ومضى لحال سبيله .

وانتهى الصيف وكدت أنسى الحادثة ، حتى جاء يوم تعطلت فيه السيارة بسبب نفاد الهواء من إحدى عجلاتها أمام القرية . فنزلت وطلبت من أصحاب محل 'عجلاتى' هناك تغيير الإطار وإصلاح الإطار القديم ، وكنا فى نحو العاشرة صباحًا ، ووقفت أنتظر الانتهاء من 'المهمة' ، حين وجدتنى وجهًا لوجه أمام 'أم ياسين !' ووجدت ترحابًا لم أتوقعه وجَوًّا من المودة والألفة يتناقض كل التناقض مع ما شهدته فى المستشفى منذ شهور ! وأصرت أم ياسين على أن أشرب الشاى ، وقبل أن أعترض كان الشاى قد حضر ، ووُضع كرسيان فى مدخل الحارة ، ولم أجد بدًا من شرب الشاى ، وانطلقت أم ياسين تتكلم ، وكان حديثها زاخرًا بالقصص المسلية ، والاقتباسات الحافلة بالأخطاء النحوية من الأحاديث النبوية (والآيات القرآنية أحيانًا) وبعد ساعة تقريبًا تمكنتُ من الرحيل ، وكان على أن أسجل فى مفكرتى بعض ما قَصَّتْهُ علىّ ، وما أصبح مادة لمسرحيتى التالية كيلو بودرة !

وكان من عادة أم ياسين أن تجلس فى صباح كل يوم ، مهما تكن حالة الطقس ، أمام منزلها داخل الحارة ، وأن تخرج إلى بعض محلات ميكانيكية السيارات ، والسمكرية ، والعجلاتية ، وتحادث هذا وذاك ، وكنت عندما حادثتها فى أكتوبر ذكرت لها الكتب التى ننشرها وكان من بينها موجز سيرة ابن هشام ، فطلبت الكتاب منى ، وكان ذلك بداية لعادتى فى إهدائها سلسلة الكتب الدينية التى تصدرها مكتبة الأسرة والاستماع إلى قصصها ، واستمرت هذه العادة حتى وقت قريب ، حين علمت أنها سافرت إلى بلد عربى شقيق يعمل فيه أحد أبنائها ، وإن كنت لا أدرى هل هو ياسين أم سواه ، فتوقفت عن زيارة القرية ، وإن كانت قصص أم 'ياسين' ، والألفاظ التى استخدمتها فى روايتها لا تزال تمثل رصيدًا حافلاً من المادة الإنسانية الحقيقية !



'المادة الإنسانية ؟' تراها ما تكون ؟ إنها المادة الأولية الصادقة التى يستمد منها كل أديب عناصر أدبه ، وهى أولية بمعنى أنها الأصل الذى قد يكون كامل التشكيل ولا يحتاج إلى إعادة تشكيل فى العمل الفنى ، وكانت أم ياسين مادة جاهزة ، فهى امرأة تستطيع القراءة

والكتابة ، فى قرية تتكون فى معظمها من الأميين ، أو ممن تركوا الدراسة لأسباب اجتماعية محضة ، فالكل يعمل من سن مبكرة ، والكل يؤمن بما تقوله أم ياسين فهى ، بتعبير علماء الاجتماع ، من زعماء المجتمع المحلى ، وهى ذات فكر فردى مستقل يحسدها عليه أقطاب دعاة الفردية فى الغرب .

وتصادف أن أُعْلِنَ فوزى بجائزة بن تركى (السعودية) للترجمة الانجليزية ، وكان المحكمون (فى اللجنة التى عقدت جلساتها فى عمان) خليطًا من العرب والأجانب ، لأن النصوص التى قدمتُها كانت انجليزية ، فى الوقت الذى توثقت فيه علاقاتى بمحروس كهربائى السيارات ، الذى يعمل فى ورشة مجاورة لمنزل أم ياسين ، فوجدته متهللاً عندما زرته كأنما علم بفوزى بالجائزة (نوفمبر ١٩٩٨) وأرسل أحد العاملين من الأطفال لديه لاستدعاء ' الرئيسة' ، وكنا فى الصباح الباكر نسبيًا ولكنها جاءت على الفور ، وجلسنا نشرب الشاى ، وسرعان ما انتقل الحديث من الجائزة السعودية إلى السعودية نفسها التى أصبحت حلمًا لكل المصريين ، ثم انتقل إلى نقد المجتمع الحديث الذى عقّد العلاقات الإنسانية بالنظم المدنية ، وأنا أترجم أقاصيص أم ياسين هنا إلى لغة ' المثقفين' ، أى إننى ألخص الفكر الكامن فى تلك الأقاصيص وأشرحه ، فهو الفكر الجديد الذى ساد ، وأصبح يمثل قوة لا يستهان بها فى مجتمعنا .

كانت أم ياسين تؤمن تمامًا بالحرية ، وهى الحرية التى يتيحها - كما تقول - شرع الله الذى يأمرنا بالزواج فى سن مبكرة ، لأن تأخير الزواج معناه إهدار الطاقة البشرية ، وكبت لقوى الإنسان الإبداعية ، ولذلك فإن الزواج عندها واجب يتمتع بالأولوية القصوى ، فهو تحقيق لذات الأنثى فى الأمومة وللرجل فى ' المتعة' ، وأما العمل فالكل يعمل منذ الصغر ، وعمل المنزل لا يقل أهمية عن عمل الدكان أو الورشة أو التجارة ، وأما المساواة التى يتحدثون عنها فهى - فى نظرها - مفارقة من مفارقات العصر الحديث ، فما دمنا نتحدث عن اختلاف الجنسين ونُقِرُّ بتفاوتهما فمن العبث أن نلغى أو نعارض 'خلقة ربنا' فنعطى عمل هذا لتلك ، وعمل تلك لهذا ، فالجنسان يعملان وهما يكملان بعضهما بعضًا .

كنت أحس أننى أستمع إلى حجج سلفية تخطاها المجتمع الحديث ، ولكن ما أورده هنا هو ملخص مجرد ، تجرد من الحقائق الواقعية فى قصصها ، وهو لذلك غير جذاب ، أما

حين يكتسى تلك الحقائق - على نحو ما يحدث فى قصة محسن (ابنها) وزبيدة زوجته ، فإن الأفكار فيه تكتسى طرافة وسحرًا . قالت أم ياسين :

"الناس يختلف بعضها عن بعض ، وفحولة الرجال تتفاوت ، فإذا كانت زائدة عند البعض ، كما هى عند 'محسن' ابنى الثانى ، كان لابد له من زوجة ثانية ، وهو سروجى سيارات "كسيب" ، والحديث يقول 'الكاسب حبيب الرحمن' ، ولذلك أحسست بأن 'زبيدة' مرهقة ، فاخترت له زوجة ثانية ، وسرعان ما نشأت الصداقة بين الزوجتين ، حتى لكأن زبيدة أخت هدى ! وقد أنجب منهما ذرية صالحة ، وهم يعيشون جميعًا تحت سقف واحد ، فإذا سافر إلى ليبيا مثلاً أخذهما معًا ، فهو يحبهما حبًا جمًا ، ولا يستطيع البعد عنهما يومًا واحدًا ! وسوف أريك محسن ولك أن تسأله بنفسك ! أما الغيرة فهى تنشأ من حب الامتلاك ، أو مد النظر إلى 'ما متعنا به أزواج غيرك' - كما يقول ربنا - وهذا حرام ! والأبناء من الزوجتين كالأشقاء تمامًا ، فهم يتركون المدرسة فى سن الثانية عشرة ، ويبدأون العمل ، وإن هى إلا سنوات حتى يصلوا إلى سن الزواج !"

وتذكرت ما تقوله الأمم المتحدة عن عمالة الأطفال وتحريمها بل وتجريمها ، ولكننى كنت أطّلع على عالم قديم يعيش حيًا نابضًا ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين ، وذكرت قصص حسن المخرج ، وبدأت أناقش ما درجت عليه من أفكار ، وذات يوم فى ديسمبر جلست أستمع إلى أم ياسين من جديد ، وكان رمضان على الأبواب ، وكانت القرية تستعد له، وكان بعض العمال يجلسون ومعهم أدواتهم (أدوات النجارة) عند تقاطع شارع وادى النيل مع شارع ٢٦ يوليو فى انتظار مقاولى الأنفار الذين يصطحبونهم إلى العمل باليومية ، وهم من كان جمال عبد الناصر يشغل نفسه بهم فى الزمن الغابر (عمال التراحيل) وكانت سيارتى تتطلب عملاً كثيرًا ، فجلست ومعى 'هدية رمضان' لها ، وكنت أعتزم السفر إلى الولايات المتحدة فى الشتاء وفى الربيع ، ولم أشأ أن أترك سيارتى عاطلة ، فجلست جلسة أخرى سمعت فيها قصة محمود .

كان محمود من أبناء القرية وكان نابهًا متفوقًا فى دراسته فتخرج فى كلية الطب بعد سنوات من تعاون أهل القرية فى تحمل نفقات تعليمه ، ولم يشأ أن يعمل فى الحكومة بل أنشأ لنفسه 'عيادة' تولى تجهيزها من دخله الخاص بأحدث المعدات ، وكان مخلصًا لمن ساعدوه وآزروه طيلة أيام 'كفاحه' فلم يكن يتقاضى أجرًا عن علاج أيهم ، بل إنه رد لهم ما أنفقوه

أضعافًا مضاعفة . ولمع نجمه وبدأ الجمهور يتزاحم على عيادته ، فهو أمهر طبيب أطفال فى المنطقة ، وكثيرًا ما كان يسافر إلى الاسكندرية للحديث مع بعض الأساتذة هناك ، فهم - فى زعمه - أمهر من أساتذة القاهرة ، ولكنه فى خضم النجاح اكتسب عادات الطبقة الوسطى وأراد الزواج من فتاة مثقفة (ألافرانكة) وكانت فى ذلك - كما تقول أم ياسين - سقطته ! فسرعان ما أدركت إحدى المترددات على عيادته أنه يديم النظر إلى ابنتها التى وصفتها بأنها 'دبلوماسية' المظهر ، أى تلبس الملابس الإفرنجية وتضع منظارًا على عينيها ، وتتكلم لغة تختلط فيها العبارات العربية بالكلمات الانجليزية ، وفى غضون شهر واحد كان الزواج قد تم، فاشترى لنفسه شقة فى المبنى الذى تقع فيه العيادة ، ودفع مقدمًا لصاحبها مبلغ مائة ألف جنيه!

وسهرت القرية كلها فى ليلة الفرح ، وكان الجميع 'فرحين' مستبشرين ، إلا أم ياسين - فهى - كما تقول - لم تكن سعيدة بتلك الزيجة ، وكان قلبها يحدثها بأنها لن تنجح ، وكانت تعرف أن فتاة أخرى من فتيات القرية تريد محمودًا ''بدليل أنها رفضت الزواج أكثر من مرة'' ولم تكن تتحدث إلا عنه ! وقالت أم ياسين إنها تؤمن بالقدر ، ''ومن ذا الذى ينكر القدر ؟'' وبأن العالم الذى نعيش فيه تتحكم فيه قوى أخرى لا نعرفها ، قد تكون قوى الجن ، وقد تكون قوى أخرى ، ولكن تلك الفتاة التى اتهمها الكثيرون بالبلاهة ، كانت فى الحقيقة 'شيخة' (وفهمت من ذلك ما هو معروف عن 'المجاذيب') وبعد عام كامل طلبت الزوجة 'الدبلوماسية' الطلاق من زوجها .

وتعددت الشائعات - تقول أم ياسين - عن أسباب الطلاق ، ولكن السبب كان واضحًا لها، وهو أن الدكتور لم يستطع 'إتمامه' ، ولم تمض أيام حتى عرف أهل الشيخة أنها حامل ، وأن والد الطفل هو محمود (وتذكرت فيلم أنطونيو الجميل الإيطالى - بطولة مارسيللو ماسترويانى وكلوديا كاردينالى) وكان معنى ذلك - تقول أم ياسين - أنه تزوجها !

وسألتها : تزوجها قبل الحمل ؟ فقالت طبعًا ! فقلت : كيف ذلك دون أن يدرى أحد ؟ فانطلقت تقول إننى مثل سائر الأفندية أتصور أن الزواج لا يقع إلا بعقد مكتوب ، وهذه خرافة - على نحو ما أثبتت تجربة زواج الدكتور بالدبلوماسية ! ''إنكم تعبدون الأوراق ! وهذا كفر! الزواج هو الرضا والإعلان !'' وقلت لها : وهل حدث الإعلان ؟ فقالت بلهجة استنكار : وهل

هناك إعلان أكثر من الحمل ؟ لقد نجح محمود معها فى حين أنه أخفق مع 'الدبلوماسية' التى كان زواجها ورقًا فى ورق !

وتصورت أنها ستقص علىّ المزيد من جرعات السعادة التى جرعها محمود ، ولم أكن سألتها عن تواريخ تلك الأحداث ، إذ كانت تقصها كأنما هى آنيّة ، فسألتها إن كانا يعيشان الآن فى هناء ، فقالت فى أسى وهى تمصمص بشفتيها : ''حسرة على محمود واللى جراله'' ثم انطلقت تحكى :

''كانت 'الشيخة' تنتابها نوبات خاصة، ولم نكن نعرف إن كانت تخاوى الجن أم لا، ولكنها كانت تطلب منه طلبات خاصة فى تلك النوبات ، فيأتى لها بها ، وانتهى الأمر بأن بدأ يعطيها حبوبًا خاصة ، وكانت تتميز بالكرم فكانت تعطيها لمن يطلبها ، ولم ينقض عام واحد على مولد الطفل ، وهى بنت كالقمر ، عبناها خضروان ، حتى ألقت الشرطة القبض على محمود ولفقت له تهمة الاتجار فى الحبوب المخدرة ، وحكموا عليه بالسجن !''

فسألتها ومتى كان ذلك ؟ فقالت من عشر سنوات ! وأضافت ''سمعنا أنه خرج من السجن فى العيد ، ولكننا لم نسمع عنه أخبارًا مؤكدة ، والمرجح أنه سافر إلى أوروبا ، إذ كان دائم الحديث عن أصدقائه فى بلاده بره !''

وقلت فى نفسى إنها قصة من قصص الحياة التى تنشرها الأهرام يوم الجمعة عند عبد الوهاب مطاوع ، ولكن فيها مغاليق لا تزال تستعصى على الفهم ، فقلت أستزيدها : وأين الفتاة ؟ فقالت : ''بسم الله ما شاء الله ! فلقة قمر ! الأولى فى المدرسة ! لكن عريسها مستنىّ! ما فيش جامعة ولا كلام من ده !'' فسألت وأمها ؟ فضحكت وقالت ''جالها السعد يا خويا ! اتجوزت مهندس وراحت السعودية ! ربنا يهنيها زى ما ملت عيشته هنا !'' ورأت أننى لا أشاركها الضحك فقالت :'' الجن بتوعها مؤمنين ! تانى يوم اتجوزته جاله عقد عمل وفى شهر كانوا مسافرين !'' فعدت أستفسر : ''الجن بتوعها ؟'' فقالت بلهجة جادة : ''حضرتك متعلم وعارف إن فيهم مؤمنين وبيعرفوا ربنا ! أهم وقفوا معاها للآخر ! وده جزاة ما عملت .. كل خير !'' ثم همست فى نبرة إعزاز ''تحب تشوف نوران ؟ دى يا أرض احفظى ما عليكى !'' واعتذرتُ ونهضت . وكان عام ١٩٩٨ ما زال يخفى مفاجآت أخرى !

كان الدكتور عبد العزيز حمودة قد نشر كتابه المرايا المحدبة وهو الذى هاجم فيه النظرية النقدية الحديثة هجومًا ضاريًا ، مثلما هاجمها الكثيرون من أبناء أوروبا ، ولكننا كنا

للأسف ولا نزال نقدس كل ما هو مستورد ، فتبناها بعض العرب وتصوروا أنها السبيل الأقوم لفهم الأدب والكتابة بل والفكر الإنسانى ، غافلين عما تبطنه من ارتباط عميق بفلسفات الغرب الحديثة التى عميت عن منطق الروح تمامًا ، ولم تعد تتوسل إلا بمنطق الحواس . وكان ما شغلنى شخصيًا فى كتاب المصطلحات الأدبية الحديثة (١٩٩٦) هو سوء فهم الشباب بل وبعض المشتغلين بالنقد من الكبار أيضًا لبعض مصطلحات هذه النظرية وتداولها بالحق وبالباطل ، ولذلك حاولت - كما قلت فى فصل سابق - شرح هذه المصطلحات وإلقاء الضوء عليها فى سياق المدارس المختلفة المنبثقة عن النظرية الحديثة ، ولكن الدكتور حمودة لم يكتف بالشرح والإيضاح بل انقض على النظرية الحديثة انقضاض العُقاب فمزقها تمزيقًا ، وتعرض فى غضون ذلك لدعاتها ، وللدكتور جابر عصفور ، وهو من هو ، فوقعت معركة أدبية وفكرية شابتها لمسات شخصية (أعافها) فى مجلة أخبار الأدب وفرح جمال الغيطانى بالمعركة لأنها أنعشت توزيع المجلة ، فلا أَحَبَّ للقراء - فى كل زمان ومكان - من التراشق بالاتهامات بين الكتّاب مهما تكن مستوياتها ، ولكن المعركة أحدثت شرخًا لا شك فيه فى حياتنا الأدبية ، وعندما عقدنا مؤتمرنا الدولى للأدب المقارن فى ديسمبر ١٩٩٨ لم يحضره حمودة ولا عصفور.

واتسع الشرخ فأصبح يشبه الشق الواضح ، وإن كان ذلك لا يعبر عن حقيقة الواقع الأدبى. كما بين ذلك الدكتور شكرى عياد فى كتابه عن المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين ، فنحن مهما نقلنا ومهما تظاهرنا بالقطيعة مع التراث لا نزال نرتبط به أشد ارتباط ، ولا أستطيع أن أجد عربيًا ، مهما كانت درجة الحداثة التى يدعيها ، لا يحمل فى أعماقه تاريخنا الطويل وتراث اللغة العربية الذى هو تراث ثقافتنا ومحور هويتنا القومية .

وصدر لى فى عام ١٩٩٨ الجزء الأول من سيرتى الذاتية الأدبية واحات العمر فتقبله القراء بقبول حسن ، وكان صدوره بداية انشغالى برحلة الحياة الحافلة التى عشتها فى رشيد ولندن والقاهرة ، وكان لابد أن يتلوه جزء ثانٍ ، بدأت أكتبه على الفور وأنا فى الولايات المتحدة، أتولى تدريس الشعر البريطانى والعربى للطلاب ، وكان ذلك فى فبراير ١٩٩٩ ، وهو آخر عام لى فى رئاستى القسم ، لأنه كان عام التقاعد عن المناصب الرسمية ، (سن المعاش) واجتهدت فى إتمامه حتى صدر بعنوان واحات الغربة فى غضون ١٩٩٩ أيضًا ، وفاز بجائزة أحسن كتاب فى السيرة الذاتية فى معرض القاهرة الدولى للكتاب فى يناير عام ٢٠٠٠ !

ولكن عام ١٩٩٨ كان أيضًا عام اكتشاف الشعراء الشبان ، وقصيدة النثر ، والعام الذى ترجمت فيه المزيد من مسرحيات شيكسبير ، فصدرت لى هنرى الثامن وريتشارد الثانى ، كما شاركت الدكتورة فاطمة نصر فى ترجمة الكتاب الثانى لكارين أرمسترونج بعنوان القدس : مدينة واحدة وعقائد ثلاث ، فكان عام عمل متواصل ، وكان فى ذهنى طول الوقت ما سمعته وعرفته من أم ياسين ! لم تكن 'المادة الإنسانية' قد اتخذت بعد شكلاً فنيًا ، بل كانت تتحول وتتشكل فى أعماقى !

٩

لم أكن أتصور أن من بين الأمريكيين من يعشق الشعر العربى المعاصر إلى هذه الدرجة ، وقد اكتشفت مدى هذا الحب حين بدأ العمل فى جامعة بتسبيرج مع حفنة من دارسى الأدب المقارن ، فقدمت لهم بعض الدواوين التى كنت ترجمتها للمعاصرين ، إلى جانب الذى كانوا يعرفونه عن الأدب العربى (من خلال المستشرقين) ثم قدمنى البروفسور ريتشارد توبياس إلى الزملاء من أعضاء هيئة التدريس ، الذين تخاطفوا ما كنت أحمله معى من كتب عن الأدب العربى بالانجليزية . وبعد أسبوعين فى فبراير ١٩٩٩ عدت إلى مصر بثروة من الكتب وحصاد وفير من الأفكار ، أهمها هو أن الغربيين لا يتعاطفون مع العرب سياسيًا لأن العرب يتقاعسون، على ما فى أيديهم من أسباب القوة ، عن تغيير صورتهم فى الغرب بأنجع الأساليب المتاحة وهو الحضور أو الوجود الثقافى ، وأما أيسر سبله فهو الأدب الحديث ، فهو المرآة الصادقة لحياة المجتمع وفكره الحىّ .

وعندما سافرت للمرة الثانية عام ١٩٩٩ عدت بأفكار أشد وضوحًا عن تسويق الأدب العربى فى الخارج . معظم دور النشر الكبرى فى أوروبا وأمريكا لا تقبل على نشر كتب قد تكبدها خسائر مادية ، إلا إذا كانت كتبًا علمية جديرة 'بالتضحية' بمعنى أن تكون كتبًا 'تصنع التاريخ' ، ولذلك فقد تحجم دور النشر الكبرى عن نشر الأدب العربى المترجم إلا إذا تعهدت دار نشر عربية بتغطية بعض التكاليف ، وبشرط أن يجيز محررو الدار النصوص المقترح نشرها ، وقد تكون 'التغطية' فى صورة شراء ألف نسخة مثلا لتوزيعها محليًا ، كما

حدث فى حالة ترجمة رواية اليد السفلى للكاتب السعودى عبده يمانى ، التى اشتركت أنا ونهاد زوجتى فى ترجمتها فى أواخر السبعينيات وصدرت بعنوان A Boy from Mecca عن دار نشر ماكميلان الانجليزية . وكما حدث فى ترجمة بعض عيون الأدب العربى الصادرة قبلها عن دار لونجمان البريطانية . ولذلك تصورت أن تخصص جامعة الدول العربية بعض المال لنشر المترجمات إلى اللغات الأوروبية بأقلام أبناء العربية، دون انتظار للمستشرقين ، وما أقل من يعرف منهم كنوز الأدب العربى المعاصر ! والذى يحدث حاليًا هو أن الترجمة تعتمد على جهود فردية ، وأكاد أقول 'شخصية' ، فتجد فى أسواق الغرب كتبًا لكتاب ليسوا من بين طليعة كتاب العالم العربى ، وقد يكون اختيارهم على أسس سياسية أو اجتماعية ، أى إن الاختيار قد لا يقع على من يتميز أدبيًا من كتاب جيله .

وقد تأكد لى ذلك عند صدور موسوعة الترجمة الأدبية إلى الانجليزية عام ٢٠٠٠ ، وهى تتكون من مجلدين بالغى الضخامة ، لا يحتل الأدب العربى فيها إلا مكانًا هامشيًا بين آداب العالم ، وكنت ذات يوم قد فزعت من كتاب أصدرته سلسلة بنجوين البريطانية بعنوان الشعر العربى المعاصر مترجمًا بقلم يمنى هو عبد الله العُذرى ، ولا يتضمن قصيدة مصرية واحدة ! وفى غضون عام ١٩٩٩ خطر لى أن أقدم الجيل الجديد من الشعراء الشبان المتمردين على كل شىء ، وكانوا يطلقون على أنفسهم ألقابًا مستفزة مثل 'الجراد' أو إضاءة كذا ، وما إلى ذلك ، إذ وجدت أنهم يمثلون تيارًا لا يمكن تجاهله فى الأدب العربى الحديث ، وطلبت من محمد متولى - زوج ابنتى - أن يختار لى عددًا من القصائد ففعل ، وترجمتها ولكن الكتاب لم ينشر إلا بعد عامين ! كما ترجمت ديوانًا صغيرًا لفاروق جويدة بعنوان لو أننا لم نفترق ونشر فى العام التالى .

فى صيف ١٩٩٩ حضر البروفسور ريتشارد توبياس لمناقشة رسالة دكتوراه أشرف عليها عن شاعر بريطانى معاصر هو أنتونى ثويت ، وشارك فى المناقشة من مصر صديقى ماهر شفيق فريد والدكتور شبل الكومى ، أستاذ الشعر العظيم الذى كان وكيلا لكلية الألسن ثم أصبح عميدًا لكلية الألسن بجامعة مصر الدولية . وكان الطالب محمد سعيد أحمد على تلميذًا لى فى الماجستير أيضًا ، وناقشته فى قنا قبل عدة أعوام ، فدعانا بعد مناقشة الدكتوراه إلى العشاء فى مطعم فى شارع النيل بالجيزة ، وتطرق الحديث للمجال الذى يعمل فيه الأستاذ فقال البروفسور إنه أدرج دراستى عن ماثيو أرنولد ونظرته إلى أسلوب وردزورث

فى قائمة المراجع الخاصة بالعصر الفكتورى ، وتشعب الحديث واتفقنا على أن أعود إلى أمريكا فى العام التالى .

كان عام ١٩٩٩ - كما قلت - آخر عام أقضيه رئيسًا للقسم ، وبدأت أشعر كيف يتحول الناس عنّى بعد أن "هلك عنى سلطانيه" ، وكنت أعرف أن ذلك احتمال قائم ، ولكن بلوغ سن المعاش (التقاعد) لم يكن يعنى شيئًا لى ، فلا أزال قادرًا على العمل ، وكانت بعض مشروعاتى ما زالت تنتظر الاستكمال ، مثل معجم مختصرات اللغة الانجليزية (معجم المترجم) والمعجم الآخر الذى أعمل فيه بجد عن الكلمات الجديدة التى دخلت اللغة الانجليزية فى الربع الأخير من القرن العشرين . ولم أكن قد انتهيت من ترجمة الفردوس المفقود ولا من ترجمة روائع شيكسبير ، وكانت الشهور التى أقضيها فى إعداد بعض سلاسل مكتبة الأسرة تبتلعنى تمامًا ، وكان أول من يدرك ذلك هو صديقى المستشار أحمد السودة ، وصديقى ماهر ، وزوجتى نهاد التى كانت كثيرًا ما تحثنى على الخروج مساءً لارتياد المسارح معها .

كان لدىّ ما يشغلنى حقًا ، ولكننى مع ذلك شعرت بوخزة ألم دفين حين تكأكأت بعض عضوات هيئة التدريس فى قسمنا لتأكيد زوال السلطان ، وتبدّى ذلك ذات يوم أثناء مناقشة الموضوع الذى كنا اتفقنا عليه للمؤتمر التالى (عام ٢٠٠٠) للأدب المقارن ، وهو الحداثية وما بعدها ، إذ اكتشفت أنهن كن قد عقدن اجتماعًا لم أُدع إليه واتفقن على أن يكون الموضوع خطاب السلطة (discourse of power) وعجبت لذلك الانقلاب ! وكان ماهر شفيق فريد حاضرًا أثناء تلك المناقشة فدهش ولكنه لم يكتم دهشته تلك المرة بل دافع عن الموضوع المتفق عليه سلفًا ونبّههنّ إلى ضرورة احترام قرارات مجلس القسم حتى بعد تغيير رئيسه ، وتصورت أن الأمور قد عادت إلى نصابها ، ولكن تيارات أخرى كانت ما تزال تجرى فى الظلام !.

وقررت الإقلاع عن محاولة التغيير ، فالأفضل أن أترك القسم لمن خلفنى ، وكانت سيدة فاضلة ، طيبة القلب ، دمثة الخلق ، هى الدكتور جليلة آن عبد المنعم راغب ، وقال لى عبد العزيز حمودة ، الذى كان قد أصبح عميدًا لكلية الآداب ونائبًا لرئيس جامعة ٦ أكتوبر ، إنه ذكر لها ضرورة التصدى للتيارات الخفية وإنها يجب أن تتحلى 'بالقوة' "مثل محمد عنانى"، وابتسمت فى أعماقى ، فالقوة ليست حلية يُتحلّى بها ، وإذا كنت قويًا ، كما يقول، فقد كان مرد هذه الصفة ، التى لا أزعمها لنفسى ، إصرارى على إجابة مطالب الجميع ، وإتاحة

الفرصة للجيل الجديد كى يشارك فى الحياة الثقافية خارج الجامعة ، ولم يكن الكثيرون من أعضاء الجيل القديم بقادرين على ذلك . وفى يونيو ١٩٩٩ فزت بجائزة الدولة للتفوق فى الآداب .

احتجبت عمدًا حتى يجد القسم طريقًا جديدًا ، وكانت المياه البيضاء فى عينى اليمنى قد بدأت تحد من قراءاتى ، فقررت إجراء العملية ، وأُجريت العملية فعلاً فى أوائل نوفمبر ١٩٩٩ ، وقد أجراها لى طبيب عبقرى هو الدكتور ممتاز حجازى ، فى مستشفى قصر العينى الجديد (الذى يسمى الفرنساوى) . ولم يمض أسبوعان حتى تماثلت للشفاء ، ولكننى التزمت بنصائح الطبيب ، وكان رمضان قد أتى ، فاعتكفت وعدت إلى القراءة بعينى اليسرى طوال رمضان ، وما إن حل العيد حتى كنت قد استعدت بصرى بأحدَّ مما كان عليه قبل الاستعانة بالنظارة الطبية !

وفى يناير ٢٠٠٠ كان محمود الألفى ، المخرج الفذ ، قد انتهى من الاستعداد لتقديم الدرويش والغازية على مسرح السلام ، كأول إنتاج فى الموسم لفرقة المسرح الحديث ، وأصرت البطلة فريدة سيف النصر على أن يكون العنوان هو الغازية والدرويش ، بتقديم البطلة على البطل ، ولم أمانع ، وكان الذى يشاركها البطولة سامى العدل ، فلم يمانع أيضًا ، ووضع الموسيقى محمد عزت ، وهو ملحّن موهوب ، وكانت الأغانى هى التى كتبتها فى النص ، وكانت تلك هى المرة الخامسة (بعد زوجات مرحات والمجاذيب والغربان، وجاسوس فى قصر السلطان) التى لا يستعين فيها المخرج بشاعر محترف لإضافة أغانٍ إلى النص . ففى معظم العروض المسرحية المعاصرة ، يقوم المخرج - بصورة أوتوماتيكية - باستدعاء زجال محترف لكتابة الأغانى . وأذكر أن المرة الأولى كانت فى مسرحيتى البر الغربى عام ١٩٦٤ وكان الشاعر هو الفنان الكبير عبد الفتاح مصطفى ، والمرة الأخيرة فى إخراج الثقافة الجماهيرية (حافظ أحمد حافظ) للمسرحية نفسها عام ١٩٩٦ وإن كنت لا أذكر اسم الشاعر المغمور الذى استدعاه حافظ !

حاولت بعد شفائى من العملية أن أعود إلى أداء واجباتى فى التعليم المفتوح وكان أهمها إعداد الكتب الدراسية اللازمة للطلاب ، فشغلت بذلك فى مطلع العام ، واجتهدت فى أن أقدم المادة العلمية بأسلوب سلس يسير المأخذ ، وكانت المادة تحمل اسم نصوص أدبية

بالانجليزية، ولكننى رأيت أن تقديم النصوص وحدها لن يزيد من خبرة دارس الترجمة ، وربما كان يمثل انقطاعًا فى مسيرة اكتساب الخبرات اللازمة ، فأحببت أن أضيف إلى العنوان عبارة "للمترجم" ، و ووفق على ذلك فاستعنت بالدكتور ماهر شفيق فريد الذى أتى لى بنماذج منوعة من ترجمات **ثلاثة أجيال من** مترجمينا العرب على امتداد القرن العشرين كله . وبدأت العمل المضنى الشاق فى **تحليل النصوص الأصلية** ، ووضع الأسئلة التى تعين الطالب على استيعابها ، ومن بعد ذلك **تأتى مرحلة أخطر وهى** اختيار منهج الترجمة المناسب لها ، وشرحه، وبعد ذلك أدرجت **الترجمات العربية** فى ذيل الكتاب للاسترشاد بها ، ومقارنة أداء الطلاب بأداء كبار مترجمى القرن . ولكننى لم أنشر الكتاب بعد ، وهو لا يعدو كونه من **الوسائل التعليمية** حاليًا ، وأتمنى أن أنشره ، بجزئيه مع الكتاب الحديد الذى أنجزته عام ٢٠٠١ عن الترجمة الأدبية (بالانجليزية) .

كنت فى عام ١٩٩٩ قد أعددت كتابًا عن المعاجم اللازمة للمترجم ، وفى غضون ذلك كتبت دراسة (بالانجليزية) عن مفهوم الترجمة الأدبية استنادًا إلى نظرية الترجمة الوظيفية وهى أحدث النظريات قاطبة ، أقول فيها إنه لا يوجد نص مطلق ، أى إنه من المحال القول بأن نصًا ما ، بلغة ما ، يقابله نص أوحد ثابت بلغة أخرى ، فلا الكلمات تتطابق تطابقًا تامًا (وهذا ما اهتدى إليه علم الدلالة الحديث) ، ولا التراكيب ، (وهذا ما يؤكده علم اللغة) ولا الثقافة الخاصة لكل من اللغتين ، وهو ما أكدته فى دراستى ، مبينًا البعد الزمنى الذى يجعل للعربية مستوياتها الثلاثة التى سبق أن ألمحت إليها .

وكان صديقى العزيز ماهر البطوطى فى زيارة لمصر فى صيف ١٩٩٩ ، وقد نزل مع أسرته فى شقة بالعمارة التى نقيم بها ، فعرضت عليه الفكرة ، وهو أديب ومترجم ضليع ، وتناقشنا ساعات طويلة ، وتولّد من مناقشاتنا لكتاب المعاجم والدراسة التى كتبتها بعنوان مقتبس من قول فتجنشتاين - الفيلسوف الشهير - إن ثمة تشابهًا بين المعانى المختلفة للكلمة يشبه التقارب فى السحنة بين أفراد الأسرة الواحدة ، أقول تولّدت عن مناقشاتنا أفكار جديدة ، وطبقناها معًا على ترجمة خمسة أحاديث نبوية كان الأستاذ وجدى رزق غالى قد طلب منى ترجمتها لإدراجها فى معجم النفيس لمجدى وهبة . وكان ذلك يرتبط أيضًا بما ترسب فى أعماقى من رفض للمنهج الشكلى الذى اتبعته الباحثة نجوى الزينى (الدكتورة) فى رسالتها التى تقدمت بها للحصول على الدكتوراه بإشراف الدكتور سعد جمال ، وشاركت فى

مناقشتها ، وهذا المنهج ، مثل سائر مناهج علم اللغة يحاول وضع القواعد (to formalize) والتعميم (to universalize) فالقاعدة (rule) (كيف اشتقت فى العربية من الفعل قعد؟) إذا لم تكن مطردة أى قابلة للتطبيق فى جميع الأحوال ، فقدت قيمتها باعتبارها مبدأ يسترشد به . ولذلك فإن الباحثين فى علم اللغة يفترضون أن جميع اللغات متساوية فى قواعدها ، وفقًا لما قال به تشومسكى أولاً ثم عدل عنه فى عام ١٩٩٥ ، وأنها ترتكز إلى مفاهيم أولية primes وعالمية عامة (universals) وأن شتى الفروق فيما بينها يمكن إما التغاضى عنها باعتبارها عارضة (incidental) أى غير جوهرية فى البناء اللغوى أو باعتبارها خاصة بالثقافة وهو مجال لا يتطرق إليه علم اللغة .

وقد وجدت من ممارسة الترجمة الانجليزية إلى العربية ومن العربية إلى الانجليزية أن ذلك الاتجاه قد أوحت به دراسات اللغات الأوروبية التى تتفق فى جوهرها وعارضها بل وفى ثقافتها ، ولكنه لا يصلح أو لا يصدق على العربية عند المضاهاة بالانجليزية لأن العناصر العارضة وعناصر الثقافة تشغل مكان القلب فى العربية التراثية ، وتجاهل العربية التراثية (بل والفصحى المعاصرة) فى دراسات علم اللغة الحالية ، وتركيز الباحثين على اللهجات العامية (العربية المصرية ، والعربية الشامية ... إلخ) باعتبارها اللغات الحية الجديرة بالبحث وفقًا لمفاهيم علم اللغة الحديث ، قد أحدث خللاً لابد من التصدى له ، وهو خلل فى صلب المنهج نفسه وفى صلب النظرية . ولذلك شرعت أستقى من الممارسة مبادئ جديدة أهتدى بها، وانتهيت إلى أن المنهج الشكلى لا يكفى لتحليل الترجمة ، بل لابد أن يصاحبه منهج دلالى، يأخذ فى اعتباره تغير معنى الكلمة العربية أو التعبير العربى عبر العصور ، وهو ما أسميه بالمنهج الزمنى (diachronic) الذى يختلف عما يستند إليه الباحثون المعاصرون جميعًا من مناهج آنية (synchronic) أى مناهج لا تأبه لمعانى الكلمة المتوالية على مر الزمن ، وإن كان ذلك لازمًا فى حالة اللغة العربية .

وانتهيت أيضًا إلى أن من شأن المنهج الزمنى أن يجعل المترجم واعيًا بالسياق الثقافى للكلام ، لا السياق اللغوى أو التعبيرى فقط ، واكتشفت أننا نحتاج إلى ذلك السياق حاجة شديدة ، إذ ابتعد العهد باللغة التراثية وأصبحت معانيها غامضة ، وربما لم تكن كذلك عند أهل زمانها ، فكثير من الكلمات التى نصادفها فى شعر القدماء مختلف على معناها ، خصوصًا أسماء الحيوان والطير والنبات ، وكثير من الألفاظ الأصلية فى العربية ذات معان

"واسعة" يكتنفها الغموض ، وتكفى قراءة مادة أو مادتين من لسان العرب لإدراك ذلك بسهولة. وقد ضربت فى دراستى المذكورة أمثلة كثيرة على ذلك .

وأما جوهر المقال (أو الدراسة) فهو أن اختلاف المترجمين فى فهم النص العربى لابد أن يؤدى إلى اختلاف الترجمات الانجليزية له ، وقد قسمت درجات الاختلاف إلى فئتين رئيسيتين: الفئة الأولى هى فئة المترجمين الذين يقرأون النص باعتباره نصًا تراثيًا ، ولو كان مكتوبًا فى القرن العشرين ، ويشجعهم على ذلك ميل بعض أساتذة العربية وغيرهم إلى استخدام اللغة التراثية فى كتاباتهم ، والفئة الثانية هى فئة المترجمين الذين يعتبرون النص نصًا معاصرًا ، ولو كان قد كتب منذ ألف سنة أو أكثر ، يشجعهم على هذا كثرة تداول آيات كتاب الله العظيم وأحاديث نبيه الكريم ، ويشجعهم على ذلك أيضًا استناد هذه اللغة التراثية إلى مفاهيم أولية وعامة (بالمعنى المبين عاليه) تسمح بمثل ذلك التداول . وفيما بين هاتين الفئتين تقع فئات كثيرة يتفاوت حظها من إدراك المعانى القديمة ودرجة وجودها (أو الإيحاء بوجودها) فى النصوص المعاصرة ، ويتفاوت حظها من الإلمام بالتاريخ الثقافى للغة العربية .

ومع ذلك فقد ينتمى بعض المترجمين إلى فئة واحدة من الفئتين المذكورتين ثم يخرجون نصوصًا تختلف فيما بينها اختلافات واضحة دون أن يكون أحدهما أصح من صاحبه ، وذلك أساسًا بسبب اختلاف فهمهم - حتى فى نطاق الفئة نفسها - للنص ، واختلاف قدراتهم التعبيرية ، ومن ثم قلت فى الدراسة إن كثيرين من كل فئة يستطيعون إخراج ترجمات صحيحة تختلف فى ألفاظها ، ولكنها تقع فى مجموعتين تمثلان الفئتين السالفتين ، وهى على اختلافها تتشابه تشابه أفراد الأسرة الواحدة ! ومن ثم كان عنوان المقال Family Resem- blances .

وكان صديقى ماهر شفيق فريد يتابع قراءاتى فى علم اللغة الحديث ، فيما اشتريته من كتب أجنبية ، ويكاد ينكره ، وإن كان يقرؤه ويستمتع به ، ويقول لى "لقد اختلف حديثك واختلفت اهتماماتك !" كأنما كان يرجو ألا أنصرف عن الأدب إلى اللغة ، وذات يوم كنا فى مبنى مركز التجارة العالمى على شاطئ النيل ، فى مكتب برنامج الأمم المتحدة الإنمائى للسؤال عن شيك أتوقعه من الأمم المتحدة ، وكنا فى انتظار فض الرسالة البريدية التى كنت أرجو أن يكون الشيك فيها (ولم يكن) حين أخرجت له من حقيبتى نص كتاب ترجمته من العربية إلى الانجليزية بعنوان وقت فى العراء للكاتبة الجزائرية حبيبة محمدى ، وهو مجموعة فريدة من

الإبجرامات ، وكنت حائرًا كيف أترجم ' إبجرام ' حتى قال لى جابر عصفور "نحن نكتبها إبجرام وحسب" فقضى الأمر وحسم ، وكنت كتبت للترجمة مقدمة عن ذلك الفن الشعرى ، فانطلق يقرأ المقدمة وبدا عليه السرور ، إذ تيقن أن صديقه لم يخن قضية الأدب !

ورأيت الاستفادة مما تجمع لدىّ من المادة المترجمة التى تبين كيف تختلف معانى الكلمات باختلاف السياق ، لأننى ضقت ذرعًا بالأساتذة الذين لا يعرفون إلا معنى واحدًا لكل كلمة أجنبية ، وللطلاب الذين يمارسون الترجمة فلا يقربون المعجم ولا يحاولون إدراك المعانى المختلفة للكلمة ، وإذا كان الأساتذة لهم عذرهم فى ذلك ، فالمعنى الذى يعرفونه هو المعنى الذى يعنيهم فى تخصصهم ، فلا عذر للمترجم الذى يتصدى لنصوص كثيرة ، وعليه أن يلم بجميع معانى الكلمة إذا كان يريد احتراف تلك المهنة الشاقة . وقدمت لهذه النماذج بمقدمة وافية من ثلاثة فصول ، ثم جمعت الكلمات فى مجموعات وأرفقت بها معجمًا موجزًا أشرح فيه نظريات الترجمة الحديثة ، فى إطار ما أسميته بالترجمة الوظيفية ، وأعددت الكتاب للطبع ودفعت به إلى شركة لونجمان ، فرحب به الأستاذ وجدى رزق غالى ، وأسماه مرشد المترجم وصدر فى عام ٢٠٠٠ .

إن الاهتمام باللغة لا ينفصل عن الاهتمام بالأدب ، وكثيرًا ما أحزن حين يحجم الأستاذ عن إجابة سؤال فى اللغة محتجًا بأنه أستاذ للأدب لا للغة !

وكان من خيرات ترك رئاسة القسم أن أصبح لدى الوقت اللازم للانقطاع إلى القراءة ، وكنت منذ أن انغمست فى التراث العربى أستجلى غوامضه ، فهو بحر زاخر ، لا يمتطى ثبجه ولا تخاض لججه ، كما يقولون ، قد اكتشفت ضرورة الاطلاع على أصول الكلمات العربية ، وما أكثر ما تتجاهل المعاجم العربية هذه الأصول ، وكان من فواتح الشهية كتاب قضية التعريب على ضوء اللغات السامية للدكتور محمد زعيمة ، من قسم اللغات الشرقية عندنا ، إذ كنت أقرأ كتب الدكتور إبراهيم السامرائى فى هذا المجال فأجد أننى ما زلت حائرًا ، ولم يكن فى كتاب السيد آدى شير عن الكلمات الفارسية الدخيلة فى العربية ، إلا زيادة فى حدبى وإصرارى على ولوج هذا الباب ، وعندما انتهيت من المعرب للجواليقى وكتاب جامع التعريب بالطريق القريب أيقنت أننى لابد أن أستزيد وأستزيد ، وكان كل كتاب أقرؤه - مثل تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل للدكتور أحمد السعيد سليمان - حافزًا لى على إعادة

النظر فى المعجم العربى ، وكيف نفهم العربية ، وهذا من أخص خصائص المترجم الذى يحترف هذه المهنة ويتوفر على مزاولتها .

وكنت فى ذلك أشعر أن العربية من أصعب لغات العالم ، فها أنذا نشأت فى الكُتّاب وبدأت حياتى بحفظ القرآن وتقويم لسانى به منذ الصغر ، ثم شببت فى كنف والد لا هَمَّ له إلا العربية ، ومع ذلك أجد نفسى مثل المبتدئين كلما عَنّتْ لى صعوبة ، فأهرع إلى التليفون أسأل الدكتور عبد القادر القط ، ومن قبله - على امتداد سنوات - الدكتور شكرى عياد ، أو أقضى الساعات مع المعاجم التى أستنطقها فلا تفصح ، وفى غضون ذلك يزداد إعجابى بأساتذتنا الذين دانت لهم العربية فأحكموا فهمها وصوغها ، وأحيانًا ما كنت أقول لنفسى ، هل كان علىّ أن أتخصص فى العربية ، فربما حققت أحلامى . بدلاً من تعلم لغة أجنبية يزعم الجميع أنهم يعرفونها ، فلا حاجة بهم إليك ؟



وكان من خيرات التفرغ أيضًا حرية السفر فى ربوع مصر لمناقشة الرسائل فى الجامعات الإقليمية ، وكان صديقى الدكتور نبيل الكومى يرشدنى إلى الخبايا والأسرار ، ويخشى على الترحال على ما الأسفار من مشقة وإرهاق ، إذ أتاح لى ذلك الاطلاع على أحوال الدارسين فى تخصصنا ، وكم كانت دهشتى عندما أدركت أعدادهم الكبيرة ، ومدى الهوة التى تفصلهم بل وتعزلهم عن حياة البحث العلمى والاستزادة من المعرفة ، وكنت أستمع إلى القصص التى تبدو أغرب من الخيال ، ثم يتحقق لى صدقها عندما يتقدم بعضهم إلى اللجنة العلمية الدائمة طالبًا الترقى إلى درجة أستاذ مساعد أو أستاذ ! .

وكنت خرجت أول مرة من القاهرة إلى الأقاليم فى مطلع التسعينيات عندما دعانى الدكتور فوزى مكاوى عميد كلية الآداب بجامعة طنطا إلى الإشراف على قسم اللغة الانجليزية فى الكلية ، ولم يكن بالقسم أساتذة أو أساتذة مساعدون ، فكنت أذهب بسيارتى الفيات القديمة (١٣٢) وأحاول تطبيق ما نفعله فى القاهرة هناك، وكان أقدمهم - الدكتور هانى عازر - يتولى الإشراف الفعلى مع الاحتفاظ العميد بالإشراف الرسمى . ولن أنسى أول اجتماع

أعقده لمجلس القسم حين قال لى الدكتور محمد الشاعر بصراحة موجعة : ''نحن لا نريدك .. ولا نريد رئيسًا .. ولا نطلب منك إلا تدريس الترجمة !'' وعندما ذهبت إلى العميد جعل يقص علىّ طرفًا مما يفعلونه لكسب المال ، وكنت أستمع (ما بين مصدق ومكذب) إلى أحابيل ابتزاز الطلاب وطرائق الإثراء السريع ، وقال العميد مزهوًا لقد قبلنا المئات هذا العام بشرط دفع تبرع للكلية ، واشتريت بالمال المتوافر عدة حافلات صغيرة تخدم الجامعة ، وسألته إن كان يطبق شروط الالتحاق التى نطبقها فى القاهرة ، فقال ''إن لكل جامعة نظامها ، فنحن نؤمن باستقلال الجامعات ! وليست درجة اللغة الانجليزية فى الثانوية العامة مقياسًا يعتد به !''

وجاءه من يخبره أثناء الحديث معى بأن مدرسًا فى القسم يرفض بعض ما كلّفه به ، وكان ذلك المدرس هو الدكتور حسن البنا ، فقال ''استدعوه !'' ولما جاء حسن أغلظ العميد له القول ، وذكرنى هذا الموقف بما قاله الدكتور أحمد خليل الذى كان منتدبًا من كلية العلوم لعمادة كلية التربية فى الفيوم فى عامى ١٩٧٥ و ١٩٧٦ ، إذ أتيت له ذات يوم فى الرابعة مساءً أقول له إننى انتهيت من درسى وأود الاستئذان للرحيل إلى القاهرة (بعد عمل يوم شاق فى التدريس من التاسعة صباحًا) فنظر إلىّ باستعلاء ثم تطلع إلى جدول المحاضرات ، وقال بلهجة ناظر المدرسة ''ميعادك الساعة خامسة ! روح فصلك يا أستاذ !'' (فتركته إلى القاهرة ولم أعد بعدها إلى الفيوم أبدًا) .

وحاولت مساعدة أعضاء القسم فى طنطا على ممارسة البحث العلمى ، وتشجيع الصغار على الانتهاء من دراساتهم العليا ، ونجحت فى مسعاى الأخير إذ أشرف بعض أعضاء مجلس قسم الانجليزية لدينا - مثل الدكتور أمين العيوطى (الروائى والمترجم القدير) على بعض رسائلهم، وكنا نشارك أنا والدكتور محمود فهمى حجازى (من قسم اللغة العربية) فى الإشراف على الحياة العلمية بالقسم . ولكن سرعان ما اكتشفنا أن همّ الجميع كان كسب المال لا اكتساب العلم ، فبعضهم يسافر إلى بلدان قريبة أنشئت بها كليات تربية (مثل كفر الشيخ وشبين الكوم وبنها) للتدريس حتى بلغ عدد الساعات التى يدرسها بعضهم ٦٠ ساعة فى الأسبوع ! وكانت التجربة أليمة ، خصوصًا بعد أن سمعت من الدكتور هانى عازر أن العميد يقول إننى، أنا والدكتور حمودة الذى كان قد سبقنى فى الإشراف على قسم طنطا ، نسعى لكسب المال ! وغضبت ، خصوصًا لأننى لم أتقاض مليمًا واحدًا مقابل عملى الأسبوعى هناك على امتداد عامين .

ذكرت ذلك كله وأنا أتنقل بعد "التفرغ" فى أرجاء الصعيد وأنحاء الوجه البحرى ، وقناة السويس ، وشهدت بعينى رأسى مدى التدهور فى العلم والتعليم . وكان أحد الزملاء قد أطلعنى على ما يفعله هو فى المنطقة الشرقية من مصر ، منطلقًا من مكانه فى جامعة المنصورة ، حين ذكرت له أننى تقدمت بطلب للإعارة إلى إحدى الدول العربية ، فقال إنه لا حاجة له بالإعارة ! فالكتب تكفى ! وقال دون ذرة من خجل إنه يتفق مع إحدى مكتبات المنصورة على طبع النصوص الانجليزية المقررة (شيكسبير مثلاً) مع مقدمة يأتى بها من بعض الكتب ، ويكون ذلك كله عن طريق التصوير ، أى أن النص لا يُجمع فى المطبعة من جديد خشية الأخطاء المطبعية وتوفيرًا لجهد مراجعة التجارب الطباعية ، ثم إنه يفرض الكتاب باعتباره أستاذ المادة (وهو مدرس لأن الكوادر معظمها من الشباب ولا يوجد بينهم أساتذة) على ألف طالب فى المنصورة وفى الزقازيق وبنها مثلاً ، ويحدد سعره بعشرة أضعاف التكاليف، فيكون له من كتاب واحد مرتب شهرين أو ثلاثة فى الكويت أو السعودية

وقد أكد لى الدكتور عبد الرحيم الرفاعى – من جامعة المنصورة – أن ذلك ما زال يحدث وأن رئيس الجامعة يوافق عليه ، وأن الشكاوى التى قدمت كان مصيرها الرفض ، إذ قال رئيس الجامعة "لماذا يتحمل الطالب أسعار الكتب الأجنبية ، وهى باهظة بل رهيبة ، وهو يستطيع أن يدفع ربعها أو ثلثها لشراء الطبعات المصرية ؟" ولكن الذى لم يقله هذا أو ذاك هو أن 'البائع' هنا يتقاضى أرباحًا 'باهظة ورهيبة' مقابل جهد لا يذكر ، وأن الطالب يدفع عشرين أو ثلاثين جنيها ثمنًا لكتاب لم يتكلف طبعه جنيهين أو ثلاثة ! وسألت الدكتور الرفاعى ، وكان معى الدكتور ماهر شفيق فريد ، قبل مناقشة إحدى الرسائل ذلك اليوم فى المنصورة ، "وكم عدد الطلاب الذين قبلتموهم فى السنة الأولى بقسم اللغة الانجليزية هذا العام ؟" فقال "ألف وخمسمائة !"

ومن يعى ذلك يدرك سر الضجة التى ثارت عند صدور قانون الجامعات الجديد ! القضية ليست قضية الجامعات الرئيسية (القاهرة وعين شمس والإسكندرية) بل هى قضية الجامعات الإقليمية ، وإذا كان من اليسير التحقق من ضعف مستوى التحصيل فى اللغة الإنجليزية ، إذ يكفى أن تحادث أحدهم بالانجليزية حتى تكتشف ذلك ، فإن من أعسر الأمور فى التخصصات الأخرى ، فمن ذا الذى يستطيع أن يتحقق من مستوى طالب الطب أو العلوم أو الزراعة ؟! والغريب أن يجرى ذلك كله تحت بصر المسؤولين وسمعهم ، فما إن يترقى أحد

هؤلاء الإقليميين إلى درجة أستاذ مساعد ، عادة فى علم اللغة ، كأن يجرى بحثًا فى كلمة 'فى' أو 'فيه' بالعامية المصرية (فيه / فى عندك) وأبحاثًا من هذا القبيل حتى يصبح أستاذًا مساعدًا للّغة الانجليزية له حق الإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه ، فلا تمضى سنوات حتى يكون 'القسم العلمى' قد امتلأ بالمدرسين والمدرسين المساعدين الجدد ، ولا يعرف أحد عنهم شيئًا حتى يتقدموا للترقية ، وإن كان بعضهم يفضل عدم التقدم ، فالقانون يضمن له الاستمرار فى العمل فى الجامعة بعد الستين باعتباره أستاذًا متفرغًا وبعد السبعين أستاذًا غير متفرغ !

وأذكر أننى دعيت ذات يوم لمناقشة رسالة تقدمت بها صاحبتها للحصول على درجة الماجستير من جامعة الزقازيق . وكان المشرف من المنصورة ، والممتحن الآخر من الزقازيق ، وكانت الطالبة قد انتهت من السنة التمهيدية للماجستير عام ١٩٨٥ فى جامعة القاهرة ، وسجلت فى الزقازيق للدرجة ، وترددت الشائعات بأنها تزوجت العميد (وقد ذكرت لى ذلك بنفسها بلهجة من يريد أن يثبت ما ينفيه) وزارتنى فى المنزل لتسليمى الرسالة وكانت حاملاً على وشك الوضع ، وبعد أن قرأتُ الفصل الأول راعنى جمال الأسلوب واستواؤه ، فقلت للمشرف إننى موافق على المناقشة ، وشغلت بأشياء كثيرة عن الرسالة ، كما شُغلت هى بالوضع ورعاية الطفل ، ثم اتصل بى الدكتور طلعت حفنى . وكان زميلاً قديمًا ليدعونى إلى المناقشة لأن الطالبة سوف تسافر مع زوجها إلى بلد عربى شقيق ، وتحدد الموعد بعد أسبوع فعكفت على الرسالة وإذا بى أحس بأننى قرأت ذلك الكلام قبل ذلك . ترى أين قرأته ؟ وجعلت أحدس حتى مرت بى عبارة كنت واثقًا أن أصاحبها هو السير موريس باورا مؤلف كتاب الخيال الرومانسى فأتيت بالكتاب ووجدت أن الطالبة قد نقلت عنه فقرات كاملة ، مع تعديل فى أماكن العبارات ، فهى تبدأ الفقرة لديها بآخر جملة فى الفقرة الانجليزية ثم تأتى بالجملة الثالثة ومن ورائها الثانية وهكذا ، فاتصلت بالدكتور حفنى وقلت له هذه الطالبة حرامية وإننى لا أستطيع مناقشتها ، ولابد أن تعيد كتابة الرسالة وأن تورد أسماء المراجع التى اقتبست منها هذا الكلام ! وذهل مما سمع ، وقال إن الوقت ضيق ، ولن يتسنى لنا الاستعانة بأستاذ (ممتحن) آخر ، لأنها لابد أن تسافر بعد أسبوع !

وقلت فى نفسى : لقد أخطأت عندما اكتفيت بقراءة الفصل الأول ، وربما يكون أحد قد ساعدها فى كتابته ، وكان الواجب أن أفحص الرسالة كلها قبل الموافقة ! وهاأنذا فى حيص

بيص ! ولكننى قلت ، من ناحية أخرى ، إننى أستطيع معاقبة الطالبة وفضح سرقاتها ، بدلاً من إحضار أستاذ آخر يمنحها الدرجة بامتياز ! وهكذا وافقت على المناقشة ، وأعددت ما انتويت أن أقوله ، وقلته كله ، وكانت الطالبة تبكى بكاءً صامتًا ، وطفلها الرضيع الذى تحمله أمها يبكى بصوت مسموع ! واختلت اللجنة للمداولة ، فقال الممتحنان لى إن أمامنا خيارًا واحدًا - طبقًا للقانون - وهو منحها الدرجة بتقدير منخفض ، لأننا ما دمنا وافقنا على المناقشة فقد أجزنا الرسالة ! وحاولت التكفير عن خطئى (بعدم قراءة الرسالة كلها) وأصررت على منحها الدرجة بتقدير مقبول ، واعترض الممتحنان لأن ذلك معناه عدم تسجيلها للدكتوراه فقلت لهما : فى هذه الحالة ، وكما يقضى القانون ، فإن من حقى الانسحاب لأن أداء الطالبة فى الشفوى غير مقنع ! فوافق العضوان وحصلت الطالبة على الدرجة ، وسافرت ، واتصلت والدتها بى بعد نحو عام تشكرنى على موقفى ، وتقول إن ابنتها أصبحت رئيسة القسم هناك، وهى تعرض على السفر فى إعارة لديها !

وتجنبت الوقوع فى ذلك الخطأ فى العام التالى عندما أرسل لى أستاذ من صعيد مصر رسالة لطالب كنت أظنها للماجستير ، إذ فوجئت بضعف اللغة وعدم الإحاطة بموضوع يظنه الناس سهلاً لأن فيه جانبًا عربيًا وهو صعب ومعقد لذلك السبب نفسه ، ألا وهو مقارنة مسرحيات صلاح عبد الصبور بمسرحيات ت. س. إليوت ، وكنت قد شاركت قبل أعوام فى مناقشة رسالة عن مسرح إليوت ، كان يشرف عليها فى جامعة الملك عبد العزيز ، فى جدة ، الدكتور عبد الله عبد الحافظ متولى ، مما اقتضى تعمقى فى دراسة الموضوع ، وأما صلاح فكنت أكاد أحفظه حفظًا !

تجنبت الوقوع فى ذلك الخطأ بأن قرأت الرسالة واعتذرت للأستاذ بسبب سفرى إلى إيطاليا موضحًا له أن الرسالة فى حاجة إلى تعديلات فى المنهج وفى اللغة ، فقال إنه لاحظ ذلك وسوف يقوم الطالب بهذه التعديلات فى الصيف ، ورجانى ألا أنسحب من اللجنة بعد أن وضع اسمى فى التشكيل الذى وافق عليه مجلس الكلية والجامعة ! ولكننى أصررت على الانسحاب متعللاً بمشاغل كثيرة ، وبعد أيام اتصلت بى الدكتورة منى أبو سنة وسألتنى عن رأيى فى الرسالة بعد أن سمعت أننى قبلتها ، وقلت لها الحقيقة فقالت إنها قد اعتذرت هى الأخرى ، للأسباب التى أبديتها نفسها . وعندما عدت من إيطاليا فى سبتمبر قرأت خبرًا مفاده حصول الباحث فلان على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى ! ولا يزال ذلك الباحث يتقدم

إلى اللجنة العلمية ، المرة بعد المرة ، محاولاً الترقى إلى درجة أستاذ مساعد حتى يشرف على رسائل جامعية ، ولا يزال يخفق فى كل مرة ، لكنه دؤوب لا يكل ولا يمل !

وفى يوم ١٨ مايو ٢٠٠٠ ذهبت أنا والدكتور شبل الكومى لمناقشة رسالة فى أسيوط ، وكان يوم ثلاثاء ، فالطائرة تقتصر على رحلة واحدة من مطار القاهرة فى الأسبوع ، وقبيل المناقشة ، وأنا مشغول بترجمة بعض أبيات من قصيدة على اسم مصر للشاعر صلاح جاهين ، دخلت الدكتورة فردوس عبد الحميد ، المشرفة ، وقالت إنها تركت اجتماع مجلس الكلية حتى تنتهى من مناقشة الرسالة . وكان المجلس يناقش تسجيل أحد الطلاب لموضوع فى الترجمة وهو ترجمة قصة موسى عليه السلام فى القرآن الكريم ، وكان ذلك هو نفس الموضوع الذى دَرَستْهُ نجلاء رشدى وحصلت به على الدكتوراه من جامعة القاهرة قبل عامين ، بإشرافى ، فقلت لها كيف لم يطّلع المجلس على الرسائل التى سبقت كتابتها فى هذا الموضوع ؟ فقالت إنها اعترضت فى المجلس ولكن رئيس القسم (وكان أيضًا وكيل الكلية) الدكتور أحمد المختار أصر على رأيه ! وعندما رأيت الدكتور المختار بعدها بقليل ذكرت له ذلك فقال "سوف يناقش الطالب الموضوع من زاوية مختلفة - لغوية !" وقلت له أرجو أن يطّلع الطالب على دراسة نجلاء ، ولكنه قال إن الزاوية مختلفة !

وفى عام ٢٠٠٠ اتصلت بى الدكتورة فاطمة نصر وقالت لى إنها وُفّقت فى الحصول على حق ترجمة كتاب أرمسترونج الجديد معارك فى سبيل الإله وليتنا نبدأ العمل على الفور ! وانتهى العمل فى آخر الصيف فعلاً ، وصدر الكتاب ولاقى نجاحًا كبيرًا ، وفاز بجائزة أحسن كتاب مترجم عن عام ٢٠٠٠ فى معرض القاهرة الدولى للكتاب فى يناير.

وفى عام ٢٠٠٠ بدأت رحلاتى إلى جامعة جنوب الوادى - كلية الآداب فى أسوان - للتدريس لا لمناقشة الرسائل ، فعلمت المزيد عن مصر وجامعاتها .

وصلت الآن إلى الحد الزمنى الذى وضعته لهذا الكتاب ، وهو عام ٢٠٠٠ ، أى عام نهاية القرن العشرين ، فالعدد مائة يبدأ برقم ١ وينتهى برقم ١٠٠ ، ولم يبق سوى ربط بعض الخيوط التى سهوت عن ربطها فى خضم الأحداث ،.ومنها مقابلة حسن المخرج فى صيف ١٩٩٩ بعد عودتى مباشرة من أمريكا ، أثناء زيارة له للقاهرة ، وقد استعاد نشاطه وحيويته ، برغم الشيب الذى وخط لحيته وشعر رأسه (وقد دب إليها الصلع) فطمأننى على حال أسرته، إذ تزوجت ابنته من ممثل مشهور ، وهما يعيشان فى هناء ، وشفيت زوجته من مرضها القديم، وإن كانا غير زوجين بالمعنى الدقيق ، وأما هو فهو فمقيم بصفة دائمة فى أمريكا حيث افتتح مكتبًا للخدمات الإعلامية (الترجمة) ودعانى – كعادته – للعمل معه ! وكنت كشأنى مجاملاً فلم أرفض ولم أقبل ، وافترقنا ولم أره بعد ذلك .

وأما مسرحيتى كيلو بودرة فلم أجرؤ بعد على تقديمها إلى أحد المخرجين ، وليس فى ذهنى سوى محمود الألفى ، حتى أضيف إليها اللمسات التى تحررها بعض الشىء من المادة الحياتية (الحيوية) وتجعلها أكثر جاذبية للمشاهدة ، ولكننى أعددت ديوانًا جديدًا كتبت جُلّ قصائده فى شتاء ٢٠٠٠ بعنوان حورية أطلس ولم أغادر مصر فى عام ٢٠٠٠ إلى الخارج إلا فى رحلة قصيرة إلى إمارة الشارقة بدولة الإمارات العربية المتحدة برفقة سمير سرحان ، وفى ٣ ديسمبر من عام ٢٠٠٠ أجرى لى العبقرى ممتاز حجازى عملية المياه البيضاء فى عينى اليسرى ، ولكننى رغم المضاعفات غير المتوقعة بسبب ارتفاع ضغط الدم المزمن لدىّ ، تماثلت للشفاء والحمد لله .

لقد التزمت بعدد محدد من الصفحات لا أزيد عليه فنسيت الكثير وحذفت الكثير ، ولكن همّى الأول كان رصد ذلك التنوع الذى يقارب التشتت فى النشاط العلمى والأدبى على امتداد ربع قرن ، وكانت زيارة الماضى ممتعة وأليمة ، واستنفدت منى جهدًا نفسيًا يصعب وصفه ، وأرجو أن أكون قد أخرجت صورة صادقة لحياتى فى هذه السنوات الخمس والعشرين، آخر مرحلة فى العمر الرسمى ، وبعد أن غدوت أحس أننى ضيف على هذا الوجود، أنتظر الدعوة للرحيل فى أى لحظة . كلنا ضيوف ، وكلنا راحلون ، ولكن تجربة المرض اللعين قد عمقت من هذا الإحساس الذى لا أظنه يراود الكثيرين ، وأنا أشكر الله سبحانه وتعالى على المرض وعلى الشفاء منه ، فلقد منحنى مهلة للاستعداد للامتحان ، كأنما أصبح هناك 'دور ثان' ، بلغة المدرسين ، وعلىّ أن أستعد له .

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٣١٤ /٢٠٠٢

I.S.B.N 977 - 01 - 7705 - 7